

المُدْهَشَات

مُنْتَخِبَات من المُدْهَش

للإمام ابن الجوزي

رحمه الله



تأليفُ

إبراهيم بن عبد الرحمن الزمبي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين

المُدْهَشَاتُ

منتخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

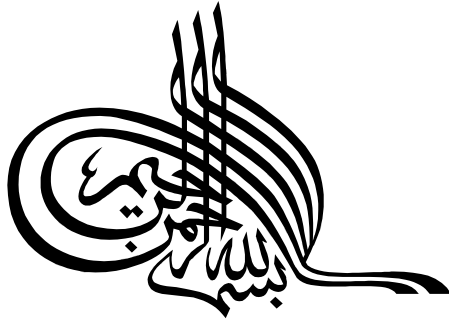
رحمنا الله جميعاً وإياه

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميحي

عامله الله بعفوه وغفرانه





مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله المنعم علينا بجزيل الإحسان، وغزير النعم الحسان، فطرنا على الإيمان، وهدانا للإسلام، وخصّنا بسيد الأنام، ومحكم القرآن، وعلّمنا البيان، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له في خلقه ولا ملكه ولا تدبيره ولا أسمائه ولا أوصافه ولا أفعاله ولا ألوهيته من جميع الأكوان، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله ووصيه وخليفه وكليمه وكريمه، لم يترك خيراً إلا حثنا عليه، ولا شراً إلا حذرنا منه، إجمالاً أو تفصيلاً، اللهم صل وسلم وبارك وأنعم عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان. أما بعد:

فإن الإمام جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (٥١٠-٥٩٧هـ) وقد حُقَّ له أن يُلقَّب بواعظ الإسلام، والذي قال عنه الحافظ الذهبي: «الشيخ الإمام العلامة، الحافظ المفسر، شيخ الإسلام، مفخر العراق، جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي القرشي، التيمي البكري، البغدادي الحنبلي، الواعظ، صاحب التصانيف» قد طرحت له المعاني فكان يختار منها الجميل بسبك المباني، وينثر أصناف الفوائد وأصداف الفرائد حتى ضرب الناس عنه بعطن، ومن أرق وأجمل وأمتع كتبه - التي فاقت ألف مجلد - كتاب المدهش الذي حظي بثناء الأكابر والأجلة، من العلماء والعباد والزهاد، ونقلوا عنه كثيراً في مصنفاتهم، وهو



المدهشات

كتاب موضوعه الوعظ والتذكير، والتزهيد في الدنيا، والاستعداد للدار الآخرة، وقد بلغ المتتهى والغاية من كلام البشر، لولا هئات فيه، كبعض لوثات المتصوفة، وقليل من الأخبار المكذوبة على بعض الصالحين - وغير قليل من تكلف السجع ومدح النفس، رحمه الله وغفر له وأروى قبره رضواناً ونعيماً، وإيانا ووالدينا - الكاتب والقارئ - آمين.

وقد انتخبت منه منتخبات، أظنها واسطة عقود فصوله ودرر تيجان أبوابه مع حذف بعض الأبواب التي تليق بالكتب المتخصصة مع قليل تصرف، والله المسؤول أن يغفر لنا وله وللمؤمنين والمؤمنات الأحياء والأموات، وقد سميته (المدهشات) سائلاً ربي أن ينفع به كما نفع بأصله، وأن يجعله من الباقيات الصالحات إنه سميع قريب مجيب.

وصلى الله وسلم وبارك على محمد وآله وصحبه.

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميمي

١٤٣٣ / ٦ / ٥



مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله الذي لا منتهى لعطاياه ومنحه^(١) حمداً يقوم بالواجب من شكره ومدحه، وصلى الله على أشرف نبي وأنصحه، وعلى أصحابه وعلى آله وأزواجه ما استنَّ طَرْفٌ في مرجه^(٢).

اعلم أن لغة العرب واسعة، ولهم فيها التصرف الكثير.

فتراهم يتصرفون الواحدة بالحركات، فيجعلون لكل حركة معنى كالحَمْل والحَمَل، والرُّوح والرَّوْح.

وتارة ياءعجام: كالنضح والنضخ^(٣) والقبضة والقبضة^(٤) والمضمضة والممصصة^(٥)، وتارة يقلبون حرفاً من كلمة ولا يتغير عندهم معناها، كقولهم: صاعقة وصاقعة، وجَبَدَ وجذب، وما أطيبه وأيطبه، وربض وربض، ولعمري ورعملي، واضمحل وامضحل، وسبب وسبب.

(١) الأصل المطبوع بعناية عبد الكريم محمد منير تتان، وخلدون عبد العزيز مخلوطة، نشر دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ١٤٢٥ هـ، وقد كفياني مؤنة كثير من غريب الألفاظ وتخريج الأحاديث جزاهما الله خيراً.

(٢) استن: جرى بنشاط. طرف: الفرس الكريم الأبوين، مرجه: النشاط أو المراح.

(٣) بالمهملة الكميّة أقل.

(٤) بالمهملة في الأصابع، وبالمعجمة في الكف.

(٥) بالمعجمتين ملاً الفم، وبالمهملتين بطرف الشفاه.



المذهشاتُ

وتختلف الأسماء باختلاف أحوال المسمى:

ففي المنازل: إن كان من مدر قالوا: بيت، والوبر: بجاد، والصوف: خباء، والشعر: فُسطاط، والغزل: خيمة، والأدم: قِشَع.

والأوطان: وطن الإنسان، وعَطَن البعير، عرين الأسد، وجر الذئب والضبع، كِنَاس الطبي، عُش الطير، قرية النمل، كُور الزنابير، نافقاء اليربوع.

ويقولون: عدا الإنسان، أَحْضَرَ الفرس، أرقل البعير، عَسَل الذئب، مَزَع الطبي، زَفَّ النعام.

ويقولون: طَفَرَ الإنسان، ضَبَرَ الفرس، وثب البعير، قفز العصفور، طمر البرغوث.

وفي أسماء الأولاد: ولد كل سبع جرو، وذو الريش فَرخ، والوحشية طفل، والفرس مُهر وفُلو، والحمار جحش وعفو، والبقرة عجل، والأسد شبل، والظبية خِشْف، والفيل دغفل، والناقة حوار، والثعلب هجرس، والضب حسل، والأرنب خِرْنُق، والنعام رَأل، والدب ديسم، والخنزير خَنَوْص، واليربوع والفأرة دِرْص، والحية حَرِيش.

وفي الضرب: بالراح على مقدم الرأس صقع، وعلى القفا صفع، والوجه صك، وعلى الخد يبسط الكف لطم، وبقبضها لكم، وبلكتا اليدين لدم، وعلى الذقن والحنك وهز، وعلى الجنب وخز، وعلى الصدر



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

والبطن بالكف وكز، وبالركبة زين، وبالرجل ركل، وكل ضارب بمؤخرة من الحشرات لسع، وبفيها لدغ.

وفي الكشف: حسر عن رأسه، سفر عن وجهه، افتر عن نابه، كشر عن أسنانه، أبدى عن ذراعيه، كشف عن ساقيه، هتك عن عورته.

وفي الجماعات: موكب فرسان، كبكة رجال، جوقة غلمان، لمة نساء، رجيل خيل، صرمة إبل، قطيع غنم، سرب ظباء، عرّجلة سباع، عصابة طير، رجل جراد، خشرم نحل.

وفي الامتلاء: بحر طام، نهر طافح، عين ثرة، إناء مفعم، مجلس غاص بأهله.

وفي اللين: توب لين، رمح لدن، لحم رخص، ريح رخاء، فراش وثير، أرض دمثة.

وفي المطر: أوله رش، ثم طش، ثم طل، ورذاذ، ثم سح، ثم نضح، ثم هطل، وتهتان، ثم وابل وجود.

فإذا أحيا الأرض بعد موتها فهو الحيا، وإن جاء عقيب المحل أو عند الحاجة فهو الغيث.

وفي الأصوات: رغا البعير، وجر جر وهدر، وقبب، وأطلت الناقة، وصهل الفرس، وحمحم، ونهم الفيل، ونهق الحمار، وسحل، وسجج البغل، وخارت البقرة، وجارت، وثاجت النعجة، وثغت الشاة ونعرت،



المذهشات

ووعوق الذئب، وعزفت الجن.

المراهق من الغلمان بمنزلة المُعصر من الجوّاري.

والحزور بمنزلة الكاعب.

والكهل بمنزلة النّصف من النساء.

والقارح من الخيل بمنزلة البازل من الإبل.

والعجل من البقر، والشادن من الظباء، كالناهض من الفراخ.

البكر من الإبل بمنزلة الفتى، والقلوص بمنزلة الجارية، والجمل

بمنزلة الرجل، والناقة بمنزلة المرأة، والبعير بمنزلة الإنسان.

وللعرب في ألفاظها عام وخاص:

فالبُغض عام، والفرّك بين الزوجين خاص.

والنظر إلى الأشياء عام، والشّيم إلى البرق خاص.

الصراخ عام، والواعية على الميت خاص.

السير عام، والسرى بالليل خاص.

الهرب عام، والإباق للعبيد خاص.

مسميات بشروط:

لا يقال مائدة إلا إذا كان عليها طعام، وإلا فهي حِوَان.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

- ولا للعظم عرق إلا ما دام عليه لحم.
- ولا كأس إلا إذا كان فيه شراب، وإلا فهي زجاجة.
- ولا كوز إلا إذا كان له عروة، وإلا فهو كوب.
- ولا أريكة إلا للسريير إذا كان عليه قبة، وإلا فهو سريير.
- ولا خدر إلا إذا كان فيه امرأة، وإلا فهو ستر.
- ولا للمرأة طعينة إلا إذا كانت في الهودج.
- ولا عهن إلا إذا كان مصبوغاً، وإلا فهو صوف.
- ولا وقود إلا إذا اتقدت فيه النار، وإلا فهو حطب.
- ولا ركيّة إلا إذا كان فيها ماء، وإلا فهي بئر.
- ولا نفق إلا إذا كان له منفذ، وإلا فهو سرب.
- ولا لسريير نعش إلا ما دام عليه الميت.
- ولا للخاتم إلا إذا كان عليه فص.
- ولا بدنة إلا للتي تجعل للنحر.
- ولا ركب إلا لركبان الإبل.
- ولا هضبة إلا إذا كانت حمراء.
- ولا غيث إلا إذا جاء في إبانه، وإلا فهو مطر.



المُدْهَشَاتُ

زوجات الرسول ﷺ:

تزوج خديجة ثم سَوْدَة ثم عائشة ثم حفصة ثم أم سلمة ثم جويرية ثم زينب بنت جحش ثم زينب بنت خزيمة ثم أم حبيبة ثم صفية ثم ميمونة رضي الله عنهن، فهاتت خديجة وزينب بنت خزيمة في حياته، وتوفي عن التسع البواق. صلى الله وسلم عليه وآله.

تسمية من جمع القرآن وحفظه على عهد رسول الله ﷺ:

عثمان بن عفان، أبيّ، معاذ، أبو الدرداء، زيد بن ثابت، أبو زيد الأنصاري، قال ابن سيرين: وتميم الداري، قال القرطبي: وعبادة بن الصامت، وأبو أيوب.

قلت - إبراهيم -: وغالب الظن أن منهم الخلفاء الأربعة فقد كان الشيخان لا يفارقانه سفرًا وحضرًا، وصحَّ عن عثمان أنه قام بالقرآن كله في ركعة، أما علي فقد عاصر التنزيل من أوله، فالأربعة هم أولى الناس بجمعه، ولعل ترك إيرادهم لظهور العلم بهم رضي الله تعالى عنهم.

من تأخر موته من الصحابة:

آخر من مات من أهل العقبة: جابر بن عبد الله، ومن أهل بدر: أبو اليسر، ومن المهاجرين: سعد بن أبي وقاص، وآخر من مات بمكة: ابن عمر، وبالمدينة: سهل بن سعد بن معاذ، وبالكوفة: عبد الله بن أبي أوفى، وبالبصرة: أنس، وبمصر: عبد الله بن الحارث، وبالشام: عبد الله بن



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

بسر، وبخراسان: بريدة، وآخر من مات ممن نظر إلى رسول الله ﷺ:
أبو الطفيل بن عامر بن وائلة.

أوليات في الجاهلية:

أول من سيّب السوائب: عمرو بن لحي.

أول من سن الدية مئة من الإبل: عبد المطلب.

أول من قطع في السرقة، وقضى بالقسامة، وخلع نعليه عند دخول
الكعبة: الوليد بن المغيرة.

أول من قضى في الخنثى من حيث يبول: عامر بن الظرب.

أول عربي قسم للذكر مثل حظ الأنثيين: عامر بن جشم.

أسماء تطلق على الرجال والنساء:

أمية، عمارة، فضالة، طلحة، هند، هبة الله، أسماء، بركة، بريدة،
جويرية، حميضة، الرباب، زيد، عصيمة، عليّة، عميرة.

عجائب الأقرباء نسباً وحالاً:

أربعة تناسلوا، رأوا رسول الله ﷺ: أبو قحافة، وابنه أبو بكر، وابنه
عبد الرحمن، وابنه محمد.

أربعة إخوة كان بين كل واحد منهم وواحد عشر سنين: أولاد أبي
طالب: طالب وعقيل وجعفر وعلي.



المُدْهَشَاتُ

امرأة شهد لها بدرًا سبعة بنين مسلمين وهي عفراء بنت عبيد.
 امرأة ولدها رسول الله ﷺ وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة
 والزبير والحسين وابن عمر هي حفصة بنت محمد بن عبد الله بن
 عمر بن عثمان بن عفان.



المواعظ بالقصص

﴿ في قصة آدم عليه السلام: ﴾

خلق الله آدم عليه السلام آخر الخلق، لأنه مهد الدار قبل الساكن، وأقام عذره قبل الزلل، بقوله تعالى: ﴿ فِي الْأَرْضِ ﴾ [البقرة: ٣٠] فظنت الملائكة أن تفضيله بنفسه، فضنت بالفضل عليه، فقالوا: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا ﴾ فقبولوا بلفظ ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ ﴾.

فصوّره وألقاه فلما عاين إبليس تلك الصورة، بات من الهم في صوره^(١)، فلما نفخ فيه الروح بات الحاسد ينوح.

ثم نودي في نادي الملائكة: ﴿ اسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ [البقرة: ٣٤] فتطهروا من غدير ﴿ لَا عِلْمَ لَنَا ﴾ [البقرة: ٣٢].

وغودر الغادر بخسًا بكبرياء ﴿ أَنَا خَيْرٌ ﴾ [ص: ٧٦] ثم حام العدو حول حمى المحمي، فلولا سابق القدر ما قدر على آدم.

فلما نزل إلى الأرض، خدَّ خدَّ^(٢) الفرح بمدمع الترح^(٣).

(١) الصّورة: إرادة الحكمة في الرأس.

(٢) خدَّ الأولى: صفر، خد الثانية: خدَّ الوجه.

(٣) الترح: الحزن.



المذهبات

يا آدم لا تجزع من كأس خطأ كان سبب كيسك، فلقد استخرج منك داء العجب، وألبسك رداء النسك «لو لم تذبوا لذهب الله بكم، وجاء بقوم»^(١).

لعلّ عتبك محمودٌ عواقبه وربما صحّت الأجساد بالعلل

🕌 في بناء الكعبة:

لما هاجر الخليل بهاجر وابنها، أوضع^(٢) بهما فوضعها هنالك، وتولى راضياً بمن تولاه يوم ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فقالت هاجر: آله أمرك بهذا؟ قال: نعم، فرجعت متوكئة على منسأة التوكل^(٣) على من لا ينسى، فلما نفذ الزاد واللبن، انطلقت لتبذل الجهود في مأمور ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] فصعدت بأقدام الصفا على الصفا، وأطلت الطلّة^(٤)، ثم جرت، ثم وسّعت خطاها، ثم أتت المرأة المروة، وعادت إلى الصفا سبغاً، فلذلك أمر المكلف أن يسعى، ونزل الملك ليزيل النازلة، فهبأ نزل النزيل النزيه، فزمزم ماء زمزم^(٥)، فمرت رفقة من جرهم، فجرّهم سؤال ﴿فَأَجْعَلْ أَعْيُدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧] فأقاموا.

(١) رواه أحمد، وتامه: «يذبون فيغفر لهم».

(٢) أي أسرع.

(٣) المنسأة: العصا.

(٤) الطلل: المكان المرتفع، والطلّة هي المرأة، وهي هاجر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٥) زمزم: أي صوت متتابع، كناية عن تفجيره بركضة جبريل عليه السلام.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

واشتاق الخليل إلى ابنه، فاستاق راحلة الرحيل، وأمر ببناء البيت
﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: ٢٦] فكان استراحة البناء المعنى ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ
مِنَّا﴾ [البقرة: ١٢٧] فلما فرغا، فغرا فم السؤال، يرتشفان ضرع الضراعة
﴿وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة: ١٢٨].

فلما شرفت الكعبة بإضافة ﴿وَطَهَّرَ بَيْتِي﴾ [الحج: ٢٦] قصدها فوج
الفيل فقيل^(١) مرادهم، لما باتوا على ما بيتوا، أقبل الطير الذي رمى
كالغمام، فكانت قطرته للحصاد لا للبذر، فأصبح لزراع الأجساد كالمنجل
الهاشم، ليكون معجزة لظهور ابن هاشم.

﴿ في قصة نوح عليه السلام:﴾

لما عم أهل الأرض العمى عما خلقوا له، بعث نوح لجلاء أبصار
البصائر، فمكث يداويهم ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]
فلاخ عدم فلاحهم، فولاهم الصلا^(٢) إياساً من صلاحهم، وبعث
شكاية الأذى في مسطور ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ [نوح: ٢١] فأذن مؤذن الطرد
﴿أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدَّ آمَنَ﴾ [هود: ٣٦] فقام نوح في محراب
﴿لَا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦] فأتته رسالة ﴿أَنْ أَصْنَعْ﴾ [المؤمنون: ٢٧] ونادى يريد
الإعلام بالغضب ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي﴾ [هود: ٣٧] فلما انهال كتيب الإمهال،

(١) يقال: قِيلَ رأيه: ضعفه وخطأه.

(٢) الصلا: وسط الظهر، أي أعرض عنهم.



المذهشات

وانقطع سلك التأخير، غربت شمس الانتظار، فادهمت عقاب^(١) العقباب، فلما انسدت الظلمة، وفات النور ﴿وَفَارَ النَّتُّورُ﴾ [هود: ٤٠] فقيل: يا نوح قد حان الحين^(٢) فاحمل ﴿فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] فتخلف خلف من ولده، فمد يد الحنو ليأخذه بيده ﴿يَبْتِئَ أَرْكَبَ مَعَنَا﴾ [هود: ٤٢] فأجاب عن ضمير خائض في المساوي ﴿سَاوِيَ﴾ [هود: ٤٣] فرد عليه لسان الوعيد: ﴿لَا عَاصِمَ﴾ [هود: ٤٣].

🏠 في قصة عاد:

لما تجبر قوم عاد في ظل ظلل ضلالهم حين أملى الأمل وطول البقاء، وزوي ذكر زواهم، رافلين^(٣) في حُلل الغفلة بالأمنية عن المنية، إذ أقبل هود يهديهم ويناديهم في ناديم ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [الأعراف: ٦٥] فبرزوا في عتو ﴿مَنْ أَشَدُّ مَنَا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] فسحب سحب العذاب ذيل الإدبار، فظنوه لما اعترى عارض مطر، فتهادوا تباشير البشارة بتهادي ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطَرٌ نَارًا﴾ [الأحقاف: ٢٤] فصاح بلبل البلبال^(٤) فبلبل^(٥): ﴿بَلْ هُوَ مَا

(١) العقاب: الحرب.

(٢) الحين: الموت والهلكة.

(٣) رافلين: متبخرين.

(٤) البلبال: شدة الهم والوسواس.

(٥) بلبل: فرّق وبدد.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

أَسْتَعَجَلْتُمْ بِهِ ﴿ [الأحقاف: ٢٤] فكان كلما دنا وترامى، ترى ما كان كأن لم يكن، فجنى من جنى من جنى ما جنى (١) ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٦] فراحت ريح الدبور، لكي تسم الأدبار بكى الإدبار، فلم تزل تكوي تكوينهم، وتلوي تلوينهم، وتكفأ عليهم الرمال فتكفي تكفينهم، فما برحت بارحهم (٢) عن برآحهم (٣) حتى برّحت بهم (٤) فدامت عليهم آفة وداء، لا تقبل فداء ﴿سَبَعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة: ٧] فانظر إلى عواقب الخلاف، فإنه شاف كاف.

﴿ في قصة ثمود: ﴾

لما عرضت ثمود عن كل فعلٍ صالح، بُعث إليهم للإصلاح صالح، فتعتت عليه ناقة أهوائهم بطلب ناقة، فخرجت من صخرة صماء تقبب (٥) ثم فصل عنها فصيل يرغو، فرتعت في حماية ﴿وَلَا تَمْسُوهُا﴾ [الشعراء: ١٥٦] فاحتاجت إلى الماء، وهو قليل عندهم، فقال حاكم الوحي ﴿هَذَا شَرِبٌ﴾ [الشعراء: ١٥٥] وكانت يوم وردها تقضي دين الماء بقاء درها.

(١) أي: قطف من أذن من ثمار معصيته.

(٢) البارح: الريح الباردة.

(٣) البراح: الساحة.

(٤) برّحتهم: أجهدتهم وعذبتهم.

(٥) تقبب: تصوّت.



المذهشات

فاجتمعوا على شاطئ غدير الغدر، فدار قدار^(١) حول عَطْنِ^(٢) ﴿فَنَعَاطَى﴾ [القمر: ٢٩] فَصَبَّ عَلَيْهِ صَاعٌ صَاعَةً الْعَذَابِ الْهُونِ، فحين دنا ودندن، دمعهم دمار ﴿فَدَمَدَمَ﴾ [الشمس: ١٤] فأصبحت المنازل لهول ذلك النازل ﴿كَأَن لَّمْ تَعْنِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

🕌 في قصة الخليل عليه السلام:

كانت أمة تُرضعه، وقد سبقها رضاع ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١] رأى قومه في هزل ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ أَبَاءً نَّآ﴾ [الزخرف: ٢٢] فجادلهم فجادلهم^(٣) وأبرز نور الهدى في حجة ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فقابله نمرود بظلام ﴿أَنَا أَحْيَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فألقاه على عَجْزِ الْعَجْزِ بآية ﴿فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

ثم دخل دار الفراغ^(٤) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ [الصفات: ٩٣] فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فبنوا بنياناً إلى سفح جبل، فاحتطبوا له على عَجَلِ الْعَجَلِ، فوضعوه في كفة المنجنيق، فاعترضه جبريل في الطريق، فناداه وهو يهوي في ذلك الفلا: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا، فسبق بريد الوحي إلى

(١) قدار بن سالف، أشقى الأولين، وهو عاقر الناقة.

(٢) العطن: المناخ.

(٣) غلبهم في المجادلة.

(٤) معبد الاصنام لما فرغ منهم.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

النار، بلسان التفهيم: ﴿كُوْنِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩].

🕌 في قصة الذبيح عليه السلام:

لما ابتلي الخليل بنمرود فسَلِم، وبالنار فَسَلَّمَ، امتد ساعة البلاء إلى الولد المساعد، فظهرت عند المشاورة نجابة ﴿أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصفات: ١٠٢] وآب^(١) يوصي الأب، اشدد رباطي ليمتنع ظاهري من التزلزل، كما سكن قلبي سكن السكون، واكفف ثيابك عن دمي لا يصبغها عندي^(٢) فتحزن لرؤيته أُمي، واقرأ السلام عليها مني، فقال: نَعَمْ العون أنت يا بُني.

ثم أمر السكّين على مريء المرء فما مرّت، فطعن بها في الحلق مرّات فنبت^(٣) لكن حُبَّ حَبِّ الرضا في حبة القلب نبت.

يا إبراهيم! من عادة السكين أن تقطع، ومن عادة الصبي أن يجزع، فلما نسخ الذبيح نسخة الصبر، ومحا سطور الجزع، قلب الله عادة الحديد، فما قطع، وليس المراد من الابتلاء أن يُعذّب، ولكن يتلى ليُهدّب.

أين المعتبرون بقصتها في غُصَّتْها؟ لقد حصحص الأجر في حِصَّتْها، لما جعلوا الطاعة إلى الرضا سُلماً، فسَلَّ ما يؤذي فسُلماً، وصدّ ما به صدماً.

(١) آب: رجع.

(٢) العندم: الدم.

(٣) نبت: كلت ولم تقطع.



المُدْهَشَاتُ

بينما على تل ﴿وَتَلَّهُ﴾ [الصفات: ١٠٣] جاء بشير ﴿قَدْ صَدَقْتَ
الرُّيَا﴾ [الصفات: ١٠٥] فارتدَّ الحزن بقميص ﴿وَفَدَيْتُهُ﴾ [الصفات: ١٠٧].
ليس العجبُ أمرَ الخليل بذبح ولده، وإنما العجب مباشرة الذبح
بيده، ولولا استغراق حُبِّ الأمرِ لما هان مثل هذا المأمور.

🏠 في قصة قوم لوط عليه السلام:

لما تهاوى قوم لوط في هوة أهوائهم، وتنادوا في جهات جهلهم
﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ [النمل: ٥٦] بُعثت الأملاك لانتزاع أملاك الحياة من
أيديهم، فنزلوا من منزل لوط منزل النزيل، فهم في أفسح بيت من الكرم،
غير أن حارس حِذْرِهِ ينادي ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [هود: ٧٧] فخاف من
قومه أذاهم، فإذا هم ﴿يُهْرَعُونَ﴾ [هود: ٧٨] فأخذ يدافع مرة بمشورة
﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ وتارة بتقاة ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ وتارة بسؤال ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ﴾
وتارة بتوبيخ ﴿وَلَا تَحْزُونِ﴾ [هود: ٧٨].

فلما كلَّ سلاحه، أن برمز ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ﴾ [هود: ٨٠] فحجبهم جبريل
بحجاب ﴿فَطَمَسْنَا﴾ [القمر: ٣٧] وبتشه^(١) من أسر الغم بلفظ ﴿فَأَسْرٍ﴾ [هود:
٨١] فلما علم أن الملائكة، تشوق إلى تعجيل التعذيب، فنادت عواطف
الحلم ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١] فسار بأهله على أعجاز نجائب النجاة،

(١) نتشه: أخرجه.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

إلا عجوز العَجَز، فإنها لحقت بالعَجْزة، فلما لاح مصباح الصباح احتمل جبريل قُرى من جنى، على قَرَا^(١) جناحه، فلما سمع أهل السماء نباح كلابهم، أسرع كَفَّ القلى^(٢) بهم في انقلابهم، ثم بُعث إليهم سحب ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ [هود: ٨٢] فتقاطر على قُطْرهم من قطره قطر الحجارة، وبغتهم في غِرَّتْهم بالغرور، بشق الغارة، تالله لقد ضكضك^(٣) العذاب، فتضعضوا، وأنقَضَّ بقضه وقضيضه فقضقض عظام عظامهم وتقطعوا، ودار هاتف العبرة على دارس دارهم ينادي ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥].

فليحذر العازمون على طروق طريقهم من وعيد ﴿وَمَا هِيَ مِنْ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] قبل غُصص الجَرَض^(٤) وألم الحرَض^(٥) عند حلول المرض، حين يُعتقل اللسان، ويتحير الإنسان، وتسيل الأجناف، ويزول العرفان، وتُنشر الأُكفان، فيا عجبًا! كيف ألقى لذة العيش الفاني الفاني^(٦) وقد مرَّ فامرَّ كل ما كان ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

(١) قَرَا: ظهر.

(٢) القلى: البغض والكراهية.

(٣) ضكضك: أسرع وضغط.

(٤) الجرض: الريق.

(٥) الحرض: الفساد في البدن والعقل.

(٦) الفاني الأولى: صفة للعيش، والثانية: صفة للإنسان.



المذهبات

﴿ في قصة يوسف عليه السلام: ﴾

لما تمكّن الحسد من قلوب إخوة يوسف، أرى المظلوم مال الظالم في مرآة ﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤] فتلطفوا بخداع ﴿مَالِكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ [يوسف: ١١] وشوقوا يوسف إلى رياض ﴿يَرْتَعُ وَيَلْعَبُ﴾ [يوسف: ١٢].

فلما أصبحروا أظهروا المقت له، وراموا بسهم العدوان مقتله، ففسخ نهار رفقهم به ليل انتهارهم له، فصاح يهوذا في بقايا شفق الشفقة ﴿لَا نَقْتُلُوا يُوسُفَ وَالْقَوَّةُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾ [يوسف: ١٠] فلما ألقوه وقالوا: قد هلك، جاء من عند من يملكه: ﴿لَتُنَبِّئَهُمْ﴾ [يوسف: ١٥] فعادوا عمن عادوا ﴿عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ [يوسف: ١٦] ولطخوا قميصه الصحيح ﴿بِذِمِّ كَذِبٍ﴾ [يوسف: ١٨] فلاحت علامة سلامة القميص كي يظهر كيدهم، فقال حاكم الفراسة ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾ [يوسف: ١٨].

فلما ورد وارد السيارة، باعوا الصدفه ولم يتلمحوا الدرّة، واعجباً لقمير قومر به! فلما وصل إلى مصر تفرّس فيه العزيز فأجلسه على إعزاز ﴿أَكْرَمِي﴾ [يوسف: ٢١] فشغف حبه قلب سيدة ﴿وَرَوَدَتْهُ﴾ [يوسف: ٢٣] ففرّ وما استبقى ﴿وَأَسْتَبَقَا﴾ [يوسف: ٢٥] فانبسط يد العدوان وامتدت ﴿وَقَدَّتْ﴾ [يوسف: ٢٥] فلما بان حجه في إبان ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾ [يوسف: ٢٦] أخذت يمين ﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ﴾ [يوسف: ٣٢] فاخترت درة



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

فهمه، صدف الحبس ﴿رَبِّ السَّجْنِ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣].

هذا ويعقوب مفترش فراش الأسي على حَزْنٍ (١) الحزن، حتى نحل

البدن، وذهب البصر:

لم يبق لي بعدكم رسم ولا طَلُّ إلا وللشوق في أرجائه عَمَلٌ
إذا شممت نسيماً من دياركمُ فقدت عقلي كأني شارب ثَمَلٌ

فلما عمّ القحط أرض كنعان، خرج إخوته لطلب الميرة (٢) فدخلوا

عليه في ظلام ظلمهم، فرآهم المظلوم بعين ﴿لَتُنَبِّئَهُمْ﴾ [يوسف: ١٥]

وَحَفَى عَلَيْهِمْ نَعْمَةً ﴿أَقْبَلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩] فأقبل عليهم سائلاً، وأقبل
الدمع سائلاً، وتقلقل تقلقل الواجد، لسمع أخبار الوالد:

إيه أحاديث نعمانٍ وساكنه إن الحديث عن الأحباب أسماؤُ
أفتش الريح عنكم كلما نفحتُ من نحو أرضكمُ نكباءً مقطَّارُ

فقالوا: جئنا من أرض كنعان، ولنا شيخ يقال له: يعقوب، وهو يقرأ

عليك السلام، فلما سمع رسالة أبيه، انتفض طائر الوجد لذكر الحبيب،
فهيج أحزان الفؤاد وما يدري:

وداع دعا إذ نحن بالخيف من منى فهيج أحزان الفؤاد وما يدري

(١) الحزن: خلاف السهل، وما غلظ من الأرض.

(٢) الميرة: الطعام.



المُدْهَشَاتُ

فردّ السلام قلبه قبل لسانه، وشغله وكفّ شأنه^(١) عن شأنه وقال
لسان حاله بعبارة صعدهائه:

خذي نفسي ياريح من جانب الحمى فلاقى بها ليلاً نسيم ربي نجد
فإنّ بذاك الحيّ حبّاً عهدته وبالرغم منّي أن يطول به عهدتي

ثم إنه طلب منهم أخاه فاحتالوا بحيلة ﴿مُنِعَ مِنَّا الْكَيْدُ﴾ [يوسف: ٦٣] فلما حملوه حال بينهم وبينه بحيلة ﴿جَعَلَ السِّقَايَةَ﴾ [يوسف: ٧٠] فعادوا إلى أبيهم بشجى على شجن^(٢) وقرح على جرح، وعقر على عقر، فقام وقد تقوس وعسى، على باب ﴿عَسَى﴾ [يوسف: ٨٣] ثم بعثه لطف ﴿وَلَا تَأْتِسُوا﴾ [يوسف: ٨٧] على أن بعثهم برسالة ﴿فَتَحَسَّسُوا﴾ [يوسف: ٨٧] فلما رجعوا دخلوا من قفر الفقر، فاستلقوا في ساحة الضرّ، ينادون عن غليل الذلّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨].

تالله لقد جوزيت أيدي مدّها تغشرم^(٣) ﴿أَقْنُلُوا يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩] أن
مُدّت في طريق ذلّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ فلما عرفوه اعترفوا، فحمى ما اقترفوا

(١) وكف شأنه: الوكف: القطر، شأنه: مدمع عينيه.

(٢) الشجى: ما اعترض في الحلق ونشب فيه، والشجن القطعة من الشيء، والمراد به هنا القلب، أي زيادة ألم وهم على القلب الحزين، وذلك بفراق بنيامين بعد فراق يوسف عليه السلام.

(٣) التغشرم: الجرأة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

بحمى ﴿لَا تَثْرِيْبَ﴾ [يوسف: ٩٢] ورفع من موائد تلك الفوائد نصيب الوالد
﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ [يوسف: ٩٣] فهبت نسيم الفرح، من فَرْجِ الْفَرْجِ،
فنادى مُدْنَفُ الْوَجْدِ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيْحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

نشدتك بالله يا نسيم	ما فعلت بعدنا الرسوم
هل استهلّت بها الغوادي (١)	ونمّقت روضها الغيوم؟
وهل بها من عهدت فيها	بعُد على حاله مقيم
عُد فسلم على أناس	ما أنا من بعدهم سليم
وقل غريبٌ ثوى بأرض	في غيرها قلبه مقيم
يكابد الشوق حين يُمسي	وتعترى قلبه الهموم
أحبابنا تنقضي الليالي	وما انقضت تلکم الكلوم

فلما كشف يعقوب فِدام (٢) الوجد، بكفَّ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ [يوسف: ٩٤].
حدقت به عواذل ﴿تَأَلَّه تَفْتَوُأُ﴾ [يوسف: ٨٥] تالله لو وجدوا ما وجد ما
أنكروا مع عرف.

﴿ في ذكر بداية موسى عليه السلام: ﴾

كانت الكهنة قد أخبرت فرعون بوجود موسى، فأطلق موسى (٣) في

(١) أي: هل هطلت فيها الأمطار؟

(٢) الفِدام: غطاء القارورة ونحوها.

(٣) موسى: السكين الحادة.



المُدْهَشَاتُ

ذبح الأطفال، فلما اتهمت أم موسى بالوضع، أوضع^(١) الحرس إلى بيتها بالطلب، فسعت بتابوته إلى البحر ﴿أَنْ أَقْذِفِيهِ﴾ [طه: ٣٩] فصدرت بعد إلقائه بصدرٍ قد لوى به لواعج الاشتياق، لا يعلم قدر ما به إلا مَنْ قد رُمي به، فتلقاها بالبشر بشير ﴿إِنَّا رَأَوْهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧] فلم تزل أمواج اليمِّ تيمِّمُ به مسالك القدر، إلى أن خَبَّتَ^(٢) به خيل النيل، فتناولته مَشْرَعَةً^(٣) دار فرعون، فألقته في برية ﴿فَأَلْقَطَهُ﴾ [القصص: ٨] فلما فتحوا التابوت أسفر عن مسافر نجيب، قد جعل زاده في مزود ﴿وَلِنُصَعَّ عَلَيَّ عَيْنِي﴾ [طه: ٣٩] ووشح قلادة الحبِّ قد رُصِّعت بِدُرٍّ ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩] فقام فرعون على أقدام الإقدام على قتله، فخرجت آسيه من كمين أتباعه تنطق عن لسان ﴿سَبَقَتْ لَهُمْ مِّنَّا الْحُسْنَى﴾ [الأنبياء: ١٠١] وتُنَادِي فِي مَخْدَعِ خَدَيْعَةِ الْحَرْبِ ﴿قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ [القصص: ٩] وتجمع في كلامها ما هو فرد في لغة القدر ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ [القصص: ٩]، فلم يزل فرعون في أغباش^(٤) غرور يذبح إلى أن طلع صبح ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ﴾ [القصص: ٥] فلما قصَّ شوق أمه جناح صبرها، قالت لأخته ﴿قُصِّصِيْهِ فَبَصَّرْتِ بِهِ﴾ [القصص: ٥].

(١) أوضع: أسرع.

(٢) خَبَّتَ الفرس: إذا نقلت أيامها وأياسرها جميعاً في الركض.

(٣) مشرعة: مورد الشاربة.

(٤) الغبش: ظلام آخر الليل.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

[١١] في حريم ﴿وَحَرَمْنَا﴾ [القصص: ١٢] فدنت فدنذنت حلة الحيلة بحول ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ [القصص: ١٢] فلما حفظت باب المكر بحارس ﴿يَكْفُلُونَهُ﴾ لَكُمْ ﴿دخل طفيلي الوجد من باب ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِیحُونَ﴾ فجاءت بأُمرها يؤمها دليل الطرب، فكادت إذ حضرت تحضر في ميدان ﴿لُنَبِّدِي بِهِ﴾ [القصص: ١٠] فكبحها لجام ﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَى قَلْبِهَا﴾ وسئل من أيديهم إلى سَلِّم تسليمها، فقر في حجر ﴿كَي نَقَرَ عَيْنِهَا﴾ [القصص: ١٣].

فَرُبِّي موسى في ربي فرعون، ونما بين نمارقه، إلى أن آوان مهاجرته، فجرى القدر بقتل القبطي ليكون سبباً في سر سير ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ﴾ [القصص: ٢٢] فسعى في أرجاء رجاء ﴿عَسَى رَبِّي﴾ فتزود من مزود ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ [القصص: ٢٣] فتجمّع الصهر بواسطة ﴿إِنِّي أَنبِئُكُمْ﴾ [القصص: ٢٥] فبقي ضمان الوفاء إلى أمانة ﴿فَلَمَّا قَضَى مُوسَى الْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] فتلمح معنى ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا﴾ فيبدوا في بادية الحيرة أنيس ﴿إِنِّي أَنبِئُكُمْ﴾ فترامى كف الطمع إلى مرامي ﴿أَلَعَلِّي آتِيكُمْ﴾ فأطل على طلل الطلب أقدام ﴿فَلَمَّا آتَتْهَا﴾ [القصص: ٣٠] فتلقظ ثمار التكليم من غير كلفة ﴿وَهَزِي﴾ [مريم: ٢٥] تساقط من جنى جنات التجلي ﴿إِنِّي أَنبِئُكُمْ﴾ [القصص: ٣٠].

﴿في تكليم الله عز وجل موسى عليه السلام﴾

شمّر موسى عن ساق القصد وساق، فلما أتى النادي ﴿نُودِي﴾ [طه: ١١]



المذهباتُ

فحين ذاق لذة التكليم، جرح قلبه نصلُ الشوق، فلم يداوه إلا طيب
﴿وَوَاعَدْنَا﴾ [الأعراف: ١٤٢] ولما جاء الموعد ﴿فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ﴾ [الأعراف:
١٤٢] وأحضر حتى حَضَرَ حظيرة القدس، فنسي الإنس بما آنس من
الأنس.

🕌 في قصة بلعام وموسى عليه السلام:

أيها المتعبد! خف من الفتن ولا تأمن، فكم قد أخذ آمن من مأمّن، إنه
لم ينبج من غطاميط^(١) بحر الفتن حافظُ الاسم الأعظم، بل عام^(٢) بلعام،
رَفَل في حُلل النعم كالنعم، غافلاً يتعامى عن النعم، وكانت بنية نية تعب
تعبده على رمل الرياء، فجرت تحتها أنهار الامتحان فانهار بنيانها فتخرّب
وأبعده الشيطان ﴿فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] تالله ما عدا عليه
العدو، إلا بعد أن تخلى عنه المولى، فلا تظنن أن الشيطان غلب، وإنما
العاصم أعرض ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

🕌 في قصة قارون:

كان قارون غايةً في فقهه وفهمه، وكان في النسب إلى موسى ابن عمه،
فلما فاضت الدنيا عليه، فاضت نفسُ علمه، وكانت مقاليد خزائن خزاياه
وَقَرَّ ستين بغلاً، غير أن الذي فاته بما ناله أعلى وأعلى، وسحب ذيل

(١) بحر غطاميط: أي عظيم الأمواج.

(٢) عام: سَبَح.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

﴿فَبَعِيَ﴾ [القصص: ٧٦] فقام قومه بزجر ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ وألقوا إليه نصائح
﴿وَابْتِغِ﴾ ﴿وَلَا تَنْسِكْ﴾ ﴿وَأَحْسِنْ﴾ ﴿وَلَا تَبْغِ﴾ [القصص: ٧٧].

فركب يوماً في وقت اقتداره في أربعة آلاف مقاتل، وسُمُّ الهوى يعمل
في المقاتل، وركب معه في معمرته ثلاثمئة جارية، وقد أنساه سفه الأمل
أن سفينة الأجل جارية، فلما غلا وعلا، حُطَّ إلى حطيط ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ﴾
[القصص: ٨١].

إن الدنيا إذا طلعت على الطعام^(١) تُطغي، وإذا بُغي نكاحها على
العفاف تبغي، تالله لقد لقي الغبي الغبي غب^(٢) غبواته^(٣)، فلما انجلى
غيهب عينيه رأى الغبن والغبن^(٤) نعوذ بالله من الخذلان.

وإذا رامى المقادير رمى فدروع المرء أعوان النصال

🕌 في قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس:

ركب سليمان يوماً مركب الريح، فراحت بواديه على وادي النمل،
فندت نملة، فنادت أخواتها بنداء ﴿لَا يَحِطُّ بِكُمْ﴾ [النمل: ١٨] ثم قامت
فأقامت لعدله عذر ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فحملته أريحية الشكر على طرب

(١) الطعام: أوغاد الناس.

(٢) غب: عاقبة.

(٣) غبواته: جمع غباء.

(٤) الغبن: الوكس والخديعة، الغبن: النقص والضعف في الرأي.



المُدْهَشَاتُ

﴿ فَنَبَسَمَ صَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا ﴾ [النمل: ١٩] لأنها تلفظت (يا) نادت (أيها) نبهت (النمل) عيّنت (ادخلوا) أمرت (مساكنكم) نصّت (لا يحطمنكم) حذّرت (سليمان) خصّصت (وجنوده) عمّت (وهم لا يشعرون) عذرت.

و غاب الهدهد، فتوعده بلفظ ﴿ لَأُعَذِّبَنَّاهُ ﴾ [النمل: ٢١] فجاء ببهت^(١) ذكي ﴿ أَحَطَّتْ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾ [النمل: ٢٢] فحملته كتابًا، فرأت اليقظي^(٢) كتابًا محتومًا، وأمرًا محتومًا، وكلامًا عجيبيًا، وحاملًا غريبًا، فاستشارت قومها فأومأوا إلى الحرب بلفظ ﴿ نَحْنُ أَوْلُوا قُوَّةً ﴾ [النمل: ٣٣] فعلمت أن مَنْ مِنْ جنده الطير لا يُجارب، وبعثت ما فرق بين الدعوة والدعوى^(٣) ﴿ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ ﴾ [النمل: ٣٥] فلما تبدت هوادي هديتها، صاح سليمان بعزّ ﴿ أَمِدُّونَنِي بِمَالٍ ﴾ [النمل: ٣٦] فلما صحّ عندها ما يدعو إليه وثبتت، وثبتت على أقدام الطلب، وهيأت مراكب القصد، ورحلت في هجير شمس الهدى على نجائب الهجرة، فلما سمع سليمان برحيلها، أراد تقوية دليلها، فنادى في نأديه ﴿ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا ﴾ [النمل: ٣٨] فلما جيء به ستره بقرام ﴿ نَكْرُؤًا ﴾ [النمل: ٤١] ثم ابتلاها ليرى ذكاءها ﴿ أَهَكَذَا عَرَشُكَ ﴾ [النمل: ٤٢] ثم صرح بلفظ ﴿ ادْخُلِي الصَّرْحَ ﴾ [النمل: ٤٤] فشبه لها لضعفها عن لطافة ساقيتها،

(١) بهت: من بهت الخصم، إذا استولت عليه الحجّة، ودُهِش بها.

(٢) الملكة بلقيس، من اليقظة والفهم.

(٣) أي هل هو صادق في دعوته للهدى أم راغب حرب وعلو؟ فاخترته بالدنيا.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

فكشفت عن ساقها، فلما وصلت وسلّمت، أسلمت فسليمت، ونثرت
خرزات نظام النطق على نَظْمِ العذر ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ
لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

﴿ في قصة مريم وعيسى عليهما السلام:﴾

وهبت أم مريم حملها لمن وهبه لها، فلما وضعتها أن لسان التلهف
﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦] فجبر كسرها جابر ﴿فَنَقَّبَهَا﴾ وساق
عنان اللطف فربت في رُبي ﴿وَأُنْبَتَهَا﴾ [آل عمران: ٣٧] فانطلقت بها الأم
تأم بيت المقدس، فلبس القوم لأمهم^(١) في حرب ﴿يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ﴾ [آل
عمران: ٤٤] فثبت قلمُ زكريا إذ وثبت الأقلام، فكفّتها^(٢) وكفلها، فأراها
المُسبَّبُ غناها عن السبب بآية ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ فربها من ربها^(٣) فنشأت
لا ترى إلا ربها.

فانتبذت يوماً من أهلها فأقبل نحو ذلك البريِّ البريِّ^(٤) يريد
﴿فَأَرْسَلْنَا﴾ [مريم: ١٧] فتحصنت الحصان^(٥) بحصن ﴿إِنِّي أَعُوذُ﴾ [مريم: ١٨]

(١) لأهم: جمع لامة وهي الدرع.

(٢) كفّتها: ضمها.

(٣) ربها الأولى: وليها وتعهدا بما يغذيها وينميها، والثانية: حفظها.

(٤) البريِّ: نسبة إلى البر والصحاء، والبريِّ من البراءة.

(٥) الحصان: المرأة العفيفة، والجمع حُصن.



المذهبات

فانزوى إلى زاوية ﴿أَنَارَسُؤْلَ رَبِّكَ﴾ وأخبرها بالتَّحفة في لفظ ﴿لَأَهَبَ﴾ فأقيمت في مهبِّ ريح الرُّوح، فتنفست الكلمة من كمين الأمر، فنفخ جبريل في جيب الدرع^(١)، فمرت المرأة حاملاً في الوقت.

فأخرجها الحياء عن الحيِّ، فلما فاجأها وقت الوضع، أجاها^(٢) المخاض إلى الجذع، تحيرت من وجود ولد وما فجرت، فَجَرَّت عين الدمع، فصاح لسان الخفر^(٣) ﴿بَلَيْتِنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ [مريم: ٢٣] فأجاها الملك عن أمر من مَلَك ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ وأجرى لها في أواني الأوان سريِّ كما وهب لها من الغلمان سريِّ، فسرى^(٤) عن سرِّها وجود الطهور، وأنس الطاهر^(٥).

وأريت آية تدل على قدر القدرة في مقام ﴿وَهَزَيْ﴾ [مريم: ٢٥] فهزَّت جذمَ جذع مائل مثل الحطب، فتساقط عليها في رطب الرُّطب، وقيل لها: ﴿فَكُلِّي﴾ [مريم: ٢٦] وكلي^(٦) الكلُّ إلى من له الكلُّ، كُنْتُ بمعزل من وجود الولد، فكوني بمعزلٍ من إقامة العُذر، فسكتت وسكنت ﴿فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ [مريم: ٢٧] فنادوا من أندية التوبيخ ﴿يَتَأَخَتَ هُرُونَ﴾ فأضجروا

(١) جيب الدرع: فتحة الثوب مما يلي العنق.

(٢) أجاها: ألجاها.

(٣) الخفر: الحياء.

(٤) السريِّ: الأولى: النهر، والثانية: السيد الوجيه، وسريِّ: أي كشف ما بها من غم.

(٥) الطهور: الماء، والطاهر: المسيح عليه السلام.

(٦) كلي: توكلني واعتمدي وفوضي.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

مريضاً قد ضنى^(١) من أنين ﴿أَنِّي﴾ [مريم: ٢٠] على فراش ﴿يَلَيْتَنِي مِتُّ﴾ [مريم: ٢٣] فلما شارت^(٢) أُرِي^(٣) الرأي، أشارت إليه، فأخذت السنة تعجبهم تعج بهم ﴿كَيْفَ نَكَلِمُ﴾ [مريم: ٢٩] كأنها قالت لهم: أنا طريق وهذا مرّ بي، والمسافر يُسأل عن الطريق، لا الطريق عن المسافر، فقام عيسى يَمْخُضُ أوطاب^(٤) الخطاب على منبر الخطابة، فأبرز محض إبريز^(٥) الإقرار: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠] وأوماً إلى وجوده من غير أب في إشارة ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ وكانت واسطة عقده ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ [الصف: ٦].

فلما تمّ له سنّ الشباب، جلس على باب المعجزة، يُعطي العافية العافية^(٦)، ويُبرئ الأكمه والأبرص، ولقد ترك الدنيا فطلّقها فغزاها بجند الزهد بين مُسْرَجٍ ومُلْجَمٍ، ما التفت إليها قط وجه عزمه، ولا صافحها يوماً كف قلبه، ولا غارلها ساعة لسان فكره، فلم يعرف حقيقة ما حوى سوى الحواريين، فشمروا عن ساق العزائم، في سوق بُدْنِ الأبدانِ إلى منى المنى تحنّ بلفظ ﴿تَحْنُ أَنْصَاؤُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وكتبوا في عقد العقائد ﴿ءَامَنَّا

(١) ضنى: تعب.

(٢) شارت: اجتننت.

(٣) أُرِي: غسل.

(٤) أوطاب: جمع وَطْبٍ، وهو سقاء اللبن المصنوع من الجلد.

(٥) الإبريز: الذهب الخالص.

(٦) العافية الأولى: الصحة، والثانية: اسم فاعل من الفعل (عفا) جمعه عفاة، وهو طالب المعروف.



المذهبات

بِاللَّهِ ﴿ فَعَدَلُوا بِهَا إِلَى عَدْلِ ﴾ وَأَشْهَدُ بِأَنَا مُسْلِمُونَ ﴿ . ثم إن اليهود اجتمعوا في بيت ﴿ وَمَكُرُوا ﴾ [آل عمران: ٥٤] فزلزل عليهم بيد ﴿ وَمَكَّرَ اللَّهُ ﴾ فحاق بالمرء مرُّ مراده، ورفع الله عبده.

🕌 في قصة يحيى بن زكريا عليهما السلام:

لما قام زكريا عليه السلام بإقامة الإقامة لمريم، رأى وكيل الغيب يسبقه بالإفناذ على يد القدرة في كِنٍ^(١) كُنْ، وكان إذا خرج ثم جاء، فاجأه ثمر الثمار قد نمت، فكم قد ألقى الفاكهة الفائقة لا في حينها، فتلمح بعين زرقاء^(٢) الفهم، فرأى نفقة الجارية جاريةً، وكيس الأسباب على ختمه^(٣) فصاح لسان الدهش ﴿ أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ [آل عمران: ٣٧] فأحالت الحال على المسبب ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ [آل عمران: ٣٧].

فنبهت هذه الآية راقد طمعه^(٤)، بعد أن طال وسنه سبعين سنة، فقام الشيخ وعسا على باب عسى في محراب ﴿ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ ﴾ وكتب قصة ﴿ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ [الأنبياء: ٨٩] وشكا ما شيك به^(٥) في كلمات ﴿ وَهَنَ

(١) الكِنِّ: ما يتخذ سترة ووقاية من الحر والبرد.

(٢) إشارة إلى زرقاء اليمامة، واشتهرت بحدة البصر.

(٣) أي تأتيها الفاكهة بدون سبب ظاهر.

(٤) أي في الولد، ليخلفه في القيام بمهام النبوة.

(٥) شيك به: ألمه.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

أَعْظَمُ مِنِّي ﴿ [مریم: ٤] فلما أورد في قصته ما يريد حملها بريد الرجاء، إلى من عودَ العود العود^(١) فكُشف الجوى في الجواب.

لله دَرُّهُ! خدَم حتى شاب، ثم طلب نائبًا على الباب، فأصبح ميتٌ أمليه بوجود يحيى يميا، فمشى لمشاهدة وجه القدر، وقد حال بينهما سَفَرُ العادات، إلى أن آن تَلَفُظُ ﴿أَنِّي﴾ [مریم: ٢٠] وأوحى إليه ﴿هُوَ عَلَيَّ هَيْنٌ﴾ [مریم: ٢١] فَسَأَلَ عَلَمًا على ما يَعْلَمُ به وجود الحمل، ليحمل نفسه على الشكر، فوعد بسجن اللسان، مع سلامة الإنسان، إلا عن ذكر الرحمن، ليكون حجُّ نطقه مُفردًا.

فلما وُلِدَ يحيى، لم يبلغ مبلغ يافع، إلا وهو ولد نافع، لا تهزّه صَبَا الصَّبَا، وَقُطَّ^(٢) له قِطًّا^(٣) من عصام العصمة، ما قُطَّ قِطًّا لأحد، فما خطا إلى خطأ ولا همَّ، وكثر بكاؤه من الخشية، فيا عجبًا من بكاء من ما عصى ولا همَّ، وَضَحِكَ من كتابه بالذنوب قد ادلهم، ﴿وَسَلَّمَ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مریم: ١٥].

﴿ في قصة أهل الكهف: ﴾

كان رَقْمٌ ﴿كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ﴾ [المجادلة: ٢٢] واغلا^(٤) كهف

(١) العود: العود اليابس، العود: رجوع الخضره فيه.

(٢) قِطًّا: قطع.

(٣) قِطًّا: نصيبًا.

(٤) وَغَلَّ: دخل بعمق.



المُدْهَشَاتُ

قلوب أهل الكهف، فلما نَصَبَ مَلِكُهُمْ شَرَكَ الشَّرْكَ، بان لهم خيط الفخّ ففروا، فخرجوا من ضيق حصر الحبس إلى الفضاء فضاء لهم، فلما دخلوا دار ضيافة العزلة، اضطجعوا في راحة^(١) الراحة من أرباب الكُفْر، فغلب النوم القوم ﴿ثَلَاثَ مِائَةِ سِنِينَ وَأَزْدَادُوا تَسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] وكانت يد اللطف تقلّب أجسادهم لتسلم من أفن^(٢) عَفْنٍ، وجرت الحال في كلبهم على ما جرت بهم، فكأنه في شَرَكِ نومهم قد صيد ﴿بِالْوَصِيدِ﴾ [الكهف: ١٨].

وهلك الملك في يَدِ الهُلْكِ، وهبّ الراقِدُ، فترنّم أحدهم بلفظ ﴿كَمْ لَبِثْتُمْ﴾ [الكهف: ١٩] فأجابه الآخر ﴿يَوْمًا﴾ ثم رأى بقية الشمس نقيّة فاتقى بالورع ورطات الكذب ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

فلما قفلوا من سَفَرِ النوم إلى ديار العادة، زاد تقاضي الطبع بالزاد، فخرج أحدهم في ثوب متنكّر، فضلّت معرفته بالمعاهد، فمد إلى بائع الطعام باعه^(٣) فما باعه، وطنّ أنه قد وجد كنزًا، ولقد وجد كنز ﴿وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣] فحملة القوم إلى الوالي، فقال: إنه لمالي، فما لكم ومالي؟ كُنَّا فتية أكرهنا على فتنة، فخرجنا عشية أمس، فنمنا في باطن الكهف، فلما انتبهنا خرجت أبتاع قوت الوقت، فسار القوم معه في

(١) راحة: باطن كف اليد.

(٢) أفن: فساد وتتن.

(٣) الباع: من اليد أو ما بين اليدين الممدوتين.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

عسكر التعجب، فسمع إخوانه جلبة الخيل، فدخل صاحبهم فقصّ عليهم نبأهم، فعادوا إلى مواضع المضاجع، فوافتهم الوفاة، وفات لقاؤهم.

إخواني! ليس العَجَبُ من نائم لم يعرف قدر ما مرّ من يومه، وإنما العجب من نائم في يقظة عمره.

لما خلقوا لما غفلوا وناموا	أما والله لو علم الأنام
عيون قلوبهم ساحوا وهاموا	لقد خلقوا لِمَا لو أَبْصَرْتُهُ
وتويخ وأهوال عظام	مات ثم قبر ثم حشر
فصلّوا من مخافته وصاموا	ليوم الحشر قد عملت رجال
كأهل الكهف أيقاظ نيام	ونحن إذا أمرنا أو نهينا

🕌 في بداية أمر نبينا ﷺ ورضاعه:

خَلِقَ نَبِينَا ﷺ من أَرْضِي الأَرْضِ أَرْضًا، وَأَصْفَى الأَوْصَافِ وَصْفًا، وَصَيْنَ آبَاؤَهُ من زَلَلِ الزَّنَا، إلى أن صُدِّفَتْ بتلك الدُّرَّةِ صَدْفَةٌ آمِنَةٌ، فوثبت لرضاعه ثوية، ثم قضت باقي الدين حليمة، فقام نباته مستعجلاً^(١) على سوقه، مستعجلاً قيام سوقه^(٢)، فنشأ في حِجْرِ الكَمَالِ كما يشاء.

(١) مستعجلاً: غليظاً.

(٢) سوقه الأولى: أعواد النبات كناية عن تمام خلقه منذ صباه، والثانية: ما يباع فيه ويشتري كناية عن قيامه بالرِسَالَةِ.



المُدْهَشَاتُ

أقبلت حليلة والجذب عامًّا في العام، فعرض على المرضعات فأبين لليتم، فراحت به حليلة إلى حِلَّتْهَا، فثاب لبنها ولبن راحلتها، فباتوا لبركته رواءً، وهبَّ على مباركهم نسيمٌ نسميةً مباركة، فلما ظنعت الطعائن أتت أتاؤها تؤمُّ أمام الركب، فلما حلَّوا حِلَّهم، كانت الرعاءُ تسرحُ فيعقرُّها سرحان^(١) الجذب، وراعي حليلة يعيدُ الغنم بالغنم.

فبينا الصبي مع الصبيان، جاءه جبريل فجأةً فشقَّ عن القلب، ثم شقَّه وما شقَّ عليه، فعلق بيده علقَةً^(٢)، فقال: هذا حظُّ الشيطان، وقد قطعنا علقه، ثم أعاد قلبه وما به قلبه^(٣)، فبقي أثر المخيط في صدره باقي عمره لإظهار سورة ﴿الْمَنْشَرِ﴾.

فلما بلغ ست سنين، ألوى الموت بالوالدة، فجدَّ في كفالتة الجدِّ، ثم طلب الموتُ عبدَ المطلب، فكفله أبو طالب، فخرج به وقد زانه كالتاج تاجرًا، فتيَّم باليتيم منزل تيماء، فرآه بحيراء ببحرته^(٤) فقرأ سمات النبوة من شمائل ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ [البقرة: ١٤٦] فشام^(٥) برق فضله، فلاح من شيمة شامته، فقال لعمه: احفظ هذه الشامة من شامت.

(١) سرحان: الذئب.

(٢) العلقَة: القطعة من الدم الجامد، علقَة: العلاقة التي يتعلق بها. علقَة: علاقته.

(٣) القلبية: الداء.

(٤) البحرة: البلد.

(٥) فشام: نظر، وهي للبرق خاصة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

وما زال نشره يَضوع^(١) ولا يَضيع، وتحري غار حراء للفراغ، فراغ إليه الملك، فأفاض عليه حلة ﴿أَقْرَأُ﴾ [العلق: ١] فأفاض إلى حلة «زملوني» فسكنت خديجة غلته بعلة «إنك لتصل الرحم»^(٢).

ثم انطلقت به إلى ورقة فقراً من ورقة سيماء نقش فضله، فتيقظ لفهم أمره إذ ناموا، فقال: «هذا الناموس الذي نزل على موسى»^(٣)، ولقد عرفه الأحبار في الكنائس، والرهبان في الصوامع، وأنذر به الرئي وأخبر به التابع^(٤).

فكانت تسلم عليه قبل النبوة الأحجار، وتُبشّر به أولاه مولاه الأشجار، وكان خاتم النبوة بين كتفيه، وسرايا الرعب تترك كسرى كالكسرة بين يديه، ألبس إهاب الهيبة، وتوّج تاج السيادة، وضمّخ بأذكى خلوق أذكى الأخلاق، وأحل دار المداراة^(٥)، وأجلس على صفحة الصفح، ولقم الحكمة، ووضع له التواضع، وأدير عليه الكيس وضمّن حلاوة الحلم، وختم بمسك النسك.

(١) يَضوع: يفوح.

(٢) متفق على صحته.

(٣) متفق عليه.

(٤) الرئي: الجنّي الذي يتشكّل ويعرض للإنسان، والتابع: الجنّي الذي يتبع الكهنة والسحرة. عياداً بالله من حالهم.

(٥) المداراة: التألف.



المذهباتُ

وأعطي جواد الجود، ونوول قلم العزّ، فوَّقع على صحائف الكدّ،
«من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌّ»^(١).

كان يعود المريض، ويُجيب دعوة المملوك، ويجلس على الأرض،
ويلبس الخشن، ويبت الليالي طويلاً، ضنَّ به عن الدنيا لا بها عنه.

ولقد شارك الأنبياء في فضائلهم وزاد، أين سطوة ﴿لَا نَذْرَ﴾ [نوح: ٢٦]
من حلم «اهد قومي»^(٢)؟ أين انشقاق البحر من انشقاق القمر؟ أين
انفجارُ الحجر من نبع الماء من بين الأصابع؟ أين تسيحُ الجبال في أماكنها
من تقديس الحصى في الكفّ؟ أين علو سليمان بالريح^(٣) من ليلة
المعراج؟ أين إحياء عيسى الأموات من تكليم الذراع؟

كل الأنبياء ذهبت معجزاتهم بموتهم، ومعجزة نبينا الأكبر قائمة على
منار ﴿لَا نَذْرُكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] تنادي ﴿فَأَتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾
[البقرة: ٢٣] ولقد أعرب عن تقدُّمِهِ من تقدُّمِهِ «آدم ومن دونه تحت
لوائِي»^(٤) «لو أن موسى عليه السلام كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني»^(٥).

(١) متفق عليه.

(٢) رواه البيهقي في الشعب.

(٣) سفر نبي الله سلام عليه السلام على متن الريح محتاج إلى دليل، فتسخير الريح ثابت
بنص القرآن لكن سفره على متنها لا أعلم فيه دليلاً.

(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه.

(٥) رواه أحمد.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

فهو أول الناس خروجًا إذا بُعثوا، وخطيب الخلائق إذا وفدوا،
وُبشّر القوم إذا يئسوا، الأنبياء قد سكتوا لنطقه، والأملاك قد اعترفوا
بحقّه، وكلامٌ غيره قبل قوله لا ينفع، وجواب ربه له «قل يُسمع»^(١)
فسبحان من فضّ له من الفضل ما فضّله، وكساه من حلل الفخر الجَمّ ما
جَمّله، جمع الله بيننا وبينه في جنته، وأحيانا على كتابه وسنته.

🕌 قصة الغار والصدّيق رضي الله عنه:

لما أغارت قريش خيل الحيل على الرسول ﷺ، خرج إلى غارٍ لو دخله
غيره كان غرراً^(٢)، فغريت قريش بالطلب، فحمي بلطفٍ فما بان المستتر،
فغشى ما غشى على أبصار المُتفتين فصاروا كالأعشى، فعادوا عن من عادوا،
عودًا بحثًا بلا بختٍ، فقال الصدّيق من حرّ الوجد: «لو أن أحدهم نظر إلى
قدميه لأبصرنا» فقال ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟»^(٣).

فلما رحلا لحقهما سُراقة، فسرقت الأرض قوائم فرسه، فلما رأى
أرضًا صلدًا قد فرست الفرس فرست^(٤) إلى بطنها بطنها، أشربت نفسه
علم اليقين بطنها، فأخذ يعرض مفاتيح المال على من رد مفاتيح الكنوز،

(١) متفق عليه.

(٢) الغرر: التعرض للهلاك.

(٣) متفق عليه.

(٤) فرست الأولى: افترست، والثانية: رسبت ونزلت من الرسوّ.



المذهباتُ

ويقدم الزاد إلى شعبان «أبيت عند ربي»^(١).

فجاز على خيمة أمّ معبد، فأصحت^(٢) شائها، وأصبحت تشهد، فوصلا إلى يثرب على نجائب السلامة، وفات الخير مكة، وفاءت المدينة بالكرامة.

🏠 في قصة أهل بدر:

لما بادر بدر الشريعة بالخروج إلى بدر، رأى في الصحابة قلة فارتقى قلة ﴿وَشَاوِرُهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] فقام المقداد عن قومه قومةً لحقّ متابعة المبايعة، فقال: «لو سرت إلى برك الغماد لتابعناك»^(٣) فما لبث الرسول ﷺ أن صار يطلب بالخطاب الأنصار، ففطن لسعادته سعد بن معاذ، فقال: «لو خضت البحر لخضنا».

فرأى المصطفى في الأعداء العدد والعدد، فاستقبل قبلة الطلب، واقتضى^(٤) كريماً ما ماطل، فانتدب مدد العون، فأقبلت سحابة تسحب ذيل النصر، فسمع المشركون منها حممة^(٥) الخيل فحمّوا، وانقلبت قلوبهم من

(١) متفق عليه.

(٢) أصحت: عادت صحيحة.

(٣) رواه أحمد.

(٤) اقتضى: طلب من بذمته دين، ويشير هنا إلى سؤاله ربه أن ينجز له ما وعده.

(٥) الحممة: صوت الفرس.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يحمومها حمماً^(١)، فنزلت الملائكة مع الإلفين^(٢)، فعدلوا كالغمام، قد سدلوا
الغمام، وأرسلت قريش رائداً، فعاد بتأثير ﴿سَأَلْتِي﴾ [الأنفال: ١٢]، فحذر
القوم العزل سهام العزائم، فأثر عتبة في عتبه، وكاد يشيب خوفاً شيبة،
وأحكم حزام الحزم حكيم بن حزام، وأبى للجهل أبو جهل:

فلزَّهم الطراد إلى قتالٍ أحدُّ سلاحهم فيه الفرارُ
مضوا متسابقي الأعضاء فيه لأرجلهم بأرؤسهم عثارُ

فلما قُلبوا إلى القليب، قام الرسول ﷺ على رأس الرِّسِّ^(٣) يُنادي
الرؤساء حين رُسِّوا^(٤) بلسان ﴿فَأَنْقَمْنَا﴾ [الأعراف: ١٣٦] على جواب
﴿إِنْ تَسْتَفْتِحُوا﴾ [الأنفال: ١٩] لتصديق ﴿وَيَضْرَكُ اللَّهُ﴾ [الفتح: ٣] في
مضمون ﴿هَلْ تُؤَبِّبُ الْكُفَّارُ﴾ [المطففين: ٣٦] يا فلان! ويا فلان! «هل وجدتم
ما وعد ربكم حقاً؟»^(٥).

﴿ في تزويج علي بفاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴾

كان للنبي ﷺ بناتٌ فضلتهنَّ فاطمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وزوجات سبقتهن

(١) الحُمَم: الفحم.

(٢) الإلفين: من الألفة، إشارة إلى جبريل وميكائيل عليهما السلام.

(٣) الرس: القليب.

(٤) رُسِّوا: دُفِنوا.

(٥) السيرة لابن كثير (٢/ ٤٩٠).



المُدْهِشَاتُ

عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا^(١)، وذلك أن الاختيار لا يُجَازِي في التساوي، تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ ﴿وَنُفِضَ لُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ﴾ [الرعد: ٤].

لَمَّا نَهَضَ عَلِيٌّ لِحُطْبَتِهَا، طَرَقَ بِأَنَامِلِ رِجَائِهِ أَرْجَاءَ بَابِ الْخِطْبَةِ، فَمَشَى إِلَيْهِ الْأَذْنَ بِالْإِذْنِ، فَنَقَدَ صَدَقَ الرِّغْبَةَ قَبْلَ نَقْدِ الصِّدَاقِ، فَعَقَّدَ الْعَقْدَ عَلَى دَرَعِ لَيْبَتِهِ عَلَى جِهَادِ الْهَوَى، وَحَلَاهَا مِنْ هِيَ بَضْعَةٌ^(٢) مِنْهُ بِحَلِيَّةِ «فَاطِمَةَ بَضْعَةٌ مِنْي»^(٣) وَعَقَّدَ لَهَا عَقْدًا خَرَزَاتِ نِظَامِهِ: «أَلَا تَرْضِينَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الْأُمَّةِ»^(٤).



(١) في التفضيل بين خديجة وعائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا خلاف قديم، والأظهر أن خديجة أفضل في عهدنا حيث ناصرت وواست رسول الله ﷺ بنفسها ومالها وحنانها حيث قل المعين الناصر، وعائشة أفضل في عهدنا حيث نشرت العلم النبوي وكان لها قدم الصدق في كشف المسائل ونشر السنن.

(٢) البضعة: قطعة اللحم.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.



القسم الثاني: في المواعظ المرسله

وهو في الأصل مئة فصل:

من بيان عظمة الله عز وجل ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ﴾ [غافر: ١٥] توقيع أمره
 ﴿يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠] واقع زجره ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ﴾ [النحل: ٩٠]
 ينادى على باب عزته ﴿لَا يُسْأَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] يُصاح على محجة حُجَّتْهُ
 ﴿لَمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: ٨٤] يُنذر شاهد علمه ﴿مَا يَكُونُ
 مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] يقول طَوْلُهُ ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ [إبراهيم:
 ٣٤] وفضله ﴿لَا تَقْنَطُوا﴾ [الزمر: ٥٣].

سبحان من أقام من كل موجود دليلاً على عزته، ونَصَبَ عِلْمَ الهدى
 على باب محجته، الأكوان كلها تنطق بالدليل على وحدانيته، وكل مخالف
 وموافق يمشي تحت مشيئته^(١).

إن رفعت بَصَرَ التفكير ترى دائرة الفلك في قبضته، وتبصر شمس النهار
 وبدر الدُّجى يجريان في بحر قدرته، والكواكب قد اصطفت كالمواكب على
 منابك تسخير سطوته، فمنها رجوم للشياطين ترميهم فترميهم^(٢) عن حمى

(١) فالمشيئة متعلقة بالإرادة الكونية المحتومة، أما الإرادة الشرعية فلا يلزم وقوعها.

(٢) ترميهم الأولى: ترجمهم. والثانية: تبعدهم وتلقيهم.



المُدْهَشَاتُ

حمائته، ومنها سطور في المهامة^(١) يقرؤها المسافر في سفر سَفَرْتَه.

وإن خفضت البصر رأيت الأرض مُسَكَّةً بِحَكْمَةٍ^(٢) حِكْمَتِهِ، كل قُطْرٍ منها محروس بأطواده عن حركته، وإذا ضجَّت عِطَاشُهَا ثَارَ السَّحَابُ مِنْ بَرَكَةِ بَرَكَتِهِ، ونفخ في صُورِ الرِّعْدِ لِأَحْيَاءِ صُورِ النَّبَاتِ مِنْ حَفْرَتِهِ، فيبدو نور النُّورِ يهتز طرباً بخزامي رحمته، فإذا استوى على سُوقِهِ زادت في سَوِّقِهِ نَعَامِي نَعْمَتِهِ، وتفتت أكمام النبات عن صنعة صِبْغَتِهِ، فيرُفِلُ في حُلَى الحُلَلِ إِلَى مَعْبَرِ عِبْرَتِهِ، وتصدحُ الوُرُقُ^(٣) عَلَى الوَرَقِ كُلِّ تَبْلِيغِ لُغَتِهِ، والأشجار معتنقةٌ ومفترقةٌ على مقدار إرادته، ﴿صِنَوَانٌ وَعَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ [الرعد: ٤] هذا بعض صنعة ﴿وَيَسْبِحُ الرِّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ [الرعد: ١٣].

﴿ فِي قَوْلِهِ سَبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾

[الصف: ٩] فِي فَضْلِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ.

لم يزل ذكر نبينا ﷺ مشهوراً منشوراً وهو في طَيِّ العدم، أخذ له ميثاق الأنبياء على تصديقه، نال خلة إبراهيم وتكليم موسى، وهو جُمَّلَةُ الجَمَالِ، وَكُلُّ الكَمَالِ، وواسطة العقد، وزينة الدهر، هو صدر الأنبياء وبدرهم،

(١) المهامة: جمع مهمة وهي الصحراء.

(٢) الحَكْمَةُ: حديدة توضع في فم الفرس متصلة باللجام.

(٣) الوُرُقُ: جمع ورقاء، وهي الحمامة التي في لونها بياض إلى سواد.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

وقطب فلكنهم، وعين كتيبتهم، وواسطة قلاذتهم، نقش فصهم، خاتمهم:
شمس ضحاها هلال ليلتها دُرُّ تقاصيرها زبرجدها
أطيب ثمار (كُنْ) قد حُمِّل عليه ثِقْلُ ﴿قُرْ﴾ [المزمل: ٢].

رُميت الشياطين عند مبعثه بِأَسْهُمِ الشَّهْبِ عَنْ قَوْسٍ ﴿وَيَقْدَفُونَ مِنْ كُلِّ
جَانِبٍ﴾ [الصفات: ٨] فمروا إلى المغارب، ومشوا إلى المشارق، ليقطعوا
سبب السبب، فجرت ريح التوفيق، بمراكب بعضهم إلى تهامة،
فصادفوه في الصلاة، فصادفوه (١) قلوب القوم، فصاحت ألسنة الوجود
﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا مَجْبَأً﴾ [الجن: ١].

تحركت لتبجيله السواكن، فحن إليه الجذع، وسبح الحصى، وتزلزل
الجبل وسكن، وتكلم الذئب والضب والعدق، كلُّ كَنَى عن شوقه بلغته،
فمرضت قريشُ بداء الحسد فقالوا: مجنون.

يا محمد! (٢) هذا نقش يرقانهم (٣) لا لون وجهك، لما أخذ في سفر
﴿أَسْرَى﴾ [الإسراء: ١] فانتقل إلى المسجد الأقصى، برز إليه الأنبياء، فاقتدوا

(١) فوه: فمه، والمراد تلاوته للقرآن الكريم.

(٢) ليس في هذا طلب ولا دعاء، بل هو من باب (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) في دعاء التشهد، فاستحضر الغائب في الوجدان لقوة العلاقة، ومنه:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ومثالك في قلبي فأين تغيب؟!

(٣) مثلٌ يضرب للذي يرمي غيره بداء نفسه.



المُدْهِشَاتُ

بصلاته، ثم عَرَجَ فَعُرْضَتْ عَلَيْهِ الْجَنَّةُ وَالنَّارُ، حَتَّى عَرَفَ الطَّيِّبَ عَقَاقِيرِ الْأَدْوِيَةِ، قَبْلَ تَرْكِيبِ الْأَدْوِيَةِ، يَالَهَا مِنْ لَيْلَةٍ، فَلَّ عُرْفَ (١) حَدِّ سَيْفٍ ﴿أَجْعَلُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠] ظَنَّتِ الْمَلَائِكَةُ أَنَّ الْآيَاتِ تَخْتَصُّ بِالسَّمَاءِ، فَإِذَا آيَةُ الْأَرْضِ قَدْ عَلَتْ، فَأَقْبَلَتْ رُؤَسَاءُ الْأَمْلاَكِ، تُحِيِّي الرَّئِيسَ الْأَكْبَرَ.

كل الأنبياء تقول يوم القيامة: نفسي نفسي، وهو يقول: «أمتي أمتي»، فإذا سجد، قيل: «ارفع رأسك، وَقُلْ يُسْمَعُ لَكَ» (٢).

يا من هو في جملة جنود هذا الشجاع، أيحسن بك كل يوم هزيمة؟ لولا جدُّ أصحابه في جهادهم، وشجاعتهم في صفوف قتالهم - بعد الله -، لافتضح المتأخرون، فالحمد لله على البُزْلِ (٣) كانوا بالليل رهباناً وبالنهار فرساناً، قطع الرسول ﷺ طَمَعَ مِنْ طَمِعَ فِي لِحَاقِهِمْ بِحَسَامٍ «مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ» (٤) وكيف تنال مرتبة الصديق بشيء وقر في صدره؟ أو منقبة المهيب والعدو يَفَرِّقُ مِنْ ظَلِّهِ؟ أو مقام الوقور فالملائكة تستحي منه؟ أو فضيلة مزاحم الروح في منزلة «كهارون من موسى» (٥).

(١) عُرْفٌ: مَا عَلَا وَارْتَفَعَ.

(٢) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(٣) الْجَمَالُ الْقَوِيَّةُ، وَمِنْهُ:

وابن اللبون إذا ما لَزَّ فِي قَرْنٍ لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيسِ (٤) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(٥) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ، وَالْمُرَادُ بِهِمُ الْخُلَفَاءُ الْأَرْبَعَةُ عَلَى التَّرْتِيبِ.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يَسُّ واللَّه الكَهول من مِقالنَة سِيدي كَهول أَهل الجِنَة (١) كما لم تطمَع الشَّبَابُ في مِزاحمة سِيدي شَباب أَهل الجِنَة (٢)، متى التَهَبْتُ في صحابَة الأنبياء عِزِمة كَحُمرة جَمرة حمزة؟ أو علا على العُلا كَعلى علي؟ لَقَدْ فاز بِلِقب الصِدق طَلحَة الجود، كما سَعَدَ بالفضل «حواري» (٣) الزبير، وسما بِصلاة النبي خلفه ابنُ عوف، كما قَرَّت بلفظ «فداك أبي وأمي» (٤) عينُ سعد، وفاز بِالشهادة له بِالجِنَة سعيد، كما عَزَّ ابن الجراح بِلقب الأمين، ولم يذِكر باسمه بِالقرآن غير زيد، وأين في المِوالي مثل سالم مولى أبي حذيفة وسلمان؟ ومن في الزهاد كمصعب وابن مِظعون؟ وإنه لمسعود عبد الله بن مسعود، وطوبى ثم طوبى لِجَبابٍ وصهيب، ويا شرف المؤذنين بِصوت بلال، وأي بيت يشبه بيت أبي أيوب، ومن زينُ القراء إلا أُبيُّ بن كعب؟ ومن في النقباء كابن زرارة وابن الربيع؟ وأنى في الفقهاء مثل معاذ؟ ومن له زهد كزهد أبي ذر؟ وكفى لِلبُصراءِ قائداً ابنُ أم مكتوم، وإنه لَقَدوة المؤثرين أبو الدحداح، ومن في قُوام الليل مثل تميم؟ ومن صَبَرَ على القتل صَبَرَ خبيب؟

كُلُّهم أخيار، وجميعهم أبرار، ولا مثل صاحب الغار، وأين نظيرُ فَتَّاح

(١) أبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٢) الحسن والحسين رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا.

(٣) رواه مسلم.

(٤) متفق عليه.



المذهباتُ

الأمصار؟ ومن يُشبهه قاتل الدار؟ ولقد افتقروا إلى المجاهد بذي الفقار،
بِحُبِّ هؤلاء تُرجى الجنة وتتقى النار.

﴿ في قوله سبحانه: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ [الحج: ٢٧]:

لما تكامل بناء البيت، أرسل الله تعالى إلى خليله: أَدِّ رِسَالَةَ ﴿وَأَذِّنْ﴾
[الحج: ٢٧] فعلا على أبي قُبَيْس، ونادى في جميع الوجوه: إن ربكم قد بنى
لكم بيتاً فحجّوه، فأجاب من جرى القدر بحجه: «ليك اللهم ليك»
فكان ذلك اليوم أخا ليوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

لما رأيت مناديتهم أَلَمَّ بنا شددت مئزر إحرامي وليت
وقلت للنفس: جدّي الآن واجتهدي وساعديني كهذا ما تمنيت
لو جئتكم قاصداً أسعى على بصري لم أقض حقاً وأي الحق أديت

قطع القوم بيد السفر ﴿بَشِقَ الْأَنْفُسِ﴾ [النحل: ٧] فوافقهم الركاب
﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

واعجباً من حنين النوق، كأنها قد علمت وجد الركاب، فجذت
بالسير.

ذَكَرَهَا فِي سُرَاهَا مَا عَرَاهَا فغدت تنفخ شوقاً في بُرَاهَا^(١)

(١) البُرى: جمع بُرة: حلقة توضع في أنف البعير يُقاد بها، فإذا جهده السير نفخ فيها.
ومنه تضحية النبي ﷺ يوم الحديبية بجمل أبي جهل وفي أنفه بُرة من ذهب.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

تقطع البر وتنسى ما جنى سيرُها والسيرُ أمرٌ قد براها
كلّما ظنّنت منى قد قربت وتدانت دارُها طار كراها^(١)
كرهها ما زال من عهد الصّبا خليّتها والصّبا^(٢) فهو رضاها
غنّها يا أيها الحادي لها بالحمى أو بالنقا وانظر سُراها^(٣)
نَحَّ عنها السّوط يكفي شوقها قد رأت في نفسها ما قد كفهاها

أمر المحرمون بالتعري ليدخلوا بزيّ الفقراء، فبيّن أثر ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ
وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ ﴾ [سبأ: ٣٧].

تالله لقد جمعوا الخير ليلة جمع، ونالوا المنى إذ دخلوا منى
لله درُّ منى وما جمعت وبكا الأحبة ليلة النّفر
حجّ جعفر الصادق فأراد أن يُلبّي فتغيّر وجهه، فقيل له: مالك يا بن
رسول الله ﷺ؟ فقال: أريد أن ألبّي فأخاف أن أسمع غيرَ الجواب.
وقف مطرّف وبكر^(٤) فقال مطرف: اللهم لا تردّهم من أجلي.
وقال بكر: ما أشرفه من مقام لولا أنّي فيهم.

(١) الكرى: النوم.

(٢) الصّبا: حدّثة السن، الصّبا: الشوق. أو الريح المشرقية.

(٣) السرى: السير ليلاً، وقال خالد بن الوليد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: عند الصباح يحمد القوم السرى.

(٤) مطرّف بن عبد الله وبكر المزني.



المُدْهَشَاتُ

وقام الفضيل بعرفة، فشغله البكاء عن الدعاء، فلما كادت الشمس تغرب، قال: واسوأَ تاهُ منك وإن عفوت.

وقف بعضُ الخائفين على قدم الإطراق والحياء فقيّل له: لم لا تدعو؟ فقال: ثمَّ (١) وحشة. قيل: هذا يوم العفو عن الذنوب. فبسط يده فوق ميةً.

هذه دارُهُم وأنت محبٌ ما بقاء الدموع في الآماقِ
حجّ قوم من العباد فيهم عابدة، فجعلت تقول: أين بيتُ ربي؟ أين بيت ربي؟ فيقولون: الآن ترينه.

إذا دنت المنازل زاد شوقي ولا سيما إذا دنت الخيام
فلما لاح البيت، قالوا لها: هذا بيت ربك، فخرجت تشتدُّ وتقول:
بيت ربي، بيت ربي. حتى وضعت جبهتها (٢) على البيت، فما رُفعت إلا ميةً.

واعجباً لمن يقطع المفاوز ليرى البيت، فيشاهد آثار الأنبياء، كيف لا يقطع نفسه عن هواها؟

هاتيك دارُهُم وهذا ماؤُهُم فاشرب وِرْدَ وشَرِقَتَ إن لم تسقني

(١) ثمَّ: هناك. ﴿وَإِذَا دَأَيْتَ مِمَّ رَأَيْتَ نِعِيًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ [الإنسان: ٢٠].

(٢) الجبهة: ما بين الجبينين.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

إنما أهل هذه الدار سَفْرٌ، لا يجلّون عقد الرّكاب إلا في غيرها،
فاعجبوا لدار قد أدبرت والنفوس عليها والهة، ولأخرى قد أقبلت
والقلوب عنها غافلة.

ويحك! افتح عينيك؛ متى رأيت العقل يؤثّر الفاني على الباقي فاعلم
أنه قد مُسَخ.

ما زالت الدنيا مُرَّةً في في (١) الغير، ولكن قد مرض ذوقك.

يا مذنين! مصيبتنا واحدة

وكل غريب للغريب نسيبٌ

هلا تُبنا وأقلعنا؟ لعل الغمّ ينقلب غمامةً تُظلُّ من لفح الكرب.

الرجولية قوّة معجونة في طين الطبع، والأنوثية رخاوة.

ولد السبع عزيز الهمة، وابن الذئب غدار، وكلّ إلى طبعه عائد.

الجدّ كل حركة، والكسل كلّ سكون.

إذا أردت أن تعرف الديك من الدجاجة حين يخرج من البيضة،

فعلّقه بمنقاره، فإن تحرك فديك، وإلا فدجاجة.

فتورُّك عن السعي في طلب الفضائل دليل على تأنيث العزم.

(١) في الأولى: حرف جر، والثانية: الفم.



المُدْهَشَاتُ

يا من قد بلغ أربعين سنة، وكلُّ عمره نومٌ وسِنَةٌ، يا مُتَعَبًا في جمع المال بدنه، ثم لا يدري لمن قد خَزَنه، أَعْلِمَ هذه النفس الممتحنة، إنها بكسبها مرتبهة ألا يعتبر المغرور بمن قد دفنه؟ كم رأى جبارًا فارق مسكنه، ثم سَكَنَ مسكن مسكنة (١).

يا راحلين بالإقامة، يا هالكين بالسلامة، أين من أخذ صفو ما أنتم في كدره؟ أما وَعَظْكُمْ في سَيْرِهِ بِسِرِّهِ؟ بلى، قد حمل بريد الإنذار أخبارهم، وأراكم تصفُّحُ الآثار آثارهم.
محبة الدنيا محنة، كم أفردت من أرفدت، كم أخذت من أخذت،
﴿فَأَمَّا مَا مَنَّا بِعَدُوِّنَا فَمَا فَدَاءٌ﴾ [محمد: ٤].

الدنيا والشيطان خارجيان خارجان عليك، خارجان عنك، فالنفس عدوٌّ مباطن، ومن آداب الجهاد ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٣].
ليس من بارزَ بالمحاربة كَمَنْ كَمِنَ، ما دامت النفس حيَّةً تسعى، فهي حيَّةً تسعى، أقلُّ فعل لها تمزيق العمر بكفِّ التبذير، كالخرقاء وجدَّت صوفًا.

اخلُ بها في بيت الفكر ساعةً، وانظر: هل هي معك أو عليك؟
نادها بلسان التذكرة: يا نفسُ ذَهَبَ عرْشُ بلقيس، وبليِّ جمال شيرين،
وتمزَّقَ فَرَشُ بوران، وبقي نسك رابعة.

(١) المسكنة: الفقر والقلة، وقيل: المذلة.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا نفس! صابري عطش الهجير يحصل الصوم، وتحزمي تحزّم الأجير،
فإنها هو يوم.

يا هذا! دبّر دينك كما تُدبّر دُنياك، لو علق بثوبك مسماراً رجعت إلى
وراء لتخلّصه، هذا مسمار الإضرار قد نشب بقلبك، فلو عدت إلى الندم
خطوتين تَخَلَّصْتَ، هيهات صَبِيُّ الغفلة كلما حُرِّكَ نام.
من رُق لبكاء الطفل لم يقدر على فِطامه.

كل يوم تحضر مجلس الذكر يقف لك الشيطان على الباب، فإذا
خرجت كما دخلت، قال: فديتُ من لا يُفلح.

ما أشوقني إلى نسيم الرّند^(١) يشفي كمدي إذا أتى من نجد
والشّيحُ فإنه مُشيرُ الوجدِ شوقي له، ووجدي وجدِي
إن لم يرجع المفقود، يا أرباب القلوب الضائعة ﴿أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ
يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧].

إخواني! ذهبَت الأيام، وكُتبت الآثام، وإنما ينفع الملامُ متيقِّظاً
والسلام.

إخواني! خُلِقنا نتقلّب في ستة أسفار، إلى أن يستقر بنا المنزل.

(١) الرّند: شجر طيب الريح.



المذهباتُ

السَّفَرُ الأول: سَفَرُ السَّلَالَةِ مِنَ الطِّينِ.

والثاني: سفر النُّطفة من الصلب.

والثالث: من البطون إلى الدنيا.

والرابع: من الدنيا إلى القبور.

والخامس: من القبور إلى العَرَضِ.

والسادس: إلى منزلة الإقامة.

وقد قطعنا نصف الطريق، وما بعدُ أصعب.

إخواني! السنون مراحل، والشهور فرائس، والأيام أميال، والأنفاس خطوات، والطاعات رؤوس أموال، والمعاصي قطع الطريق، والريح الجنة، والخسران النار، لهذا الخطب شمّر المتقون عن سوق الجدّ في سوق المعاملة، كلّموا رأوا مراكب الحياة تخطف في بحر العمر، شغلهم هول ما هم فيه عن التنزّه في عجائب البحر، فما كان إلا القليل حتى قدموا من السفر، فاعتنقتهم الراحة في طريق التلقّي، فدخلوا بلد الوصل، وقد حازوا ربح الآخرة.

يا سائق الأظعان إن مع الصِّبا خبراً لو أنك للصبا تتوقَّفُ
هبت بعارفة تسوق من الحمى أرجأ برياً أهله يتعرَّفُ

خذ حديث القوم جملة، واقنع بالعنوان، السهر عندهم أحلى من رقدة



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

الفجر، أخبارهم أرقّ من نسيم السّحر، وآمأفهم بالدموع الدائمة ذائبة،
والهموم على الجوانح جوانح^(١).

كفى سائقًا بالشوق بين الأضالع لهيب اشتياق ثمّ فيض مدامع
فلو رأيت وكفّ شؤونهم^(٢) قلت: قد انقطع شريان الغمام، هذا
يُعاتب نفسه على التقصير، وهذا يتفكر في هول المصير، وهذا يخاف من
ناقد بصير.

أعفُ عني وأقلني عثرتي يا غياثي لملمّات الزّمن
لا تُعاقبني فقد عاقبني نومٌ أقلق روعي في البدن

هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا فجائعه تبقى، ولذاته تفتنى
إلى تبعات في المعاد وموقفٍ نوذُ لديه أنما لم نكن كُنّا
يا دنيء الهمّة! أعجبتك خُصرةٌ على مزبلة، فكيف لو رأيت فردوس
الملك؟

ألا إن بالأبصار عن عبّرة عمى ألا إن بالأسماع عن عظة صمم

(١) الجوانح الأولى: جمع جانحة وهي الأضلاع، والثانية (جوانح): أي متعدّيات
جائرات.

(٢) وكفّ شؤونهم: الوكف: الصّبّ والسيلان، شؤونهم مجاري الدمع من العين،
مفردها شأن.



المُدْهَشَاتُ

سيكشفُ عن قلب الغبيِّ غطاؤه إذا حتفه يوماً على صدره جثمُ

الهممُ تتفاوت في جميع الحيوانات:

العنكبوت من حين يولد ينسجُ لنفسه بيتاً، ولا يقبلُ منَّةَ الأمِّ، والحية تطلبُ ما حفره غيرها إذ طبعها الظلم.

الغراب يتبعُ الجيف، والأسد لا يأكل البائت.

الكلب يُنْضِضُ^(١) لثُرمي له لقمة، والفيل يُتملِّق حتى يأكل.

للصيد كلاب، وللمدبغة كلاب.

أين الأنفة؟ النَّحْلُ يغضب فيترضى من لجاج، والخنفساء تُطرد

فتعود.

الاختبار يُظهر جواهر الرجال، بَعَثَتْ بلقيسُ إلى سليمان هديةً لتسبرُّ بها قدرَ همِّته، فإن رأتها قاصرة، علمت أنه لا يصلح للمعاشرة، وإن رأتها عالية تطلب ما هو أعلى، تيقنت أنه يصلح.

يا هذا! الدنيا هدية بلقيس، فهل تقبلها، أو تطلب ما هو أنفس منها؟

ويحك! أحسنُ ما في الدنيا قبيح؛ لأنه يُشغل عمّا هو أحسن منه.

ويحك! إن الأرباح الكثيرة في الأسفار البعيدة.

الصبر والهوى ضرتان، فاختر أحسن الضرتين، فما يمكن الجمع.

(١) ينضض: يحرك لسانه.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ويحك! كلِّما أوغلت في الهوى زاد التعرقل.

ويحك! ما يساوي النصاب المسروق قطع اليد.

إلى كم عتابٍ يسدُّ الفضا سلام عليكم مَضَى ما مضى

الزمان أنصح المؤدِّبين، وأفصح المؤدِّنين، فانتبهوا بإيقاظه، واعتبروا
بإنقاضه.

لله درّ العارفين بزمانهم! إذا باعوا ما شأنهم بإصلاح شأنهم، ما أقلَّ
ما تعبوا! وما أيسر ما نصبوا! وما زالوا حتى نالوا ما طلبوه، صبَّحوا منزل
النجاة وأنت في اللهو نائم؟

يا رجالاً! ما بانتم رجوليتهم إلا بالعمائم، يا إخوان الأمل! قد بقي
القليل، وتفنى المواسم، أين أنتم من القوم؟ ما قاعد كقائم.

صحب الله راكبين إلى العزِّ طريقاً من المخافة وعراً
شربوا الموت في الكريهة حلواً خوف أن يشربوا من الضيم مرّاً

أنف القوم من مزاحمة الخلق في سوق الهوى، وقوي كرب شوقهم
فلم يهتملوا حصر الدنيا، فخرجوا إلى فضاء العزِّ في صحراء التقوى،
وضربوا مخيم الجدِّ في ساحة الهدى، وترنمت بلابل بلبلهم^(١) في ظلام

(١) بلبلهم: الهم ووسواس الصدر، يشير إلى هم الآخرة.



المُدْهَشَاتُ

الدَّجِي، فلو رأيت حزينهم يطلب الرضا على جمر الغصا، فيا محبوباً عنهم
في سجنِ الحرص والمثني، إن خرجت يوماً من سجنك لترويح شَجِنِكَ
من غمِّ البلوى، فعرج بديك الوادي.

حدّث نفسك بأرض نجد يهنُّ عليها عبور العقبة.

يا صبيان التوبة! هلاكم خفي، فدوموا على المعاملة يصرُّ بدرًا،

ولا بد من ضيقٍ ﴿ وَنَبَلُونَكُمْ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

الطبع يحنُّ إلى المألوف، والولد يطلب ما يشتهي، والزوجة تروم
سعة النفقة، والورع يختم كيس التصرف ﴿ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب: ١١]، إنما تقع الكلفة على قدر الطاقة، لما كان
الطائر يحتاج أن يزُقَّ فرخه، لم يحمل عليه إلا تدبير بيضتين، ولما كانت
الدجاجة تحضن ولا تطعم كان بيضها أكثر، ولما كانت الضبَّة^(١) لا
تحضن ولا تطعم صارت تبيض ستين بيضة، وتسدُّ الباب عليهن، وتعدُّ
الأيام فتنبشهن فيخرجن.

كانوا إذا ضيق الخوف عليهم الخناق نفَّسوه بالرجاء.

إخواني! الدنيا غرارةٌ غدارةٌ خداعةٌ مكارةٌ، تُظنُّ مقيمةً وهي سيّارة،
ومُصالحَةٌ وقد شنت الغارة.

(١) الضبَّة: أنثى الضب.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

سَتُخَيِّ الدنيا ومالكَ إلا ما تبلَّغت أو تزودت منها
كأنك بالموت وقد خطف، ثم عاد إلى الباقي وعطف، تنبه لنفسك
يا ابن النطف، فقد حاذى الرامي الهدف.

ما للعيون قد أخلقت أنوارها؟ وكثرت نظرها إلى الحرام فقل بكاءها؟

هبت والله دبورُ الذنوب، فتركت الأجسام بلا قلوب!

أين الفهم والتأمل؟ إن لم يكن جميلٌ فليكن تجملٌ.

يا هذا! الدنيا وراءك، والأخرى أمامك، والطلب لما وراءك هزيمة،

إنما يعجب الدنيا من لا فهم له.

لعبُ الخيال يحسبها الطفل حقيقة، وأما العاقل فيعلم ما وراء الستر.

الدنيا نهر طالوت والفضائل تُنادي ﴿فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي﴾

[البقرة: ٢٤٩] فإذا قامت الفاقةُ مقام ابن أم مكتوم^(١) أبيحت له رخصة

﴿إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فأما أهل الغفلة فارتووا، فلما قامت حرب

الهوى، ثببتهم البطنة، فنادوا بألسنة العجز ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا﴾ [البقرة: ٢٤٩]

وأقبل مُضْمَرُ الجِدِّ فحاز قَصَبَ السبق.

كل الشرِّ في الشرِّه، واللذة حِناق من عسل، ومن تبصّر تبصّر.

(١) أي مقام الأعمى، والمعنى: ألجأته الضرورة.



المذهباتُ

الحزم مطيئة النُّجج، الطمع مركب التلف، التواني أبو الفقر، البطالة أم
الخسران، التفريط أخو الندم، الكسل ابن عم الحسرة، وما يحصل برُدُّ
العيش إلا بحرّ التعب، ما العزُّ إلا تحت ثوب الكدِّ، على قدر الاجتهاد
تعلو الرتب.

كان ذو البجادين يتيمًا، فلما عمّه الفقر كفله عمّه، فنازعه النفس إلى
الإسلام، فهمم بالnehوض، فإذا بقيت المرض مانعة، فقعده على انتظار العمِّ،
فانتهى المرض، فصارت الهمة عزيمة، فنغذ الصبر، فناده صدق الوجد:

إلى كم حبسها تشكو المضيقا أثرها ربما وجدت طريقا
أجلها تطلب القصى ودعها سدى يرمي الغروب بها الشروقا
أعقلها وتقنع بالهوينى تكون إذن بذلتها خليقا
ولم يشفق على حسب غلامم يكون على ركائبه شفيقا

فقال: يا عم كنت انتظر سلامتك بإسلامك، وما أرى زمن^(١) منك
ينشط. فقال: والله لئن أسلمت لانتزعن كل ما أعطيتك.

فصاح لسان الشوق: نظرة من محمد ﷺ أحب إلي من الدنيا وما فيها،
هذا مذهب المحبين، إجماعاً من غير خلاف.

فلما تجرد لطلب الثواب، جرده العم من الثياب، فناولته الأم بجاداً^(٢)

(١) الزمن: المشلول.

(٢) البجاد: الكساء الغليظ.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

فقطعه لسفر المحبة، فائتزرَ وارتدى، وغدا في هيئة «رُبَّ أشعث أغبر»^(١).
 فنادى صائح الجهاد في جيش العسرة، فتبع ساقه الأحاب على
 ساقٍ، والمحبُّ لا يرى طول الطريق، إنما يتلمحُ المقصدَ.
 ألا بَلِّغَ اللهُ الحمى من يريده وبلِّغَ أكناف الحمى من يريدها
 فنزل الرسول ﷺ في حفرتَه، يُمهِّدُ له اللحد، وجعل يقول: «اللَّهُمَّ
 إني أمسيتُ راضيًا عنه فارض عنه» فصاح ابن مسعود: ليتني كنت
 صاحب الحفرة^(٢).

كذلك الفخر يا همم الرجال تعالي فانظري كيف الفِعال

ويعرفُ أخلاق الجبانِ جوادهُ فيجهدُه كراً ويُرهِقُه ذُعرا
 ومن يُحَلُّ تَطْلَابُ المعالي بصدرة يجد حُلُوَ ما يُعْطاهُ من غيرها مُرّاً

هلا شددت الحيازم، وقمت قيام حازم، تقصدُ الخير ولكن ما تلازم.
 حريمُ العزم الصادق حرامٌ على المتردد، متى تحزَم العزمُ هَزَم، لو
 رأيتَ صاحبَ العزم وقد سَرى حين رقدت السراحين^(٣) بهمةً تحلُّ فوق

(١) رواه مسلم.

(٢) انظر القصة في سيرة ابن هشام (٢/ ٥٧٢، ٥٢٨).

(٣) السراحين: الذئاب.



المذهشات

الفرقد^(١) فلنفسه نفاسةً، ولأنفه أنفةً، سهم الشهم مُفَوِّقٌ^(٢) فوق عُرْضَةِ الغرض^(٣).

كان الفضيل ميتاً بالذنوب، وابن أدهم مقتولاً بالكبر، والسبتي هالِكًا بالملك، والجنيذ من جيّد الجنّد، فنُفِخَ في صور المواعظ، فدبّت أرواح الهدى في موتى الهوى، فانشقت عنهم قبور الغفلة، وصاح إسرائيل الاعتبار: ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٧٣] إنما سمع الفضيل آيةً، فذلت نفسه لها واستكانت، وهي كانت.

إنما زجر ابن أدهم بكلمة كَلَمَتْ^(٤) قلبه، فهدي. لاحت للقوم جادة السلوك ﴿قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

هيهات منك غبار ذلك الموكب، ركبوا سُفن العزم فهبت لهم رياح العون، فقطعوا بالعلم لجج الجهل، فوصلوا إلى إقليم أرض الفهم، فأرسوا على ساحل بلد العبادة.

بَلِّغْ سلامي بالغُويرِ^(٥) جيرةً قلبي وإن حالوا إليهم تائقُ
فارقتهم كُرْهاً وليت أنني للروح من بعدهم مفارقُ

(١) نجم قريب من القطب. ومعه نجم آخر فهما الفرقدان.

(٢) فاق السهم: أي وضع فَوْقَهُ في الوتر ليرمي به.

(٣) الغرض: الهدف المرمي.

(٤) كلمت: جرحت.

(٥) الغوير: ماء لبني كلب.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ولست أنساهم وإن تقطعتُ بالبعد فيما بيننا علائقُ
يا نفسُ! عند ذكر الصالحين تبكين، وعند شرح جدّهم تتّين، وإذا
تصوّرت طيب عيشهم تحنّين، فإذا عرّفت قيامهم بالعبادة تنكين^(١).
إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرّضه فكل رداء يرتديه جميل
وإن هو لم يحمل على النفس ضيمها فليس إلى حسن الثناء سبيل
لقي بعضُ الجند إبراهيم بن أدهم في البرية، فقال له: أين العمران؟
فأوماً بيده إلى المقابر، فضربه فشجّ رأسه، فقيل له: هذا ابن أدهم، فرجع
يعتذرُ إليه، فقال له إبراهيم: الرأس الذي يحتاج إلى اعتذارك تركته ببلخ.
ومر رجل به وهو ينظر كرمًا^(٢) فقال: ناولني من هذا العنب، فقال:
ما أذن لي صاحبه، فقلب السوط وضرب رأسه، فجعل يطأطئ رأسه،
ويقول: اضرب رأسًا طالما عصى الله.
من أجلك قد جعلتُ خدي أرضًا للشامت والحسود حتى ترضى

* * * *

عجبًا لذاكر الموت كيف يلهو؟ ولخائف الفوت كيف يسهو؟ ولمتيقن
حلول البلى ويزهو، وإذا ذُكرت له الآخر مرّ يلغو.

(١) تنكين: تعديلين وتنصرفين.

(٢) الكرم: أشجار العنب.



المذهشات

إني أرقْتُ وذكر الموت أرقني فقلتُ للدمع: أسعدني فأسعدني
إن لم أبك لنفسي مشعرًا حزنا قبل الممات ولم آسف لها فمِن؟
ومن سيعمرُّ لي لحدي ويتركني في حفرتي تَرَبَّ الخدَّين والذَّقن

أين من كان على نسائه شديد الغيرة؟ أما رَحَل عنهنَّ واخترن غيره؟

أين من كان يسري آمنًا في سرِّه (١)؟ أما قيل للتلف: خذه، وسرِّ به؟

أعزُّ سمعك الأصوات، فهل تسمع إلا فلانًا مات؟ أَجِلْ (٢) بصرك
في الفلوات، فهل ترى إلا القبور الدارسات؟

صابر غَبَشَ العيش، فقد دنا فجر الأجر.

احذر أن تُدفع دونك سفينة النجاة، فتستغيث وقت الفوت ولا
عاصم، كأنك بك في قبرك، على فراش الندم، وإنه والله لأخشن من
الجنديل (٣) فازرع في ربيع حياتك قبل جدوب أرض شخصك، وادّخر
من وقت قدرتك لزمان عجزك، واعتبر رَحْلَكَ قبل رحيلك ﴿أَنْ تَقُولَ
نَفْسٌ بِحَسْرَتِي﴾ [الزمر: ٥٦].

يا هذا! مثل لنفسك صرعة الموت، وما قد عزمت أن تفعل حينئذٍ
وقت الأسر، فافعله وقت الإطلاق.

(١) السَّرْبُ: النفس والأهل والمال.

(٢) أَجِلْ: انظر وتأمل.

(٣) الجنديل: الصخر العظيم.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

أتبكي على لبني وأنت تركتها فكنت كآت حتفه وهو طائع
 فيا قلب خبرني إذا شطت النوى بلبني وبانت عنك ما أنت صانع
 كأنك بحرب الموت قد قامت على ساق، فانهزمت جيوش الأمل،
 وإذا بملك الموت قد بارز الروح، يجتذها بخطايف الشدائد من تيار
 أوتار العروق، وقد أوثق كتافُ الذبيح، وحرار البصر لشدة الهول،
 وملائكة الرحمة عن اليمين قد فتحوا أبواب الجنة، وملائكة العذاب عن
 الشمال قد فتحوا أبواب النيران، وجميع المخلوقات تستوكف^(١) الخبر،
 والكون كله قد قام على صيحة؛ إما أن يُقال: سَعِدَ فلان، أو شقي فلان،
 فحينئذ تتجلى أبصار ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي﴾ [الكهف: ١٠١]
 ويحك تهباً لتلك الساعة، حصّل زاداً قبل العوز.

تمتع من شميم عرارٍ نجدٍ في بعد العشيّة من عرارٍ
 وأأسفاه من حياةٍ على غرور، وموت على غفلة، ومنقلبٍ إلى حسرة،
 ووقوف يوم الحساب بلا حجة.

يا هذا! مثل نفسك في زاوية من زوايا جهنم، وأنت تبكي أبداً،
 وأبوابها مُغلقةٌ، وسقفها مُطبقة، وهي سوداء مظلمة، ولا رفيق تأنس به،
 ولا صديق تشكو إليه، ولا نوم يريح، ولا نفسٌ به تستريح.

(١) توكّف الخبر: توقّع الخبر وسأل عنه.



المُدْهَشَاتُ

كم أخرج الموت نفساً من دارها لم يُدارها، وكم أنزل أجساداً بجارها
لم يُجارها، وكم نقل ذاتاً ذات خطأ بأوزارها، وكم أجرى عيوناً كالغيوث
بَعْدَ بُعْدِ مزارها.

إخواني! قد حمام الحمام^(١) حول حماكم، وصاح بكم إذ خلا النادي
وناداكم، وأولاكم من النصح حقكم، فما أحقكم بالتدبير وأولاكم، وهو
عازم على اقتناصكم، وما المقصود سواكم.

يا من قد انطوى بُرْدُ شبابه، وُحِبَّتْ خِلَعُ^(٢) تَلْفِهِ، وبلغت سفينته
ساحل سفره، قف على ثنية الوداع، فلم تبق إلا نظرة تُغتنم، لو فتحت
عين اليقظة لرأيت حيطان العمر قد تهدمت، فبكيت على خراب دار
الأجل.

ومشتت الغزَمَاتِ يُنفِقُ عمره حيران لا ظَفَرٌ ولا إخفاقُ
يا أكمه البصر! لا حيلة فيه لعيسى، يا طويل الرقاد! ولا نوم أهل
الكهف، كيف يفلح من هو والكسل كندماني جذيمة؟
بينك وبين المتقين جبل الهوى، نزلوا بين يديه ونزلت خلفه، فاطو
فضل منزلٍ تلحق، لو علوت نَشْرَ^(٣) الجدِّ، بانت بانة الوادي.

(١) الحمام: الموت.

(٢) الخلع: جميل اللباس.

(٣) النشز: المرتفع من الأرض.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا مُقيداً بقيود الطرد! ألق نفسك في الدُّجى على باب الدُّل، وقل:
إلهي! كم لك سواي، ومالي سواك، فبفقري إليك وغناك عني، إلا
عفوت عني.

يا هذا! ليس في المياه ما يقلعُ آثار الذنب من القلب إلا الدموعُ، فإن
نَضَبْتُ ولم يزلِ الأثر فعليك بالاغتراف من بحر الاعتراف.

إذا وصلتُم إلى وادي العقيق سلوا عن حالٍ منقطعٍ أودى به السهرُ
وفتّشوا عن فؤادٍ هائمٍ قلقٍ قد ضاع مِنِّي فلا عينٌ ولا أثرُ

أنجعُ الوسائل الدُّل، وأبلغُ الأسبابِ في العفوِ البكاءُ، والعِيُّ عن
ترتيب العذر بلاغة المنكسر.

يا من أشكو إليه ما يعلمه والدمعُ يذيعُ كلَّ ما أكتمه
يا من يشيعُ ببدنه الميت، فأما قلبه ففي البيت، أتُخَلِّي بين الودودِ
والدود؟ وتعود إلى المعاصي حين تعودُ، هلاً أجلتَ بالبالِ ذكر البالي؟
وقلت للنفس الجاهلة: هذا لي.

شيع الحسن جنازةً فجلس على شفير القبر، فقال: إن أمراً هذا آخره،
لحقيقٌ أن يُزهد في أوله، وإن أمراً هذا أوله، لحقيق أن يخاف آخره.

إخواني! كيف الأمن وهذا الفاروق يقول: لو أن لي طِلاعاً^(١) الأرض

(١) طِلاعُ الأرض: ما يملؤها حتى يطلع عنها ويسيل.



المُدْهَشَاتُ

ذهباً وفضة لا فتديتُ بها من هول ما أمامي، قبل أن أعلم ما الخبر.
ولما طعن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال لابنه: ضع خدي على التراب، فبكى حتى
لصق الطين بعينه، وجعل يقول: ويلى ويلى أُمي إن لم يرحمني ربي.
واعجباً من خوف عمر مع كَماله، وأمنك مع نقصانك.
قيل لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: أي رجل كان عمر؟ فقال: كان كالطائر
الحذر، الذي كأنَّ له بكل طريق شَرَكًا.
يا عبد الطمع! طالع ديار الأحرار.
يا هذا! لو وقف مرضك رجونا لك البرء، ولكن المرض يزيدُ،
والعزمُ يضعفُ.
متى يلتقي الألافُ والعيسُ كلِّما تَصَعَّدَنَّ من وادٍ هبطنَ إلى وادٍ
يا نائمًا طول الليل! أما تُحسُّ ببرد السحر؟ لقد نَمَّ النسيم على الزهر،
ودلَّت أغاريدُ الحمامِ على دنو الفجر، صاح الديك فلم تتبه (١) وأعاد فلم
تُفَقْ، فقَوَّى صَرْبُ الجناحين لطمًا على غفلتك، صفَّق ما ارتياحًا لِسَنًا
الفجر، ولكن على الدجى أسفًا.

* * * *

(١) كان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إذا سمع الصائح (الديك) وثب. أي إلى صلاة الليل، وتأمل الوثوب، ليس فيه تراخ ولا تمطي.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

لله در أقوام بادروا أيامهم، وحاذروا آثامهم، جعلوا الصوم طعامهم، والصمت كلامهم، فالأبدان بين أهل الدنيا تسعى، والقلوب في رياض الملكوت ترعى، قاموا لخوف القيامة بالأوامر، وقَفُوا أنفُسهم على الخير، ما ترددوا كالمؤامر^(١).

وَلِ الدنْيا ظهرك تُنصُّ (٢) الآخرة لك نِقَابَها، نَعَزَّ عن الدنيا تُعَزَّ، وخذ قدر البُلْغَةِ وَجُز تَفُزُّ.

يا عميَّ البصيرة امش مع من يُبصر، تشبَّه بالصالحين تُعَدُّ في الجُمْلَة، لو سِرَّتْ في حزب المتقين خطواتٍ، لعرفوا لك حق الصُّحْبَة، يا من كان لهم رفيقًا فأصبح لا يعرف لهم طريقًا، اطلب اليوم أخبارهم، واتبع في السلوك آثارهم.

يا من نَسَبُهُ مُعْرِقٌ في الموتى، وقد وعظوه وإن لم يسمع صوتًا، أدرك أمرك فما تأمن فوتًا.

ألا كلُّ حي هالكٌ وابن هالكٍ	وذو نسبٍ في الهالكين عريق
فقل لغريب الدار إنك راحلٌ	إلى منزلٍ نأى المحل سحيق
تُجَرِّعُ فيها هالكًا فقد هالكٍ	وتشجي فريقًا منهم بفريق
فلا تحسب الدنيا إذا ما سكنتها	قرارًا فما دنياك غير طريق

(١) المؤامر: المتردد المضطرب.

(٢) تنصُّ: ترفع.



المُدْهَشَاتُ

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفت له عن عدوٍّ في ثياب صديق
 عليك بدارٍ لا يزولُ ظلالها ولا يتأذى أهلها بمضيق
 يا راقداً وقد أوزنَ بالرحيل، يا مشيِّدَ البنيان في مدارج السيول، بادر
 بالعمل قبل انقضاء العمر، ولا تنس من يُعدُّ الأنفاس للقائك.

وما هي إلا ليلةٌ ثم يومها ويومٌ إلى يومٍ وشهرٌ إلى شهر
 مطايا يُقربنَ الحديد إلى البلى ويُدنينَ أشلاءً الصحيح إلى القبر
 ويتركن أزواج الغيورٍ لغيره ويقسمن ما يحوي الشحيح من الوفر
 قالت الدنيا لابن أدهم: لو عدت إلى قصرِكَ فتعبدت فيه، فقال
 عزُّمهُ: كلا، ليس للمبتوتة^(١) نفقةٌ ولا سُكنى.

سلامٌ على اللذات واللَّهُو والصِّبا سلامٌ وداعٍ لا سلامٍ قدومٍ
 لاح له جمال الآخرة، فثبتت في النظر عين اليقين، فتمكَّن الحُبُّ من
 حَبَّة القلب.

رويداً أيها الحادي سُقيت الرائح الغادي
 فتلك الدار قد راحت وهذا الربع والوادي

الدنيا دار المحن، ودائرة الفتن، وساكنها بلا وطن، واللييب فيها

(١) المبتوتة: المطلقة طلاقاً بائناً.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

فطن.

ويحك! دُعْ محبة الدنيا، فعابر السبيل لا يتوطنُ، واعجباً تضيع منك
حَبَّةُ فَبِكِي، وقد ضاع عمرك وأنت تضحك! تستوفي مكيال هواك،
وتطفف في كيل صلاتك ﴿أَلَا بَعْدًا لِمَدِينٍ﴾ [هود: ٩٥].

تقف ببدنك في المحراب، ووجهك ملتفتٌ للجِرَابِ، ما يصلحُ
مثلك في الحرب، أنت تفضحُ صفَّ الجهاد، ما يحسنُ الدرْعُ على مُحَنَّثٍ (١).

خمسين سنة في مكتب التعليم وما حَدَّقَتْ أبا جاد، غداً توبخ وقت
عرض ألواح ﴿أَوْلَمْ نَعْمِرْكُمْ﴾ [فاطر: ٣٧] بضاعتك أيام عمرك وقد انتهبها
قطّاع الطريق، ورجعت إلى بيت الأسفِ بأعدالٍ (٢) فارغة، فانظر لعلّه
تخلّف فيها شيء تعاملُ به بقيّة عمرك، فعمر المؤمن لا قيمة له (٣).

كان فضالة بن صيفي كثير البكاء، فدخل عليه رجل وهو يبكي،
فقال لزوجته: ما شأنه؟ قالت: زعم أنه يريد سفرًا بعيداً وما له زاد.

يا هذا! الآخرة دارٌ سُكَّانها الأخلاق الجميلة، فصادقوا اليوم سكانها
لتنزلوا عليهم يوم القدوم.

يا هذا! فني العمرُ في خدمة البدن، وحوائجُ القلب كلها واقفة،

(١) المُخَنَّثُ: المتشبه بالنساء.

(٢) الأعدال: جمع عدل، وهو الكيس.

(٣) لا قيمة له: أي لا يُقدَّر بثمن، لأن سواه يعوض دونه.



المذهشات

انهض إلى التلافي قبل التلف، البهق يداوي قبل أن يصير برصًا، أما
سمعت في بداية الزلزل ﴿إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وفي وسطه
﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [المطففين: ١٤] وفي آخره: ﴿أَمْرٌ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾
[محمد: ٢٤].

أتبكي على معاصيك والإصرار يضحك؟! أتخادعُ التوبةَ وإنما تمكر
بدينك؟

رَأَيْتُ النَّاسَ خُدَّاعًا إِلَى جَانِبِ خُدَّاعٍ
يَعِيشُونَ مَعَ الذُّبِّ وَيَكُونُ مَعَ الرَّاعِي
ابك على ظلام قلبك يضيء، إذا بكت السحابُ على الربى تبسّمت.
لعلّ في بستان التوبة ثمرًا قد توجّه صلاحه.

أيها المشغول باللذات الفانيات! متى تستعد للملهماتِ المماتِ؟ متى
تستدرك هفوات الفوات؟ أطمع مع حب الوسادات في لحاق السادات؟
وأنّى تجعلك مثلهم أنى وهيهات؟
يا مدمن اللذات ناسٍ قبره اذكر تهجّم هادم اللذاتِ
تمضي حلاوة ما احتقت^(١) وبعده تبقى عليك مرارة التبعات

(١) احتقت: ارتكبت الإثم.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا حسرة العاصين يومَ معادهم ولو أنهم سيقوا إلى الجنات
لو لم يكن إلا الحياءُ من الذي ستر الذنوب لأكثروا الحسرات
يا مؤثر الفاني على الباقي! غلطةٌ لا كالأغلاط، ألك قدمٌ يصلح
للمشي على الصراط؟

وكم من فتىً يمسي ويصبح آمناً وقد نسجت أكفانه وهو لا يدري
واعجباً لنائم وهو مطلوب، ولضاحك وعليه ذنوب، أين الدموع
السواجم، قبل المنايا الهواجم؟ أين القلق الدائم للذنوب القدائم؟
يا من سينأى عن بنيه كما نأى عنه أبوه

يا مؤخرًا توبته بمطل التسويف ﴿لَأَيَّ يَوْمٍ أُحِلَّتْ﴾ [المرسلات: ١٢] خُلِقَ
قلبك صافيًا في الأصل، وإنما كدّرت الخطايا، وفي الخلوة يركد الكدر،
تلمّح سبب هذا التكدير، فما يخفى الحال على مُتلمّح.

يا مختار الكون! وما يعرفُ قدر نفسه، أما أسجدت الملائكة بالأمس
لك، وجعلوا في خدمتك؟ لما تكبرَ عليك إبليسُ وقد عبد الله سنين،
طرده الله، أفتصافيه على خلاف الله؟ ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ
دُونِي﴾ [الكهف: ٥٠].

قال سَرِي السَّقَطِي: ما فاتني وردُّ قط فقدِرتُ على إعادته، وذلك أن
الزمان الذي مضى فيه وظيفةٌ أخرى.



المُدْهَشَاتُ

هَبَّتْ عواصف الأقدار في بَيْدِ الأكوان، فتقلَّبَ الوجودُ وعمَّ الخبر، فلما ركدت الرياحُ، إذا أبو طالب غريقٌ في لجة الهلاك، وسلمان على ساحل السلامة، والوليد بن المغيرة يقدمُ قومَهُ في التيه، وصهيب قد قدم بقافلة الروم، وأبو جهل في رَقْدَةِ المخالفة، وبلالٌ ينادي: الصلاة خير من النوم. لما قضيت في القَدَمِ سلامة سلمان، أقبل يُناظر أباه في دينٍ قد أباه، فلم يعرف أبوه جوابًا إلا القيد، وهذا الجواب المرذول قديم من يوم ﴿حَرْقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨] فنزل به ضيف ﴿وَلَنَبَلُوَنَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٥] فقال بإكرامه رتبة «سلمان منا»^(١).

سَمِعَ أن ركبًا على نيّة السفر، فسرق نفسه من حِرْزِ أبيه، ولا قَطَعَ، فوقفَ نفسه على خدمة الأذلاءِ وقوف الأذلاء، فلما أحس الرهبان بانقطاع دولتهم، سلّموا إليه أعلام الإعلام على علامات نبينا محمد ﷺ، وقالوا له: إن زمنه قد أظلم، فاحذر أن تضلَّ، وإنه يخرج بأرض العرب، ثم يهاجر إلى أرض بين حرّتين، فلو رأيتموه قد فلى الفلا^(٢) والدليلُ شوقه، رحل مع رفقةٍ لم يرفقوا ﴿وَشَرَّوهُ بِشَمَنِ بَخْسٍ﴾ [يوسف: ٢٠] فابتاعه يهودي بالمدينة^(٣)، فلما رأى الحرّتين توقد حرَّ شوقه، وما علم

(١) حديث النبي ﷺ: «سلمان منا آل البيت» رواه الطبراني والحاكم وصححه السيوطي.

(٢) فلى الفلا: قطع الفلاة في رحلة الهجرة.

(٣) ابتاعه أولاً يهودي بوادي القرى فلبث عنده، ثم ابتاعه منه يهودي من بني قريظة فقدم به المدينة.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

المنزل بوجد النازل ، فلما رأى الحرّتين تَوَقَّدَ حَرُّ شَوْقِهِ، وما عَلِمَ المنزلُ
بِوَجْدِ النازلِ.

أيدي الربِّعُ أيِّ دم أراقا وأيِّ قلوبِ هذا الركب شاقا؟
لنا ولأهله أبداً قلوبٌ تُلاقِي في جِسومٍ ما تَلَاقَى

فينا هو يُكابِد ساعات الانتظار، قدم البشيرُ بقدم البشير، وسلمان
في رأس نخلة، فكاد القلقُ يلقيه، لولا أن الحزم أمسكه، كما جرى يوم
﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدَى بِهِ﴾ [القصص: ١٠] ثُمَّ عَجَّلَ النزول، ليلقى ركب
البشارة.

خليليّ من نجدٍ قفا بي على الرُّبى فقد هبَّ من تلك الرسوم نسيماً
فصاح به المالك: مالك ولهذا؟ انصرف إلى شُغلك، فأجاب لسان
وجده: كيف انصرفا في ولي في داركم شغل، فأخذ يضربه، فأخذ حاله يترنّم
لو سمع الأطروش:

خليليّ لا والله ما أنا منكما إذا عَلِمَّ من آل ليلي بداليا
فلما لقي الرسول ﷺ عرض نسخة الرهبان بكتاب الأصل، فوافق
ووافق^(١)، ولسان التوفيق: يا محمد! أنت تريد أبا طالب ونحن نريد
سلمان.

(١) فوافق ووافق: أي وافق ما عنده من علامات النبوة التي تلقاها عن أهل الكتاب
فوافق على الإسلام ووافق له.



المذهشات

أبو طالب، إذا سئل عن اسمه قال: عبد مناف، وإذا انتسب افتخر بالأبَاء، وإذا ذُكِرَتُ الأموالُ عَدَّ الإِبِلَ.

وسلمان إذا سئل عن اسمه قال: عبد الله، وعن نسبه، قال: ابن الإسلام، وعن لباسه، قال: التواضع، وعن طعامه، قال: الجوع، وعن شرا به، قال: الدموع، وعن وسادِهِ، قال: السهر، وعن فخره، قال: «سلمان منا».

إِن بَيْتًا أَنْتَ سَاكِنُهُ غَيْرُ مَحْتَاكِ إِلَى السُّرُجِ

وَعَظَّتْكَ أَجْدَاثٌ خُفَّتْ فِيهِنَّ أَجْسَادٌ سُبَّتْ
وَتَكَلَّمْتُ لَكَ بِالْبَلَى مِنْهُنَّ أَلْسِنَةٌ صُمَّتْ
وَأَرْتُكَ قَبْرَكَ فِي الْقُبُورِ وَأَنْتَ حَيٌّ لَمْ تَمُتْ

إخواني! هذا الموت قد غدا يقول: الرحيل غداً، كيف بكم إذا صاح إسرائيل في الصّور؟ فأسمع العظام البالية تحت المدّر، فاجتمعت من بطون السباع، وحواصل الطير، وقامت تبكي على فوات الخير، وسار الخلائق كلهم حفاة عراة، كلّ منهم مشغولٌ بما عراه^(١) وقد رُجّت الأرض وبست الجبال، وذُهلّت العقول، وشابت الأطفال.

أَيَا نَفْسٍ حَقَّكَ أَنْ تَجْزَعِي وَيَا عَيْنَ إِيَّاكَ أَنْ تَهْجَعِي

(١) عراه: نابه ونزل به.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ويا أذني إن دعاك الهوى فياك إياك أن تسمعي
يا أهل الذنوب والخطايا! - وكلنا كذلك - ألكم صبرٌ على العقوبة؟
﴿كَلَّا إِنَّهَا لَأُظَى﴾ [المعارج: ١٥] كيف أمن العصاة وعيد ﴿وَإِنْ مِّنكُمْ إِلَّا
وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] كيف نسوا غيب الزلل؟ ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ
حَيْرًا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧].

إخواني! مثلوا أهل الجنة ﴿يَوْمَ نَخْشِرُ الْمُتَّقِينَ﴾ [مريم: ٨٥] و﴿نُورُهُمْ
يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ [التحريم: ٨] ومعهم توقيع ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ [يونس:
٦٢] فلما وصلوا إلى الجنان ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣] وبدأهم الخزنة
﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ﴾ وبشروهم بالبقاء الدائم ﴿فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾
[الزمر: ٧٣] وقرأت الأملاك من سجل الإملاك مبلغ الثمن ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾
[الرعد: ٢٤] وجميع المرادات داخلية في إقطاع ﴿مَا نَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ﴾
[فصلت: ٣١] وأتم التمام ﴿وَمَا هُمْ مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾ [الحجر: ٤٨] ﴿وَلَدَيْنَا
مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

وهذا السرورُ بتلك الكُرب وهذا النعيمُ بهذا التعب
ويحك! مَيِّز بعقلك بين الدارين، وأحضر الذنب والعقاب والمَح
العاقبتين.



المذهشات

هذا الحيوان البهيم ينظر في العواقب، هذا الأيل^(١) يأكل الحيات،
فيشتد عطشه، فيحوم حول الماء ولا يشرب، لعلمه أن الماء يُنفذ السموم
إلى أماكن لا يبلغها الطعام، ومن عادته أن يسقطُ قرنه كل سنة، وهو
سلاحه، فيختفي إلى أن ينبت.

هذه النملة تدخرُ في الصيف للشتاء، فإذا خافت عَفَنَ الحَبِّ أخرجته
إلى الهواء، فإذا حذرت أن ينبت نقرت موضع القطمير.

كأنك لم تسمع بأخبار من مضى ولم تر في الباقيين ما يصنع الدهر^(٢)
فإن كنت لا تدري فتلك ديارهم محالها مجال الريح بعدك والقطر
على ذاك مروا أجمعون وهكذا يمرون حتى يستردهم الحشر
فحتام لا تصحو وقد قرب المدى وحتام لا ينجاب عن قلبك السكر
بل سوف تصحو حين ينكشف الغطا وتذكر قولي حين لا ينفع الذكر

يا مضمراً حُبِّ الدنيا إضمار الجمل الحقود، إن أردت دواء حُبِّها
فأول ما في الشُّربة الصبر.

قال محمد بن واسع: لو رأيتم رجلاً في الجنة يبكي، أما كنتم
تعجبون؟ قالوا: بلى، قال: فأعجب منه في الدنيا رجلٌ يضحك ولا يدري
إلام يصير؟

(١) الأيل: الوعل.

(٢) بمعنى أنه ظرف الفعل زماناً ومكاناً لأنه الفاعل، وهذا كثير في كلام العرب.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

قلوب العابدين مملوءة بذكر الحبيب، ليس فيها سعة لغيره.
 قد صيغ قلبي على مقدار حُبِّهمُ فما حُبِّ سواهم فيه مُتَّسعُ
 إن نطقوا فبذكرة، وإن تحركوا فبأمره، وإن فرحوا فلقُربه، وإن تَرحوا
 فلعتبه.

والله ما طلعتُ شمسٌ ولا غَربتُ إلا وأنت مِنِّي قلبي وَوَسْوَسي
 ولا جلستُ إلى قومٍ أحَدُثُهم إلا وأنت حديثي بين جُلَّاسي
 أقوائهم ذكر الحبيب، وأوقائهم بالمناجاة تطيبُ، لا يصبرون عنه
 لحظة، ولا يتكلمون في غير رضاه بلفظة.

كم تُدرَسُ أخبارُهم وما تُدرَسُ (١) لئن طواهم الفناء، لقد نشرهم
 الثناء.

أيها الخاطبُ على أزره (٢) وزرًا وآثامًا! تنبّه تر الدنيا أحلى ما كانت
 أحلامًا، كم نكس الموت فيها أعلامًا أعلى ما (٣)، كم أذل بقهره أقوامًا
 أقوى ما، لا كان مفتاح أمسى له الموت ختامًا.

تركوا كلَّ ذرّوة من أشمِّ يحسرُ الطرفَ ثم حلّوا الرّغاما

(١) تُدرَسُ: من المدارس والمطالعة، تُدرَسُ: لا تتمحي ولا تزول آثارها.

(٢) الأزر: الظهر.

(٣) أي أعلى ما تكون. وهذا من الجناس اللفظي.



المُدْهَشَاتُ

التبعات تبقى واللذات تمرُّ، بانث من الدنيا عيوبُها وليس فيها ما يُغرُّ،
وإنما يعشقها الجهول، ويأنف منها الحر.

من أخطأته سهام المنيّة قيّده عقالُ الهرم، ألا يتيقظ الغافل بأضرابه؟!!

ألا ينتهي العقال بأوصابه^(١) أيسلّم والرامي تحت ثيابه؟!!

يا مريضاً قد أتعب الأطباء ما به! ويحك! أخوك من عدلك لا من

عذرك، صديقك من صدّقك لا من صدّقك.

ويحك! من يطربك يطغيك، وما لا يعينك يُعنيك.

ويحك يا عبد الهوى! إن دعى أمنتَ، وإن ادّعى آمنتَ؛ احذر، ولقد

أعذر من أنذر، وما قصر من بصر.

لما رأى المتيقظون سطوة الدنيا بأهلها، وخداع الأمل أربابها، لجؤوا

إلى حصن الزهد، كما يأوي الصيدُ المذعور إلى الحرم، لاح له حب

المُشتهى، فلما مدّوا إليه أيدي التناول بان لأبصار البصائر خيطُ الفخ،

فطاروا بأجنحة الحذر، وصوتوا إلى الرعيل الثاني ﴿يَلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾

[يس: ٢٦] جمعوا الرحل قبل الرحيل، وشمروا في سواء السبيل، فالناس في

الغفلات، وهم في قطع الفلاة ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ [البقرة: ١٣٤] لو

رأيت مطايا أجسامهم، وقد آذاها السرى^(٢) فهي تحنُّ مما تُجنُّ^(٣) فتبكي

(١) الأوصاب: الأمراض.

(٢) السرى: المشي في الليل.

(٣) تُجنُّ: تخفي في صدرها.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

الحدادة.

حَنَّتْ فَأذْكَتْ لَوْعَتِي حِينِنَا أَشْكَو مِنْ الْبَيْنِ وَتَشْكَو الْبَيْنَا
يَقُولُ صَحْبِي: أَتَرَى آثَارَهُمْ نَعَمْ، وَلَكِنْ لَا أَرَى الْقَطِينَا
أَكَلَمَا لَاحَ لَعِينِي بَارِقُ بَكَتْ فَأَبَدَتْ سِرِّي الْمَصُونَا؟!
لَا تَأْخُذُوا قَلْبِي بِذَنْبِ مَقَلَّتِي وَعَدُّبُوا الْخَائِنَ لَا الْأَمِينَا

يا هذا! سُرَادِقُ الْمَحَبَّةِ لَا يُضْرَبُ إِلَّا فِي قَاعِ نَزِهِ.

وَكَمْ نَاحِلٍ بَيْنَ تِلْكَ الْخِيَامِ تَحْسَبُهُ بَعْضُ أَطْنَاهِمَا

أَشْتَاقُكُمْ وَيَجُولُ الْعِزْمُ دُونَكُمْ فَأَدْعِي بُعْدَكُمْ عَنِّي وَأَعْتِذِرُ
وَأَشْتَكِي خَطَرًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَآيَةَ الشُّوقِ أَنْ يُسْتَصْفَرَ الْخَطِرُ

إن هممت فبادر، وإن عزمت فتأبر، واعلم أنه لا يدرك المفاخر من

رضي بالصف الآخر.

إِذَا لَعِبَ الرَّجَالُ بِكُلِّ شَيْءٍ رَأَيْتُ الْحُبَّ يَلْعَبُ بِالرِّجَالِ

قال عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليه: خُلِقْتُ لِي نَفْسٌ تَوَاقِقُ، لَمْ تَزَلْ

تَتَوَقَّقُ إِلَى الْإِمَارَةِ، فَلَمَّا نَالَتَهَا تَاقَتْ إِلَى الْخِلَافَةِ، فَلَمَّا نَالَتَهَا تَاقَتْ إِلَى الْجَنَّةِ.

وَقَالَ أَصْحَابِي: الْفِرَارُ أَوْ الرَّدَى فَقُلْتُ: هُمَا أَمْرَانِ أَحْلَاهُمَا مُرُّ
سَيَذْكُرْنِي قَوْمِي إِذَا جَدَّ جِدَّهُمْ وَفِي اللَّيْلَةِ الظُّلْمَاءِ يُفْتَقَدُ الْبَدْرُ



المذهشات

ولو سدّ غيري ما سددتُ اكتفوا به وما كان يغلو التبرُّ لو نفق الصُّفْرُ (١)
ونحن أناسٌ لا توسط بيننا لنا الصِّدْرُ دون العالمين أو القبرُ
تهونُ علينا في المعالي نفوسنا ومن يخطُبُ الحسَاءَ لم يُغْلِه المسهْرُ

ابتليتِ الهمم العالية بعشق الفضائل، شجرُ المكاره يُثمر المكارم.

متى لاحت الفريسة قذفت الغابة السَّبعَ.

إذا استقام للجواد الشوط لم يُجوج راكبه إلى السَّوط.

من ضرب يوم الوغى وجه الهوى بسهم، ضرب مع الشجعان يوم

القسمة بسهم.

إذا طلع نجم الهمّة في ظلام ليل البطالة ثم ردفه قمر العزيمة أشرق

نور التوفيق وضياء الفلاح.

يا طالباً للدعة أخطأت الطريق، علّة الراحة التعب، إن لم تكن أسداً

في العزم ولا غزاًلاً في السبق فلا تتعلب.

من كدّ كدّ العبيد تنعم تنعم الأحرار.

من امتطى راحلة الشوق لم يشقّ عليه بُعد السفر.

على قدر أهل العزم تأتي العزائم وتأتي على قدر الكرام المكارمُ

إخواني! إلى متى سكرٌ عن المقصود؟ ألا صحو ساعة؟

(١) التبر: فئات الذهب قبل أن يُصاغ. والصُّفْر: النحاس.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

مثل أهل الدنيا في غفلتهم وطول آمالهم كمثل الحاج، نزلوا منزلاً،
فقام أقوام يقطعون الصخور، وبينون البيوت، فقال المتيقظون: ويحكم!
ما هذا البله؟ الرحيل بعد ساعة.

لو عَلِمَ الْوَرْدُ قِصَرَ عَمْرِهِ مَا تَبَسَّمَ.

إذا المرء كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة
تزوج صلتة بن أشيم فأدخله ابن أخيه الحمام، ثم أدخل إلى بيت المرأة
وقد طُيَّبَ فقام يُصلي، فمدَّ الصلاة إلى الفجر، فعاتبه ابن أخيه فقال: إنك
أدخلتني أمس بيتاً أذكرتني به النار، ثم أدخلتني بيتاً أذكرتني به الجنة، فما
زال فكري فيهما حتى أصبحت.

يا أخي! التوبة التوبة قبل أن تصل إليك التوبة.

الإنابة الإنابة قبل أن يغلق باب الإجابة.

الإفاقة الإفاقة فيا قُرب وقت الفاقة.

إنما الدنيا ليل صيف قريب الفجر.

إذا لم يكن بيني وبينك مُرْسَلٌ فريحُ الصِّبَا مِنِّي إليك رسولٌ

إذا نزل أبٌ في القلب سكن آذار^(١) في العين.

(١) أب: الشهر الثامن من التقويم الميلادي (أغسطس)، وهو من شهور الصيف =



المُدْهِشَاتُ

يا من يعظهُ الدهر ولا يقبل! ويُنذره القهرُ بمن يرحل! ويضمُّ العيب
إلى الشيب وبئس ما يفعل، كن كيف شئت فإنما تجازي بما تعمل.

وإما ترى مُهَجَّةً في الثرى فلا تغترر بالمئني أنت هي
خاصم نفسك عند حاكم عقلك، لا عند قاضي هواك، فحاكمُ العقل
يدينُ وقاضي الهوى يجور.

كان أحد السلف إذا قهر نفسه بترك شهوة أقبل يهتز اهتزاز الرامي إذا
أصاب الهدف.

وركب سَروا والليل ملقٍ رُواقهُ على كل مغبرِّ الطوالع قاتمٌ
حدوا عزماتٍ ضاقت الأرض بينها فصار سُراهم في ظهور العزائم
تُرِيهم نجوم الليل ما يبتغونه على عاتق الشَّعري وهام النعائم
إذا طَرَدُوا في مَعْرِكِ الجِدِّ قَصَفُوا رماح العطايا في صدور المكارم

هان عليهم طول الطريق لعلمهم أين المقصدُ، وحلت لهم مرارات
البلاء حُبًّا لعواقب السلامة، فيا بشراهم يوم ﴿هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ [الأنبياء:
١٠٣].

يا هذا! تنزّه في أخبار المحبين العابدين إن لم تكن منهم، إن أهل
الكوفة يخرجون للتفرج على الحاجّ، أقعد على جنب وادي السَّحَر لعلَّ إبل

= الحارة، والعامّة تقول: آب اللّهَابُ. آذار: هو الشهر الثالث من التقويم الميلادي
(مارس) ويأتي في نهاية الشتاء، تقول العامة: آذار شهر الزلازل والأمطار، بإذن الله.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

القوم تمرّ بك .

واحاجتنا إلى رؤية القوم، ويا شدة إشارهم البعد عنا، إن رأينا
شخصاً فأعلمتنا الفراسة أنه منهم، كانت همته الهرب منّا.

يا مخدوعاً قد فتن! يا مغروراً قد غبن! من لك إذا سُوي عليك اللبن؟

أنت في دار شتاتٍ فتأهب لشتاتك
واجعل الدنيا كيومٍ صمته عن شهواتك
وليكن فطرك عند الله في يوم وفاتك

إخواني! العمر أنفاسٌ تسيرُ بل تطيرُ، الأمل منامٌ لا تُرى فيه إلا
الأحلامُ، هذا سيف الموت قد دنا، هذا الرحيلُ ولا زاد عندنا، انتبهوا من
رُقاد الغفلة.

أول منازل الآخرة القبرُ، فمن مات فقد حطَّ رحلُ السفر، وسائرُ
الورى سائر.

من كان في سجن التقي فالموت يطلقه، ومن كان هائماً في بوادي
الهوى فالموت له حبس يُوثقه.

من كان واثقاً بالسلامة من الجناية فرح بفكّ باب السجن «والدنيا



المُدْهَشَاتُ

سجن المؤمن»^(١).

لما توعد فرعون السحرة بالصلب أنساهم أمل لقاء الحبيب مرارة
الوعيد ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٥] يا فرعون! غاية ما تفعل
تُحرق الخيم والركب قد سرى ﴿لَا ضَيْرَ﴾ [الشعراء: ٥٠].

من لاحت له مني نسي تعب المَدْرَج.

متى رُفعت لها بالغور نارٍ وقرّ بذي الأراك لها قرارٌ
فكلُّ دمٍ أراق السير منها بحكم الشوق مطلولٌ جبارٌ^(٢)

لا بد للمحبوب من اختبار المحبِّ ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٥].

أسلم أبو جندل بن سهيل فقيده أبوه، فلما نزل رسول الله ﷺ
الحديبية خرج أبو جندل يرسّف في قيده، فدخل في الصحابة، فقال
سهيل: هذا أول من أقاضيك عليه، فاستغاث أبو جندل: يا معشر
المسلمين، أُرِدُّ إلى المشركين فيفتنوني عن ديني، فقال رسول الله ﷺ: «وإنا
لا نغدر بهم»^(٣) فرد إليهم، فقدمه يسعى إليهم، وقلبه يُجهزُ جيوش الحيل
في الخلاص، فخلصه الله.

لما أسلم مصعب بن عمير حبسه أهله، فأفلت إلى الحبشة، ثم قدم

(١) رواه مسلم.

(٢) مطلول: مهذور، جبار: هدر.

(٣) رواه البخاري.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

مكة، فدخل على رسول الله ﷺ، فأرسلت إليه أمه: يا عاقُّ! أتدخل بلدًا أنا فيه ولا تبدأ بي؟ فقال: ما كنت لأبدأ بأحد قبل رسول الله ﷺ، فأرادت حبسه، فقال: والله لئن حبستني لأحرصنَّ على قتل من يتعرَّض لي، فتركتهُ.

وعاذلونِ حَوْبِي (١) في محبتِّهم يا ليتهم وجدوا مثل الذي أجدُ لما أطالوا عتابي فيك قلت لهم: لا تفرطوا بعض هذا اللوم واقتصدوا عذبوا بلائاً فأصرَّ على الصبر، فسلموه إلى صبيانهم في حديدة يصهرونه في حرِّ مكة، ويضعون على صدره وقت الرضاء صخرة، ولسان محبته يقول:

بعينيك ما يلقي الفؤادُ وما لقي وللشوق ما لم يبق مني وما بقي
قدِمَ الطفيلِ الدوسي مكة، فقالت له قريش: لا تدنُ من محمد، فإننا نخافُ أن يفتنك، فسدَّ أذنيه بقطعتين، ثم تفكَّر، فقال: والله ما يخفي علي الحسنُ من القبيح، فانطلق فسمع من رسول الله ﷺ فأسلم.

قطعت قريشُ لحمَ خبيب، ثم حملوه إلى الجذع ليُصلب، فقالوا: أتُحبُّ أن محمداً مكانك؟ فقال: والله ما أحبُّ أني في أهلي وولدي، وأن محمداً شريكٌ بشوكة، ثم نادى: واحمداه! (٢).

(١) الحَوْبُ: الهم والحزن والوجع. أو أن المراد دعوتهم عليه بقولهم: (لحاك الله).

(٢) انظر قصته في يوم الرجيع، سيرة ابن هشام ١٧٢/٢.



المذهشات

لما بُعث معاذٌ إلى اليمن خرج الرسول ﷺ يُودِّعُهُ، ودموع معاذٍ ترشُّ طريق الوداع.

كانت الدنيا بمثلهم عَسَلًا، فتعلقمت بمثلنا، خَلَّتِ الديار من الأحباب، فلمَّا فرغت رُدِمَ الباب.

وقعتُ فيها أصيلاً كي أسألُها أعيّت جواباً وما بالربيع من أحدٍ
أضحت قفاراً وأضحى أهلها احتملوا أخنى عليها الذي أخنى على لُبِّدٍ

إن الدنيا مذ أباتت مُجَبَّها أباتت حالها، لقد روت وما روت^(١)،
ووارت فأرت مآلها، لقد عرف إدبارها من قد ألف إقبالها، وما اطمأنت
أرضها إلا وزُلزلت زلزالها.

قل لمن فاخر بالدنيا وحامى قتلت قبلك ساماً ثمَّ حاماً
ندفنُ الخِلَّ وما في دفننا بعده شكٌّ ولكن نتعامى
إن قُدَّامك يومالو به هُدِّدتُ شمس الضحى عادت ظلاماً
صاح صِحَّ بالقبر يجبرك بما قد حوى واقراً على القوم السلاماً
فالعظيمُ القدر لو شاهده لم تجد في قبره إلا العظاماً
أين مصونُ الحصون؟ أزعج عنها، أين مقصور القصور؟ أخرج

(١) أي روت أخبارهم وما أروت ظمأهم.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

منها، نَقَلَهُ هَادِم اللذات نَقْلًا سَرِيعًا، وَمَقَلَهُ فِي بَحَارِ الآفَاتِ مَقَالًا (١) فظيغًا، وفرّق بينه وبين بنيه، وطرقه بطارق النقض فأنقض ما كان بينيه، هجره والله من هاجر إليه، ونسيه نسييه وقد كان يحنو عليه، حلّوا والله بالبلاء في البلى، وودّعهم من أودعهم ثمّ (٢) ثمّ قلّي، وانفردوا في الأخدود بين وحش الفلا، وسألوا الإقالة فقليل: أما هذا فلا.

لو نطق الموتى بعد دفنهم لندموا غييبهم وأفنهم (٣)، ولقالوا: رحلنا عن ظلم شرورنا إلى ظلم قبورنا، أفترى محبنا إذ ظعننا، بمن اعتاظ عنا. وهذا مصيرك بعد قليل، فتأهب يا مقيم للتحويل، يا سليمان (٤) يظن أنه سليم، جوارحك جوارحك (٥)، سور تقواك كثير الثلم، وأعداؤك قد أحاطوا بالبلد.

آه للابس شعار الطرد وما يشعر به، وأأسفاه لمضروب ما يحسُّ صوت السوط، عجبًا لمن أصيب بعقله وعقله معه.
يا من كان له قلب طيب، ووقت حسن، فاستحال، ابك على ما فقدت في بيت الأسف.

(١) المقل: الغمس.

(٢) ثمّ: هناك.

(٣) أفنهم: نقص عقلهم وحمقهم.

(٤) السليم: الملدوغ، تفاؤلاً بالسلامة.

(٥) جوارحك الأولى: الأعضاء، الثانية: التي جرحتك ونقصتك.



المذهشات

لعل انحدار الدمع يعقب راحة من الوجد أو يشفي نجى البلابل
 ما أحسن ما كنت فتغيرت، ما أجود جادتك فكيف تعثرت؟
 أنجع المراهم لجراحات الذنوب الدموع، هتكة الدمع ستر على
 الذنب.

كان محمد بن المنكدر كثير البكاء، فسئل عن ذلك قال: آية من القرآن
 أبكتني ﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧] كيف لا تذهب
 العيون من البكاء، وما تدري ماذا أعد لها؟!

سبقت السعادة لنبينا محمد ﷺ قبل كونه، ومضت الشقاوة لأبي جهل
 قبل وجوده، وخوف العارفين من سوابق الأقدار.

قلقل الأرواح هيبة ﴿لَا يُسْأَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] مع ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ
 نَفْسٍ هُدًى﴾ [السجدة: ١٣] قوي قلق العلماء.

تيقظ لنفسك يا هذا وانتبه! وأحضر قلبك وميز ما تشتهه، أما هذا
 منزلك اليوم، وغداً لست به؟

أب^(١) يا شارذ الطبع من سفر الهوى، وأذب جامد الدمع بنيران
 الأسي، لعل شفيح الاعتراف يُسأل في أسير الاقتراف، نق عينيك من

(١) أب: عد وأنب وتُب.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

عيوبك، وخلّص ذنوبك^(١) من بحر ذنوبك، وصُن صندوق فمك بقفل صمتك، واغضض عينك عن عيبك حفظاً لدينك.

اجلس ليلة على مائدة السّحر، وذُق طعام المناجاة تنسيك كل لذّة، أرواح^(٢) الأَسْحار لا يستنشقها مزكوم غفلة، إنها لتأتي بالطفاف الحبيب، ثم تعود فيحاء^(٣) تطلب رسالة، فمن لم يكتب كتاباً فماذا يبعث؟

لو وقفت على جادّة التهجد ليلة لرأيت ركب الأُجباب، لو سرت في أعراض القوم لحرك قلبك صوت الحُداة، أقبلت رياح الأَسْحار فاحتشمت^(٤) تقبيل أقدامهم، وحركت أذيال أثوابهم.

وأمسّت الرّيح كالغيري تجاذبنا على الكثيب فضول الرّيط واللّمم
يشي بنا الطيبُ أحياناً وآونةً يُضيئنا البرقُ مجتازاً على إضم
يولّع الطلُّ بُردينا وقد نسمت رويحةُ الفجر بين الضال والسلم^(٥)

واعجباً لرسائل تحمل في الأَسْحار لا يدري بها الفلكُ، ولأجوبة ترد إلى الأسرار ولا يعلمُ بها الملكُ.

يا حبذا رند العقيق وبانه سُقي العقيق وأهله وزمانه

(١) ذنوبك: دلوك.

(٢) أرواح: نسائم.

(٣) فيحاء: فائحة الريح والعطر.

(٤) احتشمت: استحت وخجلت.

(٥) يولّع: يجعل فيه لمع البياض، الضال والسلم: نوعان من الشجر.



المُدْهَشَاتُ

راقت خمائله ورق نسيمة وصفت على حصبائه غدرأته
 وشكت تباريح الصبابة وُزُقُهُ وتمايلت بيد الصبا أفنانه
 اجتمع المحبون في مساجد التعبد أول الليل، فرمتهم المحبة في آخره
 على قوارع الطرق.

أرواح أزعجها الحبُّ، وأقلقها الخوفُ، سبحان من أمسكها
 باللطف.

إخواني تفكروا في مصارع الذين سبقوا، وتدبروا مصيرهم أين
 انطلقوا؟ واعلموا أن القوم انقسموا وافترقوا، فمنهم قوم سَعِدُوا، ومنهم
 قوم شَقُوا.

المرء مثل هلال عند طلعه يبدو ضئيلاً لطيفاً ثم يتسقُ
 يزداد حتى إذا ماتم أعقبه كُرُّ الجديدين (١) نقصاً ثم يمتحقُ
 كان الشباب رداءً قد بهجتُ به فقد تطاير منه للبلَى خرقُ
 عجبتُ والدهرُ لا تفنى عجائبه للراكين إلى الدنيا وقد صدقوا
 يا أهل لذات دارٍ لا بقاء لها إن اغتراراً بظُلِّ زائل حمقُ

ما قدر ليصُّ قطُّ على فطن، متى نام حارس الفكر انتبه لص الهوى.

من ثبت قلبه في حرب الشهوات لم تتزلزل قدمه، أول ما ينهزم من
 المهزوم عقله.

(١) الجديان: الليل والنهار.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ما لم يكن لك محرّك من باطنك فالخلق تضرب في حديد بارد.
ونجمعُ المال نرجو أن يُخلدنا وقد أبى قبلنا تخليد قارون
عجباً لك! لا الدهر يعظك، ولا الحوادث تنهاك، والساعات تعدّ
عليك، والأنفاسُ تُعدُّ منك، وأحب الأمرين إليك أعودُهُما بالضرر
عليك.

كُلُّ ذرة في الكون تخبرُ بلغة بليغة عن حكمة الفاطر، غير أنه لا يفهمُ
نطق الجوامد إلا العقل.

نظرُ الأبصار اليوم إلى الخالق بواسطة المصنوع تدريجٌ إلى رفع
الوسائط غداً.

يا مؤثراً ضنك الحس على فضاء العقل! كيف تبيعُ صفاء التأمل بكدر
الإهمال؟

تأمل نطفة مغموسة في الرحم، ونقّاش القدرة يشق سمعها وبصرها
من غير مسّاسٍ، كيف تُربّي في حرز مصون، بينما هي ترفل في ثوب نطفة
اكتست رواء علقه، ثم اكتست صفة مضغّة، ثم انقسمت إلى عظم ولحم،
فاستترت من يد الأذى بوقاية جلد، ثم خرجت في سر بال الكمال تسحب
مطارف الطرائف، فيينا هي في صورة طفل درجت درجة الصبي،
فتدرجت إلى النطق، وتشبثت بذيل الفهم، هذا بعض وصف الظاهر،
فكيف لو فهمت معنى الباطن؟



المُدْهَشَاتُ

الآدمي كتاب مسطور، وشخصه رِقٌّ منشور، قلبه بيت معمور، همه
سقف مرفوع، علمه بحر مسجور.

يا ذا اللب! حدثني عنك، أتفق العمر الشريف في طلب الفاني
الرزيل؟

ويحك! إن لهوى مِرْعَادُ مِرَاقٍ بلا مطر، الدنيا لا تساوي نقل أقدامك
في طلبها، الدنيا مجازٌ والآخرة وطن.

يا أبناء الدنيا! إنها مذمومة في كل شريعة، والولد عند الفقهاء يتبع
الأم^(١).

ويحكم! إن سرورها أقتل من السم وإن شرورها أكثر من النمل.

كَدُودٌ^(٢) كَدُودِ الْقَزِ يَنْسَجُ دَائِمًا وَيَهْلِكُ غَمًّا وَسَطَ مَا هُوَ نَاسِجُهُ

يا أظلم من الجُلَنْدِيِّ^(٣) ما تأمنك غزلان الحرم.

يا مطلقًا نفسه في محذور شهواتها! اذكر الغمس في الرسم.

(١) أي في حال الرق والزواج من الأمة.

(٢) كدود: صيغة مبالغة من الكد.

(٣) الجُلَنْدِيُّ: أحد ملوك عمان يضرب به المثل في الظلم، وذكر الزمخشرى أنه المعني

بقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ وِرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا ذا البال الناعم فوق الأرض! اذكر الناعم البالي تحتها.
يا هذا! لو عانيت قصر أجلك لزهدت في طول أملك، وليقتلنك
ندمك إن زلت بك قدمك.

إلى كم ذا التواني في التواني وكم هذا التماذي في التماذي
متى ما ازددت من بعد التناهي فقد وقع انتقاصي في ازديادي
كم تأكل الدنيا فرخها فَعَرَّتْ؟^(١) ثم ذبحته بمديّة ما مرت، إنها
لتقتل صيادها، وتأكل أولادها.

والله لو كنت في رياشها أكسى من الكعبة، لم تخرج منها إلا أعرى
من الحجر الأسود.

قيل لعابد: لم تخلت عن الدنيا؟

فقال: خوفا من الآخرة أن تتخلى عني.

لقد انقضى العمر وأنت في شُغْلٍ فاجسر على الأهوال إن كنت رجل!
سار المجدون وتركوك، ونجا المخفون وخلفوك.

يا من أبعدته الخطايا عنهم، ادرُج^(٢) مرحلة الهوى فقد وصلت، أنت
تتعلل للكسل بالقدر، فتقول: لو وفقني، ولكسب الشهوات بالندب إلى

(١) فَعَرَّتْ: أي ألحقت بهم المعرة وهي العار والعيب.

(٢) ادرُج: اطو.



المذهباتُ

الحركة ﴿فَامْتَشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥] أنت في طلب الدنيا قدرتي، وفي طلب الدين جبري، أي مذهب وافق غرضك تمذهبت به! أو ليس في الإجماع ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۗ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]؟

لا بد والله من قلق وحرقة، إما في زاوية التعبد، أو في هاوية الطرد، إما أن تحرق قلبك بنار الندم على التقصير، والشوق إلى اللقاء، وإلا ف﴿نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا﴾ [التوبة: ٨١].

شجاك الفراق فما تصنع أتصبر للبين أم تجزع
إذا كنت تبكي وهم جيرة فماذا تقول إذا ودعوا

القلق القلق يا من سلب قلبه، والبكاء البكاء يا من عظم ذنبه.

كان أحد العباد يقول في مناجاته: ليت شعري ما اسمي عندك يا علام الغيوب، وما أنت صانعٌ في ذنوبي يا غفار الذنوب، وبم تختتم عملي يا مقلب القلوب.

وكيف قرّت لأهل العلم أعينهم أو استلذوا لذيد النوم أو هجعوا
والموت ينذرهم جهراً علانية لو كان للقوم أسماعٌ لقد سمعوا
والنار ضاحيةٌ^(١) لا بد موردهم وليس يدرون من ينجو ومن يقع
والآدمي بهذا الكسب مرتين له رقيب على الأسرار يطلع

(١) الضاحية: البارزة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

حتى يوافيه يوم الجمع منفرداً
إذ النبيون والأشهاد قائمةٌ
وطارت الصحف في الأيدي مُنشرةً
فكيف سهوك والأنباء واقعةٌ
أفي الجنان نعيمٌ لا انقطاع له
طال البكاء فلم يُرحم تضرعهم
لينفع العلم قبل الموت عالمه
وخصمه الجلد والأبصار والسمع
والجن والإنس والأملاك قد خشعوا
فيها السرائر والأخبار تطلع
عما قليل ولا تدري بما يقع؟
أم الجحيم فلا تبقي ولا تدع؟
هيهات لا رقة تغني ولا جزع
قد سال^(١) قومٌ به الرجعى فما رجعوا

يا هذا قد بقي قليل عمرك لا ريب، وهذا الشيب يقلع الأعراس، إن
في المقابر لعبراً وما أدراك ما الأوراس^(٢)؟ هل تجد لماضي العمر لذة
والباقي على القياس؟

إن المفروح به هو المحزون عليه، غير أن عين الهوى عمياء، طائرُ
الطمع يرى الحبة لا الشرك.

يا معشر الفقراء! لا تسألوا سوى مولاكم، فسؤال العبد غير سيده
تشنيعٌ عليه، اصبروا على العطش، ولا تشربوا من منة الخلق، فالخرة تجوع
ولا تأكل بثديها.

كان إبراهيم بن أدهم يعطي عطاء الأغنياء وهو فقير، ويستدين عليه

(١) سال: سأل، وخففت همزتها.

(٢) الأوراس: البالية، ويقصد جثث الموتى في القبور.



المذهشات

ثم يؤثر به.

وهم يُنفذون المال في أول الغنى
مغاوير في الجُلِّي (١) مغايرٌ في الحمى
ويستأنفون الصبرَ في آخر الصبر
كما خايل المطرابُ عن نزوة الخمرِ
مفاريح للغُمِّي (٢) مداريكٌ لِلوَتَرِ (٣)
وتأخذهم في ساعة الجود هزّةً
فتحسبهم فيها نشاوى من الغنى
وهم في جلايب الحِصاصة والفقر
وهيّن عليهم أن يبيتوا بلا وفر
عظيمٌ عليهم أن يمتنوا بلا يدٍ
عليه فلم يدرِ المُقل من المثري
إذا نزل الحيّ الغريبُ تقارعوا
يميلون في شق الوفاء مع الردى
إذا كان محبوب البقاء مع الغدر

لا تغرنك السلامة فمع الخواطي سهمٌ صائب.

نظر شاب إلى شيخ ضعيف الحركة فقال: يا شيخ، من قيدك؟ فقال:
الذي خَلَفْتَهُ يفتل قيدك.

كان بعض الأشياخ يقول: إلهي! من عادة الملوك أنهم إذا كبر لهم
مملوك أعتقوه، وقد كَبُرْتُ فأعتقني.

وقف أعجمي عند الكعبة، والناس يدعون وهو ساكت، ثم أخذ

(١) الجُلِّي: الأمر العظيم.

(٢) الغُمري: الداهية.

(٣) الوتر: الثار.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

بلحيته فرفعها وقال: يا خداه^(١) شيخ كبير.

يا هذا إنما خلقت الدنيا لتجوزها لا لتحوزها، ولتعبرها لا لتعمرها،
فاقتل هواك المائل إليها، واقبل نُصحي ولا تعوّل عليها.

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته يبقى الإله يُودَى^(٢) المال والولد
الدنيا مزرعة النوائب ومشرة^(٣) المصائب، ومفرقة الجامع،
ومجرية المدامع، كم سلبت أقوامًا أقوى ما كانوا، وبانت أحلى ما كانت
أحلامًا فبانوا.

يا أقدام الصبر تحملي فقد بقي القليل، تذكري حلاوة الدعة يهن
عليك مُر السرى، قد علمت أين المنزل، فاحد لها تَسِر.

الجنة ترضى منك بالزهد، والنار تندفع عنك بترك الذنب، والمحبة لا
تقع إلا بالروح.

بلغت بالقوم المحبة إلى استحلاء البلاء، فوجدوا في التغريب عذوبة،
لعلمهم أنه مراد الحبيب.

أمر الحجاج بصلب ماهان العابد، فُرفِع على الخشبة وهو يسبح
ويهلل ويعقد بيديه تسعًا وعشرين فبقي شهرًا بعد موته، ويده على ذلك

(١) يا خداه: يا سيدي بالفارسية.

(٢) يُودَى: يهلك ويفنى.

(٣) مشرة: مورد الشارين.



المذهبات

العقد مضمومة.

أيها المغتر بالدنيا! كم خدعت؟ ما واصل وصلها محب إلا قطعت،
وما ناولت نوالاً إلا ارتجعت، اختبأت مريها فلما اعتقلت أسيرها
جرعت، متى رأيتها قد توطنت فاعلم أنها قد أزمعت.

شيب حلو اللذات منها بمُرٍّ إن حلت مرة أمرت مراراً
في اكتساب الحلال منها حساب واكتساب الحرام يصلي النارا
مالك تجمع مالك ومالك منه إلا ما تخلف، والزمان يستحثك
للذهاب وأنت للأذهاب تؤلف؟ المال إذا وصل إلى الكرام عابر سبيل،
وإكرام عابر السبيل تجهيزه للرحيل.

أظن هواها تاركي بمضلة من الأرض لا مال لدي ولا أهل
ولا أحد أفضى إليه وصيتي ولا وارث إلا المطية والرحل
من فهم علم التوحيد تجرد للواحد بقطع العلائق، أما ترى كلمتي
الشهادة مجردة من نقط.

إذا عرضت الدنيا أقبلت الآخرة «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً
منه» (١).

(١) عند ابن عساكر وأبي نعيم بلفظ: «من ترك عبد لله أمراً لا يتركه إلا لله إلا عوضه
الله منه ما هو خير له منه في دينه ودنياه».



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

عقر سليمان الخيل ﴿فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ﴾ [ص: ٣٦] لما عُقدت الخنصر (١)
على التوحيد مُيزت على باقي الأصابع بالخاتم.

يا أطفال التوبة! ما أنكر حيننكم إلى الرضاع، ولكن ذوقوا مطاعم
الرجال، وقد نسيتم شرب اللبن.

اخرجوا لقتل سبع الهوى فقد أغار على سرح (٢) القلوب.

إخواني! جدوا فقد سُبقتكم، واستعدوا فقد لحقتكم، وانظروا بماذا من
الهوى علقتم؟ ولا تغفلوا عما له خلقتكم، ذهبت الأيام وما أطعتم، وكتبت
الآثام وما أصغيتكم، وكأنكم بالصادقين قد وصلوا وانقطعتكم.

كُلُّ كنى عن شوقه بلُغاته ولربما أبكى العصيم الأعجمُ

آه على زمان فات وعلى قلب حي مات، كيف الطمع فيما مضى؟

هيئات.

ردوا علي ليالي التي سلفت.

يا من كان له قلب فانقلب، قيام السحر يستوحش بك، صيام النهار
يسأل عنك.

يا من كان قريباً فطُرد، يا عزيزي ما ألفتَ الشقاء فكيف تصبر؟

(١) في ابتداء العد والوقوف عليها بغرض التوحيد، والمشهور أن أصعب التوحيد هو
السبابة أو السبّاحة وفي الحديث: «وأشار بالتوحيد».

(٢) السرح: السوائم من الماشية.



المُدْهَشَاتُ

أصعب الفقر ما كان بعد الغنى، وأوحش الذل ما كان بعد العز، وأشدّهما العمى على الكبر.

لا تبرِ عودًا أنت ريّشته حاشى لباني المجد أن ينقضا

يا دائرة الشقاء أين أولك؟ يا أرض التيه أين آخرك؟

سمعت حمامة هتفت بليل وقد حنّت إلى ألف بعيد

فأزعجت القلوب وأقلقتها فما زلنا نقول لها أعيدي

أرى ماءً وبى عطشٌ شديد ولكن لا سبيل إلى الورود

تعلق بالليل فهو شفيع مُشَفَّع، تمسك بالبكاء فهو رفيق صالح،

فأبواب الملوك لا تطرق بالأيدي ولا بالحجارة بل بنفس محتاج.

ولي زفرات لو ظهرنَ قتلنني لشوق لِيَيْلَاتِي^(١) التي قد تولّت

إذا قلت هذي زفرة اليوم قد مضت فمن لي بأخرى مثل تيك أظلّت

حلفت لهم بالله ما أم واحدٍ إذا ذكرته آخر الليل حنّت

وما وجد^(٢) أعرابية قد فَتَّ^(٣) بها صروف النوى^(٤) من حيث لم تك ظنت

تمنت أحاليب الرّعاء وخيمةً بنجدٍ فلم يقدر لها ما تمت

(١) لييلاتي: تصغير ليالي.

(٢) الوجد: المحبة.

(٣) فت: أضعف وأوهن.

(٤) صروف: التقلبات والغير، النوى: البعد والفراق.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

إذا ذكرت ماء العذيب^(١) وطيبه وبرد حصاه آخر الليل أنت
لها أنة وقت العشاء وأنة سُحيراً فلولا أنها لجنت
بأكثر مني لوعة غير أنني أجمجم^(٢) أحشائي على ما أجت^(٣)

* * * *

ألا يعتبر المقيم منكم بمن رحل؟ ألا يندم من يعلم عواقب الكسل؟
إه لغافل كلما جد الموت هزل، ولغافل كلما صعد العمر نزل.

أعد على فكرك إتلاف الأمم وقف على ما في القبور من رمم
ونادهم: أين القوي منكم القاهر، أم أين الضعيف المهتمم؟
تفاضلت أوصالهم فوق الثرى ثم تساوت تحته كل قدم
قبر البخيل والكريم واحد ما نفع البخل وما ضر الكرم
أما كفى الإنسان موت بعضه وهو المشيب المستطير في اللمم
أي خيلين أقاماً أبداً ما افترقا؟ وأي جبل ما انصرم؟
إن النجوم الدائرات أبداً تضحك من مبتسم إذا ابتسم

إخواني! صدقتم الأمل فكذبكم، وأطعتم الهوى فعذبكم.

إخواني! أبصاركم قوية، وبصائركم ضعيفة، ومن تراءى هواه توارى

(١) العذيب: واد في شمال مدينة الرسول ﷺ.

(٢) أجمجم: أخفي ولا أبدي وأرددها عن البوح والظهور في العلانية.

(٣) أجت: أخفت.



المذهِّشَاتُ

عنه عقله، سبحانه من ظهر لخلقه بخلقه^(١) غير أن عالم الحس لا يرونه.
 أما قلبك من نطفة إلى علقة، وأنت كالجماد، فلما نفخ فيك الروح
 بعث الزاد ينساق إليك من دم الأم، فتناولته باجتناب السُّرة، إذ لو طرق
 الحلقوم تلفت، فلما خرجت إلى فلاة الدنيا، رأيت إدواتي^(٢) الشديين
 معلقتين لشربك، وكانت عمور^(٣) الأسنان تكفي في اجتذاب المشروب،
 فكلما اعتصرته خرج مغربلاً لئلا يقع شرق، فلما قويت المعى وافترقت إلى
 غذاء فيه صلابة أنبت الأسنان لتقطع، والأضراس لتطحن
 ومن العجائب أنه أخرجت غيباً^(٤) لا تعلم شيئاً، فلو أخرجك عاقلاً
 لرأيت من أطمِّ المصائب تقلبك في الحرق والعصائب، وبثَّ القوى في
 باطنك، فقوة تطلب الغذاء، وثانية تطبخه وتهضمه، وثالثة تفرق بين

(١) التأمل والتفكير في النفس والآفاق مما يزيد الإيمان ويرسخ توحيد الربوبية، يقول
 الدكتور فاضل السامرائي: عرضت لي عوارض شُبه حتى شككت في وجود الله
 تعالى! وقرأت كتب الناس فلم تزدني إلا حيرة، حتى تأملت في نوع من البعوض إذا
 أرادت الأم أن تبيض ذهبته إلى مستنقع فغزلت من نفسها مثل غزل العنكبوت
 قارباً صغيراً فتضع فيه بيضها وتطلقه في الماء وتموت مباشرة، فتخرج تلك اليرقات
 وتبدأ مشوار حياتها فإذا أرادت أن تبيض فعلت كفعل أمها التي لم تلقها ولم ترها،
 فمن ألهمها وعلمها؟! إنه الله الواحد، فقرأت القرآن الكريم فخرجت منه إلى
 اليقين بري سبحانه وتعالى. بتصرف من الطريق إلى الإيمان، د. السامرائي.

(٢) إدواتي: جمع إداوة، إناء صغير يحمل فيه الماء.

(٣) عمور: جمع عمر وهو لحم اللثة.

(٤) غيباً، يقال غبي عنه أي جهله ولم يفطن إليه.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

صفوه وكدره، ورابعة تتولى قسمته، فلو بُعث إلى الخد ما يبعث إلى الفخذ صار بمقداره، وخامسة تدفع ثقله^(١).

أفيحسن بعد تفرقة النعم على العسكر أن يثبوا في المخالفة للمُنعم؟

ثم انظر إلى هذا الهواء الذي قد ملأ به الفضاء، كيف تتصب منه النفس إلى النفس؟ ثم هو للأصوات من حيث المعنى كالقرطاس، تُرقم فيه الحوائج، ثم ينمحي فيعود نقيًا، فأقوام يرقمون فيه الذكر والتسبيح، وآخرون يرقمون كل قبيح، وكم بين من يرقم تلاوة القرآن، وبين من يرقم أصوات العيدان؟!

ثم تأمل الأرض، كيف قدّها بساطًا، وأمسكها عن الاضطراب لتصحّ بها السكنى، ثم يُزلزها في وقتٍ ليفطن الساكن للقدرة، وجعل فيها نوع رخاوة لتقبل الحفر والزرع، ورفع جانبها السماء لينحدر الماء^(٢)، وفرّق المياه بين الجزائر ليرطب الهواء، وأودع المعادن كما تودع الحاجات في الخزائن.

ولما بثّ الطير صان عنها السنبل، لأنها قوتك بقشور صلبةٍ قائمات كالإبر، لئلا تستغفّ فتموت بَشْمًا^(٣)، فيفوت الحظان^(٤).

(١) الثقل: ما استقر تحت الشيء من كدره.

(٢) وفي هذا سبق ابن الجوزي رحمته الله نيوتن في قانون الجاذبية.

(٣) البشم: التخمة.

(٤) حظ الإنسان وحظ الطائر، كذلك حظ الإنسان من الحبوب ومن الطيور.



المُدْهَشَاتُ

ثم جاء بالشمس سراجًا ومنضجًا للثمر، تجري لتعمر الأماكن، ثم تغيب ليسكن الحيوان، ولما كانت الحوائج قد تعرض بالليل جعل القمر خَلْفًا، ولم يجعل طلوعه بالليل دائمًا، لئلا تنبسط الناس في أعمالهم كانبساطهم بالنهار، فيؤذي الحريص كَلَالُهُ^(١)، ولما قَدَّرَ غيبة القمر في بعض الليالي جعل أنوار الكواكب كشعل النار في أيدي المقتبسين.

ولما كانت حاجة الخلق إلى النار أنشأها، وجعلها كالمخزون، تُسْتَنْهَضُ وقت الحاجة، فُتْمَسَكُ بالمادة قدر مراد المُمْسِكِ.

ثم انظر إلى الطائر، لما كان يَحْتَلِسُ قُوَّتَهُ خوف اصطيداه، صَلَبَ منقارُه، لئلا ينقشر من الالتقاط، لأن زمان الانتهاب لا يحتمل المضغ، وجعل له حوصلةً يجمع فيها الحَبَّ، ثم ينقله إلى القانصة^(٢) في زمان الأمان، فإن كانت له أفراخٌ أسهمهم من الحاصل في الحوصلة قبل النقل.

فإن لم يكن له حَنَّةٌ على أفراخِهِ أُغْنُوا عنه باستقلالهم من حين انشقاق البيضة كالفراريج.

واعجبًا! كيف يُعصى من هذه نعمه، وكيف لا تموت النفس حُبًّا لمن هذه حِكْمُهُ، إن دنت همتك فخف من عقوبته، وإن علت فارغب في معاملته ومحبته، على قدر أهل العزم تأتي العزائم.

(١) كلالُه: تعبُه.

(٢) القانصة: الكيس الجلدي مما يلي الرقبة للطير، جمعها قوانص.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ليس كل الخيل للسباق، ولا كل الطيور تحمل الكتب، ومن الناس
من شُغله في الدنيا سوداء^(١)، ومنهم من لا يلهيه عن الجنة قصر، ولا
يسليه عن حبيبه نهر، قوته في الدنيا الذكر، وفي الآخرة النَّظْرُ.

أيها الغافل في إقامته عن نُقْلَتِهِ! الجاهل وقد ملأ بما يُملي بطن
صحيفته، ألك زادٌ لسفرك على طول مسافته؟

خف الله وانظر في صحيفتك التي حوت كلما قَدَّمْتَهُ من فعالكا
فقد خط فيها الكاتبان فأكثرُوا ولم يبق إلا أن يقولوا فذالكا
والله ما تدري إذا ما لقيتها أتوضع في يمناك أو في شمالكا
فلا تحسبن المرء يبقى مخلداً فما الناس إلا هالك فابك هالكا

يا من تُحصى عليه اللفظة والنظرة! تأهب فما تدري السير عِشَاءً أو
بُكْرَةً، واعتبر بالقرناء فالعبرة تبعثُ العبرة، وتزود لسفرة ما مثلها قط
سفرة، واقنع باليسير فالحساب غداً على الذرة.

إخواني! دنا الصباح فقولوا لمن رقد: أين الوجوه الصِّبَاح؟

قال عمر بن عبد العزيز لأبي حازم: عِظْنِي. فقال: اضطجع، ثم
اجعل الموت عند رأسك، ثم انظر ما تحب أن يكون فيك تلك الساعة
فجدِّ فيه الآن، وما تكره أن يكون فيك فتدعه الآن.

(١) أي جارية سوداء.



المذهشات

الحرب خصام قائم وأنت غلام نائم، يا مخنث العزم! أين أنت والطريق؟ سبيلٌ نصب فيه آدم، وأطال الصبر لأجله نوح، ورُمي في النار إبراهيم الخليل، وأُضجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بدراهم، وذهبت من البكاء عين يعقوب، ونُشر بالمنشار زكريا، وذبح الحصور يحيى، وُصنى بالبلاء أيوب، وبكى داود، وعالج المشقة محمد ﷺ.

فيا دارهم بالحزن إن مزارها قريب ولكن دون ذلك أهوال
أول قدم في الطريق بذل الروح، هذه الجادة، فأين السالك؟ هذا قميصُ يوسف، فأين يعقوب؟ هذا طور سيناء، فأين موسى؟

إخواني! اعتبروا بالذين قطنوا وخزنوا، وكيف ظعنوا وحزنوا، انظر إلى آثارهم تعلم أنهم قد غبنوا، لاحت لهم لذات الدنيا فاغثروا وفتنوا، فما انقشعت سحابُ المني حتى ماتوا ودُفنوا.

جمعوا فما أكلوا الذي جمعوا وبنوا مساكنهم فما سكنوا
فكأنهم كانوا بها ظعنًا لما استراحوا بها ساعة ظعنوا
قال شداد بن أوس: لو أن الميت نُشر، فأخبر أهل الدنيا بألم الموت، ما انتفعوا بعيش ولا التذوا بنوم.

وكان عمر بن عبد العزيز يجمع الفقهاء كل ليلة فيتذاكرون الموت والقيامة ثم يبكون، حتى كأن بين أيديهم جنازة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا هذا! الشيب أذان، والموت إقامة، ولست على طهارة، والعمر صلاة، والشيب تسليم.

يا من قد خيم حُبُّ الهوى في صحراء قلبه، اقلع الأطناب فقد ضُرب بوق الرحيل، أما تسمع صوت السوط في ظهور الإبل؟ يا سحائب الأجفان أمطري على رباع الذنوب، إنما أنت بين داعٍ ووداعٍ، فهل لماضي من الزمان ارتجاع.

وقل لنجد عندنا أن تودعا قفا ودعا نجدًا ومن حل بالحمى
عليك ولكن خلّ عينيك تدمعا فليست عُشَيَاتُ الحمى برواجع
وَجَعْتُ من الإصغاء ليتها وأخذعاً^(١) تَلَفْتُ نحو الحمى حتى وجدتني
على كبدي من خشية أن تصدّعاً وأذكر أيام الحمى ثم أنثني

ويحك! اغسل العثرة بعبرة، وادفع الحوبة بتوبة، ما دام في الوقت مهلة، وفي زمن السلامة فُسحة، قبل أن تموت وتفوت، وتعلو بعد الخيل على تابوت، قبل أن ترى السمع والبصر قد كَلَّا، وتقول: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِي﴾ فيقال: ﴿كَلَّا﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠] قبل أن يصير دمع الأسي من جفن أساً^(٢) ويُقال: هَلَّا كان هذا قبل هذا، هَلَّا.

(١) الليت: صفحة العنق، الأخدع: عرق في الرقبة، إذا قطعه الذابح لا يبقى معه حياة، ويُسمّى الودج، وهما ودجان، شريان ووريد.

(٢) أسا: من الإساءة وحذفت الهمزة.



المُدْهَشَاتُ

أَتَرَكُ مِنْ تُحِبُّ وَأَنْتِ جَارٌ وتطلبه إذا بعد المزار
وتبكي بعد نأيهم اشتياقاً وتسال في المنازل أين ساروا
تركت سؤالهم وهم حضورٌ وترجو أن تُخبرك الديار
فنفسك لم ولا تلم المطايا ومت كمدًا فليس لك اعتذار

يا من أجله يذوب ذوبان الثلج في الحرِّ، أينقش غيمُ العمر لا عن
هلال الهدى؟ أتؤثر الفاني المرذول على النفيس الباقي؟!

ما تخفى علامات الإدبار عليك، تفتش دارك فلا يرى سواك
للطهارة، يدك لا تُطهِّرُ للصلاة بل هي ملاعق للأكل، ليس في البيت
مصحف بل تقويم^(١)، أينفع وجود التقويم مع عدم التقويم؟

ما هذا الحب للدنيا والصَّبَابَة؟ وإنما يكفي منها صُبَابَة^(٢)، فقل
للنفس الحريصة: قد بعث الأخرى رخيصة!
يا من قد أخذ الهوى بأزمته^(٣) وأمسك الردى بلمَّته^(٤)، يا رهين

(١) يسميه بعضهم: الروز نامة، وهي التقاويم التي تحصي الأيام والفصول ومواقيت الصلاة ونحوها.

(٢) الصَّبَابَة: بقية الماء في الإناء.

(٣) أزمته: جمع زمام وهو مقود الدابة.

(٤) لمَّته: اللِّمَّة الشعر الذي يجاوز الأذنين، فإذا بلغ المنكبين فهي جُمَّة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ديون تعلقت في ذمته، هذا أو ان جدك إن كنت مُحَدًّا، هذا زمان استعدادك إن كنت مستعدًّا.

يا نفسُ قد عَنَّ المرادُ فخذي إن كنت يوماً تأخذين أو ذري
رُضْ مُهَرَّ النفسِ يتأت ركوبه، تلمَّحْ فجر الأجر يَهْنُ ظلام المشقة،
احذر حيَّة الفم فإنها بترء^(١) إذا خرجت من شفةِ غدرك لفظةً سفه، فلا
تُلحقها بمثلها تلقحها، ونسلُ الخصام مذموم، أوثق سَبْعَ غضبك بسلسلة
حلمك، فإنه إن أفلت أتلَف، متى قمت بحدَّة الغضب انطفأ مصباح
الحلم، بحر الهوى إذا ما مدَّ أغرق، وأخوف المنافذ من الغرق فتحة
البصر.

والمرء ما دام ذا عَيْنٍ يقلِّبها في أعين الغيد موقوف على الخطرِ
يسرُّ مقلته ما ضرَّ مهجته لا مرحباً بسرور عاد بالضرر
من أراد من العمَّال ان يعرف قدره عند السلطان فلينظر ماذا يولِّيه.

مصاييح القلوب الطاهرة في أصل الفطرة منيرة قبل الشرائع ﴿يَكَادُ
زَيْتًا يُضِيُّءُ﴾ [النور: ٣٥] وحَدَّ قُسُّ بن ساعدة وما رأى رسول الله ﷺ،
وكفر ابنُ أبيٍّ وقد صلى معه القبليتين!

مع الضَّبِّ ريِّ يكفيه ولا ماء، وكم من عطشان في اللجة!

(١) بترء: حية شديدة الخطر، تُسقط الحبل، وتذهب البصر.



المذهبات

سبق العلم بنبوة موسى، وإيمان آسية، فسيق تابوته إلى بيتها، فجاء طفل منفرد عن أم، إلى امرأة خالية من ولد «قرينان مرتعنا واحد».

دخل الرسول ﷺ إلى بيت يهودي يعود له: «أسلم» فنظر المريض إلى أبيه فقال: أجب أبا القاسم، فأسلم^(١). فكان ذلك قريباً من نسب «سلمان منا»^(٢) فصاحت السنة المخالفين: ما لمحمد ولنا؟ والقدر يقول: مريضنا عندكم (كيف انصرا في ولي في داركم شغل).

لما عمّ نور النبوة آفاق الهدى، رآه سلمان دون العم^(٣) قويت ظلمات الشرك بمكة، فتخبطت قريش في الضلال، فلاح مصباح الفلاح من سُجفِ دار خديجة، فإذا عمر على الباب، ولقد أنارت لإبليس شمس البيان يوم ﴿أُنْبِئْتُهُمْ بِأَسْمَاءِهِمْ﴾ [البقرة: ٣٣] غير أن النهار ليل عند الأعشى.

رجع الخفاش إلى عشه، فقال: أوقدوا المصباح فقد جنّ الليل، فقالوا: الآن طلعت الشمس، فقال: ارحموا من طلوع الشمس عنده ليل، فسبحان من أعطى ومنع، ولا يقال: لم صنع؟

سَلِّمُ التوفيق قريب المراقبي، وبئر الخذلان بلا قعر، ربما أدرك الوقفة

(١) وتماه: فخرج النبي ﷺ وهو يقول: «الحمد لله الذي أنقذه من النار» رواه البخاري من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) رواه الطبراني والحاكم بلفظ: «سلمان منا آل البيت» وفي سنده مقال.

(٣) أي أبو لهب.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

أهل مصر، وفات سكان نخلة^(١). لا بدّ والله من نفوذ القضاء فاجنح
للسلم.

كيف تُتقى نبال القدر والقلب بين أصبعين؟

كان إبليس كالبلدة العامرة، فوقعت فيها صاعقة الطرد، فهلك أهلها
﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً﴾ [النمل: ٥٢].

أُخِذَ كِسَاءَ تَرْهِيهِ^(٢) فجعل جلاً لكلب أهل الكهف، فأخذ المسكين
في عداوة آدم، فكم بالغ واجتهد! وأبى الله أن يقع في البئر إلا من حفر،
ويحك ما ذنب آدم؟! أنت الجاني على نفسك، ولكنه غيظ الأسير على
القد^(٣).

صرع عمر إبليس، فقال بلسان الحال: يا عمر أنا مقتول بلسان
الخذلان قبل لقاءك «إياك عني لا يكن بك ما بيا» يا عمر أنت الذي
كنت في زمان الخطّاب لا تعرف الباب، وأنا الذي كنت في الملائكة،
فوصل منشور ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣] فعزلني وولاك، فكن
على حذر من تحوّل الحال.

(١) نخلة: موضع بين مكة والطائف.

(٢) إشارة إلى تعبد إبليس مع الملائكة قبل الطرد، وغالب ما يروى في ذلك من
الإسرائيليات.

(٣) القد: السير الذي يُقيد به المحبوس.



المذهشات

فإن الحسام الصقيل الذي قُتلتُ به في يد القاتل
لما تمكنت معرفة عمر بتقليب القلوب، لعب القلق بقلبه، خوفاً من
قلبه (١) فبادر بطرق باب البريد: يا حذيفة! يا حذيفة! (٢) المحنة العظمى
ارتباط أمرك بمن لا يبالي بهلاكك، فكم قد أهلك قبلك مثلك، كم
مشارفٍ بسفينة عمله على شاطئ النجاة ضربها خرقُ الخذلان فغرقت!
وما بقي للسلامة إلا باعٌ أو ذراعٌ، أيُّ تصرّفٍ بقي لك في قلبك وهو بين
أصبعين؟!

* * * *

بليتَ وما تبلى ثيابُ صباكا
ألم ترَ أنَّ الشيبَ قد قامَ ناعياً
ولم تر يوماً مرّاً إلا كأنه
وربَّ أمانٍ للفتى نصبتُ له
أراك ما تنفكُ تهدي جنازةً
ستمضي ويبقى ما تراه كما ترى
ألا ليت شعري كيف أنت إذا القوي
تموت كما مات الذين نسيتهم
كفاك نذير الشيب فيك كفاكا
مقام الشباب الغض ثم نعاكا
بإهلاكه للهالكين عناكا
المنية فيما بينهن شراكا
ويوشك أن تهدي كذاك لذاكا
وينساک من خلفته هو ذاكا
وهت وإذا الكرب الشديد علاكا
وتُنسى ويهوى الحيُّ بعد هواكا

(١) قلبه: انقلابه.

(٢) حينما سأله: يا حذيفة! هل عدني رسول الله ﷺ من المنافقين؟



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

كأن خطوب الدهر لم تجر ساعة عليك إذا الخطب الجليل أتاك
تري الأرض كم فيها رهونٌ دفينَةٌ غَلَقْنَ فلم يُقبلَ لهن فكاكا
يا هذا! العمرُ عمرٌ قليل، وقد مضى أكثره بالتعليل، وأنت تعرض
البقية للتأويل، وقد آن أن يرحل النزيل.

وا عجباً لنفاسة نفس رُفعت بسجود الملك لها، كيف نزلت حتى
زاحت كلاب الشَّرِّه على مزابل الذل، هيهات! لن تفلح الأُسْدُ إذا أنفقت
عليها الميتات.

إن قلتُ: قم قال: رجلي ما تطاوعني أو قلتُ: خذ، قال: كَفِّي ماتواتيني
يا هذا! جسّدك كالناقة يحملُ راكب القلب، فلا تجعل القلب
مستخدماً في علف الراحلة.

يا عمر! كيف كانت حالك؟ قال: كنت مشغولاً بهِبَل، فسمعت
هتاف: ﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] فعرجت على المنادي فإذا أنا في
الجنة.

يا فضيل! من أنت؟ قال: أخذت من قطع الطريق^(١) فأخذت في
قطع الطريق.

(١) يشير إلى حاله قبل التوبة حين كان قاطع طريق، أما الثانية فهي حسن السير إلى الله تعالى.



المُدْهَشَاتُ

بالله يا ریح الصَّبَا مَرِّي على تلك الرُّبَا
وبلَّغِي رسَالَة بنصَّهَا أهْل قُبَا
واحرَبْنَا وهْل يُرَدُّ فائْتْنَا واحرَبْنَا

سار القوم ورجعت، ورحلوا وانقطعت، وذهبوا وبقيت، فإن لم تلحقهم شقيت.

سلام على تلك المعاهد إنها شريعة وردي أو مهبُّ شمالي
ليالي لم نحذر حزون قطيعة ولم نمش إلا في سهول وصال
فقد صرت أرضي من سواكن أرضها بخُلب^(١) برقي أو بطيف خيال

يا من كلما استقام عثر، يا من كلما تقرب أبعد، أستسلم مع التوبة، واستروح إلى البكاء.

وصلوا إلى عرفات ييغون الرضا وبقيت منقطعاً ببطن الوادي
يا هذا! من اجتهد وجدَّ وجدَّ، ليس من سهر كمن رقد، والفضائل
تحتاج إلى وثبة أسد.

خاطرٍ فإما عيشة حرة يُرغدها العزِّ وإما الحِمَام
زاحم على باب العلي واجتهد لا بد أن تدخل بين الزحام
من طلب الغاية خطأً على ظهر الهويني رام صعب المرام

(١) البرق الخلب: المطمَعُ المُخلف، وهو السحاب يومض برقه حتى يرحى مطره، ثم ينقشع بدون مطر، وكأنه من الخِلاية: وهي الخداع، وفي الحديث: «لا خِلاية».



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا مغرورًا بخضراء الدَّمَن! يا جامعًا مانعًا قل لي لِمَن؟ كيف ينال الفضائل مستريح البدن؟ سِلْعُ المعالي غاليات الثمن، وإن ساومتها فبزهده أويِسٍ وفقه الحسن.

يا هذا! أوقِدْ مصباح الفكر في بيت العلم تُلْحُ لك الأعلام، من سد ثغور الهوى بجند الجِدِّ ملاً عين راحته من نوم الطمأنينة، من دقَّ صراط ورَعِه عن الشبهات، عَرَض الصراط له يوم الجَوَاز. لله در أقوام تأملوا الوجود ففهموا المقصود، فالناس في رقادهم وهم في جمع زادهم، والخلائق في غرورهم، وعيونهم إلى قبورهم.

قال الإمام أحمد: لقد رأيت قومًا صالحين، رأيت عبد الله بن إدريس وعليه جُبَّةٌ من لُبود^(١) قد أتت عليها سنون، رأيت أبا داود الحفري وعليه جبة مخرقة قد خرج منها القطن وهو يصلي فيترنح من الجوع، ورأيت أيوب النجار وقد خرج من كل ما يملكه وكان في المسجد شاب مصفّر يقال له: العوني، يقوم من أول الليل إلى الصباح يبكي.

إذا ما الخيام البيض لاحت لدى مني فعرّج فإنّا بعدها بقليل
قال أبو عمران الجوني: أرثني أمي موضعًا من الدار قد انحفر،
فقلت: هذا موضع دموع أيبك.

وكان حسان بن أبي سنان يحضر مجلس مالك بن دينار، فيبكي حتى

(١) لُبود: جمع لُبْد وهو كساء من شعر أو صوف.



المذهشات

يبّل ما بين يديه، ولا يسمع له صوت.

أجاب دمعي وما الداعي سوى طللٍ دعاه فلبّاه قبل الركب والإبلِ
ظلمت بين أضحائي أكفكفه فظلاً يسفح بين العُذر والعَدلِ
وما صَبَابَةٌ مشتاق على أملٍ من اللقاء كمشتاق بلا أملِ

يا كثيف الطبع! أقميتُ أنت وهذه الصواعق حولك!؟

خليليّ قد عمّ الأسي وتقا سمت فنون البلى عشاق ليلي ودورها
وكنت إذا ما جئت ليلي تبرقتُ فقد رابني منها الغداة سفورها

احذر أن تكون أعمالك أعمى لك، وأفعالك كالأفعى لك.

لو كان لك باعثٌ من نفسك ما احتجت إلى محرك من خارج، هذا
الديك يصيح في أوقات معلومة من الليل لا تختلف وإن لم يكن في القرية
ديك غيره، وأنت تؤخر وظائف صلواتك، وتنقص من واجبات
عباداتك، فإن بكيت في المجلس فلبكاء الجماعة، فإذا خلوت خلوت من
محرك.

هيهات! من لم يكن له من نفسه واعظ لم تنفعه المواعظ، إذا لم تكن
للدجاجة همّة للحضن لم تنفع تغطيتها بمنخل الحاضن، تُصابِرُ الشقاء لما
تأمل من العواقب، والرعاء تكسر البيض قصداً.

الخصائص أوضاع، والسوابق خواص «هؤلاء في الجنة ولا أبالي،



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

وهؤلاء في النار ولا أبالي^(١)، المغناطيس يجذب الحديد بخاصية فيه، لما شُقَّ ختام نافجة^(٢) النبوة ملاً ريحها الأرض، فاستنشقتها أهل العافية، فوصل إلى خياشيم سلمان في فارس، وصهيب في الروم، وبلال في الحبشة، وكان ابن أبي مزكوماً فما نفعه قرب الدار.

كم من نفسٍ دخلت مجلس الذكر، وهي حاملٌ بجنين الإصرار، فلما استنشقت ريح المواعظ أسقطت.

يا صبيان التوبة! ارفقوا بمطايا أبدانكم فقد ألفت الترف ﴿وَلَا تُضَارُّوهُنَّ لِضَيِّقُوهُنَّ عَلَيْنَّ﴾ [الطلاق: ٦].

هَبَّ لَهَا مِنَ النَّسِيمِ رَائِدٌ	فَعَادَهَا مِنَ الْغَرَامِ عَائِدٌ
نَوَقَ نَفْيَ عَنْهَا الْحَمَى طِيبَ الْكُرَى	فَهِيَ كَمَا شَاءَ السَّرَى سَوَاهِدٌ ^(٣)
أَنْحَلَهَا تَحْتَ الدَّوُوبِ أَيْنُهَا	فَمَارَتِ الْأَنْسَاعُ ^(٤) وَالْقَلَائِدُ
فَلَا تَخَالَفَهَا إِذَا مَا التَّفْتَتِ	شَوْقًا إِلَى بَانَ الْحَمَى يَا قَائِدُ
وَقَلَّ لَهَا لَعَا ^(٥) إِذَا مَا عَثَرَتْ	فَهِيَ لِحْمَلٍ وَجَدَهَا تَكَابِدُ

(١) رواه أحمد.

(٢) النافجة: وعاء المسك في جسم الطيبي.

(٣) سواهده: جمع ساهدة: قلقة أركة.

(٤) الأنساع: جمع نسع، وهو سير عريض طويل تشد به الحقائق ونحوها، ومارت: تحركت وتدافعت.

(٥) لعا: من لع، وهي كلمة تقال للعائر مرة أو مرتين، ومعناها: أقالك الله من عثرتك.



المُدْهَشَاتُ

مذ حكم البين عليها لم تنزل تبكي عليها البيد والقدافد^(١)
يا صبيان التوبة! للنفس حظ وعليها حق ﴿فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ
الْمِيلِ﴾ [النساء: ١٢٩]، خذوا ما لها واستوفوا ما عليها ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ
الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الإسراء: ٣٥] فإن رأيتم منها فتورًا فاضربوها بسوط الهجر ﴿فَإِنَّ
أَطَعْنَاكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْنَ سَكِينًا﴾ [النساء: ٣٤] على أني أوصي صبيان
التوبة بالرفق، وبعيد أن يقرَّ خائفٌ أو يسمع العذل محبٌ.

يا صديقي عندي اليوم شغل فآله عني واشتغل يا صديقي
بيد إن تذكر لي حب قلبي فأعد ذكرهم لنا يا رفيقي

إخواني! البدار البدار، فما دار الدنيا بدار، إنما هي حلبة جريان
الأعمار.

ما دار دنيا للمقيم بدار وبها النفوس فريسة الأقدار
ما بين ليل عاكف ونهاره نفسان مرتشفان للأعمار
طول الحياة إذا مضى كقصيرها واليسر للإنسان كالإعسار
وتعاقب الملّوين^(٢) فينا نائرٌ بالكرّ ما نظّمنا من الأعمار

(١) القدافد: جمع فدفد وهي الصراء الواسعة.

(٢) الملّوين: الليل والنهار.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

تالله ما صح من يطلبه مرضه، ولا استقام غصنٌ يلويه كاسرُه، ولا طاب عيشُ الموتِ آخره، إن الطمع لعذاب، وحديث الأمل كذاب، وفي طريق الهوى عقاب^(١)، وآخر المعاصي عقاب، فلا يخذعك ضياء ضباب، ولا يُطمعك سرابُ شراب، فمجيء الدنيا على الحقيقة ذهاب، وعمارة الفاني إن فهمت خراب، وكلما نادى الأمل ﴿أَبْلَغُهُ مَأْمَتَهُ﴾ [التوبة: ٦] صاح الأجل ﴿فَضْرَبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤].

يا تائهاً في ظلمةِ ظلمه، يا موغلاً في مفازة تيهه، يا باحثاً عن مُديةِ حتفه، يا حافراً زُبية^(٢) هلكه، يا معمقاً مهوأة مصرعه، بئس ما اخترت لأحبِّ الأنفس إليك.

ويحك! تطلب الجادة ولست على الطريق، كم فغر الزمان بوعظة فمًا فما سمعت ﴿لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ [يس: ٧٠].

كيف تطيب الدنيا لمن لا يأمن الموتَ ساعةً، ولا يتمُّ له سرور يوم؟ إذا كان عمرك في إدبار، والموت في إقبال، فما أسرع الملتقى! لقد نُصبت لك أشراك الهلاك، والأنفاس أدقُّ الحبائل.

الأولياء في حَرَمِ التقوى ﴿وَيُنْخَظِفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

(١) عقاب: جمع عقبة، مرقى صعب في الجبال.

(٢) الزُبية: حفرة يحفرونها للأسد ليصيده.



المُدْهَشَاتُ

الدنيا مثل منام والعيش فيها كالأحلام.

قيل لنوح عليه السلام: كيف وجدت الدنيا؟ قال: كدارٍ ذات بايين، دخلت من باب وخرجت من باب.

فلما تفرقنا كأني ومالگًا لطول اجتماع لم نبت ليلة معاً

يا ثقیل النوم أما تنبهك المزعجات؟ الجنة فوقك تزخرف، والنار تحتك توقد، والقبر إلى جانبك يُحفر، وربما يكون الكفن قد غُزل، أيقظان أنت اليوم أم أنت نائم؟!

يا حاضرًا يرى التائبين وهو في عداد الغائبين، واقفٌ في الماء عطشان، ولكن ليس يُسقى، عاتب نفسك على هواها فقد وَهاها^(١) قل لها: ادرجي درج المدرج وقد لاحت منى، تلمح عواقب الهوى يهنُ عليك الترك، تفكر في حال يوسف لو كان زلّ من كان يكون؟ هل كانت إلا لذة لحظة وحسرة الأبد؟! عَبَرَتِ واللّهُ أَجْمَالُ^(٢) الصبر سليمة من مكس^(٣) وبقيت مديحةٌ ﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

يا هذا! احسب صبر يومك ساعة نومك، تحظ في غداة برغدك، البدار إلى الشهوات والندامة فرسا رهان، والتواني عن التوبة والخيبة

(١) وهاها: أضعفها.

(٢) أجمال: جمع قلة لجمّل.

(٣) المكس: ما يأخذ العشار ضريبة ممن يدخل البلد من التجار (الجمرك).



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

رضيعاً لبان^(١)، واعجباً! غرتك حبة فحّ فحصلت وما حوصّلت^(٢)،
اليومُ واطرباً للكأس، وغداً واحرباً للإفلاس، أه من حلاوة لقمٍ أورثت
مرارة نقم.

تأمل العاقبة لا يحصل إلا لناقِدٍ يصير، من تلمح إذا تلا ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ
إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] وعرف قدر مدح ﴿فَأَتَمَّهُنَّ﴾ علم أنه لم يُبق
في فيه شيئاً من مرارة البلى مرارة ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ﴾.

ألقي في النار فعرض له جبريل عليه السلام، وهو يهوي في الهواء،
فأراد أن ينظر هل للهوى فيه أثر؟ فقال: ألك حاجة؟ قال: أما إليك فلا،
فأقبل بمنشور ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧].

قالت لطيف خيالٍ زارها ومضى: بالله صِفُهُ ولا تُنقص ولا تزدِ
وقلت: قف عن ورود الماء لم يردِ
يا بردَ ذاك الذي قالت على كبدي
قالت صدقت، الوفا في الحب عادته

يا غادياً في غفلة ورائحاً إلى متى تستحسن القبائحا
وكم إلى: كم لا تخاف موقفاً يستنطق الله به الجوارحا

(١) اللبان: اللبن.

(٢) حوصل: ملاً بطنه، فحصلت: الحصل هو سفّ الفرس التراب من البقل فيجتمع
منه تراب في بطنه فيقتله، وهو من أدواء الخيل.



المذهشات

يا عجباً منك وأنت مبصرٌ كيف تجنبت الطريق الواضحا
 كيف تكون حين تقرا في غدٍ صحيفة قد حوت الفضائحا
 وكيف ترضى أن تكون خاسراً يوم يفوز من يكون رابحا

يا معدوماً في الأمس، فانيًا في الغد، عاجزًا في الحال! من أنت حتى
 تغتر بسلامتك؟ وتنسى حتفك؟ وأملك بين يديك، وأجلك خلفك،
 وكتابك قد حوى تفريطك.

أيها القاعد عن أعالي المعالي، سبق الأبطال والبطال ما يبالي.

فإلا تمت تحت السيوف مكرما تمّت وتقاسي الذل غير مكرم
 فثبّ واثقاً بالله وثبة ماج يرى الموت في الهيجا جنى النحل في الفم

ويحك! إنما يكون الجهاد بين الأمثال، ولذلك مُنع من قتل النساء
 والصبيان، فأَي قدر للدنيا حتى يحتاج قلبك إلى محاربة لها؟

لو علمت أن لذة قهر الهوى أطيب من نيله لما غلبك.
 من ذبح حنجرة الطمع بخنجر اليأس أعتق القلب من أسر الرق.
 من تدرع بدرع الصدق على بدن الصبر هزم عسكر الباطل.
 من قطع فضول الكلام بشفرة الصمت وجد عذوبة الراحة في
 القلب.

من ركب مركب الخوف مرّت به رخاء الهدى إلى أرجاء النجاة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ألا عزيمة عمرية، ألا هجرة سلمانية.

الجدُّ الجدُّ فالطريق طويلة، دار الناقة بذكر الدار، علَّها بصوت الحداة، فإذا لاح لها المنزل فشوقها يسوقها.

إخواني! انبعث الجوارح في العمل دليل على قوة العلم بالأجر، فإذا حصل تسليم النفوس في الجهاد إلى القتل كان النهاية في كمال اليقين، فإذا وقع الفرح بأسباب التلف دل على كمال المحبة، كما قال عبد الله بن جحش: «اللهم سلط علي غداً عدواً يبقر بطني ويجدع أنفي، فإذا لقيتكَ قلت: هذا فيك ومن أجلك».

وطعن حرام بن ملحان فنفذ فيه الرمح فقال: «فزت ورب الكعبة».

لما انزعجت الطبائع تذكروا قبيح الجناية، فمدوا أيدي التسليم للودائع، فخضبت الدماء محاسن وجوه طالما صبرت على برد الماء وقت الإسباع، وحصدت مناجل السيوف زروع رؤوس طالما أطرقت في الأسحار، وعادت خيولهم خلية عنهم، فوطئتهم بعد السناتحت السنابك، واقتسم لحومهم عُقبانُ السماء وسباع الأرض، فكم من رجلٍ رَجُلٍ طالما قامت فصلتٌ فصلت، وكم من يدٍ بالدعاء رُفعت وُقعت، وكم من بطنٍ حمل بالصيام ما شقَّ شقَّ، وكم من عينٍ كانت تعينُ الحزين بالفيض وقعت في منقار طائر!

هذا حديث الأجسام، فأما الأرواح ففي دار السلام، والله ما كانت إلا



المُدْهَشَاتُ

غفوةً حتى أعطاهم العفو عفوًا، وكأنكم بأجسادهم التي تفرقت قد تلقفت،
وبالقبور التي جمعتهم قد تشققت، وقد قاموا بلسان الحال ينادون: عن ربنا
حاربنا ولأجله قُتلنا، وكُلُّومهم يومئذ قد انفجرت فجرت، اللون لون الدم
والريحُ ريح المسك، فليعلم الأشهاد حينئذ أنهم الشهداء.

خَلَّ طرفي والبُكا إن كنتِ خِلِّي فالحمى أقفرَ من جارٍ وأهلٍ
ما وقوفي في محلٍّ ساكنٍ في فؤادي أهلهُ لا في المحلِّ
سل بقلبي عن خيامٍ في اللوى تاه قلبي في حماها ضلَّ عقلي

* * * *

عجبًا لراحل عن قليل، غافل عن زاد الرحيل، لا يعتبر بأخذ الجليل،
وإنما هو تأخير وتعجيل.

إن الليالي لا تبقى على حالٍ والناس ما بين آمالٍ وآجالٍ
كيف السرور بإقبالٍ وآخره إذا تأملته مقلوبٌ إقبالٍ^(١)

كأنكم بالمسير عن الربع قد أذف، وبالكثير من الدمع قد نذف،
وبالمقيم قد أبين مما ألفت، وبالكريم قد أهين لما تلف.

يا طالب الدنيا دنا فراقها تزويجها أسرع أم طلاقها

ودينٌ من يخطبها صداقها

(١) مقلوب إقبال: إدبار.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

إذا اعتكر الليل اعترك همُّ، طال الدُّجى على الأبدان، وقصّر على
القلوب.

شكونا إلى أحببنا طول ليلنا فقالوا لنا: ما أقصر الليل عندنا
لو رأيت رواحل الأبدان قد أنضأها طول السهر وأضناها، فلما هبت
نجدية السحر مدت أعناق الشوق فزال كلُّ كلال.

كَلِفْنَ بنجد كأن الرياض أخذن لنجد عليها يمينا
وأقسمن يحملن إلا نحيلا إليه ويُبلغن إلا حزيننا
ولما استمعن زفير المشوق ونوح الحمام تركز الحنينا
إذا جئتما بانه الواديين فأرخو النسوع وحلّوا الوضينا^(١)
فثمّ علائق من أجلها مُلاء الدجى والضحي قد طويّنا
وقد أنبأهم مياه الجفون بأن بقلبك داء دفيننا

دموع الخائفين يجبسها بالنهار مراقبة الخلق، فإذا جنّ الليل زال حاجز
الدموع ﴿فَسَأَلَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ [الرعد: ١٧].

أرواح الأسحار أقوات الأرواح، رقت فرقت.

يا غافل القلب! ما هذا الكلام لك، ليس على الخراب خراج، لا
يعرفُ البرّ إلا سائح، ولا البحر إلا سابح، ولا الزناد إلا قاذح.

(١) النسوع: جبل يشد به الرحل، الوضين: بطن عريض منسوج يكون للهودج.



المُدْهَشَاتُ

إخواني! تفكروا في ذنب أبيكم ونزوله بالزلزل، ويكفيك رَمَزٌ إِلَى آدَمَ
بأنك عبد في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ [طه: ١١٨] لأن
العبد ليس له إلا ما سدَّ الجوعة وستر العورة، فجاء إبليس يطعمه في
المُلْكِ، فلما خَرَجَ إِلَى الطَّمَعِ خَرَجَ.

نام في الجنة فانتبه، وقد خلقت له حواء، فقال: ما هذا؟ قيل: من يريد
النوم يُخلَقُ له ضجيج، كفى بالشوق مُسَهراً، فلما وقع في الزلل طار النوم.
متى شُقَّ جِيبُ الجُنْحِ بالبارقِ الوَمُضِ وهبَّتْ قبولٌ فالسلام على الغمضِ
بالأمس جبريل يسجد له، واليوم يُخرج ولسان حاله يستغيث:

حُدَاة العيس رفقًا بالأسير	ليغنم نظرةً قبل المسير
ويا بان الحمى هل فيك ظلُّ	فعند حشاي مزدحمُ الزفير
ويا ريح الشمال إليك سُؤلي	أجيبي: هل مررت على الغدير؟
وهل سحبت على شيخ ورندي	ذيولك يا مبلبله الضمير؟

كانت الجنة إقطاعنا، فحُلَّ بالإقطاع بجناية لقمه، فلما غسل آدمُ جَنَابَةَ
الجناية رُدَّ الإقطاع عليه، لولا لطف ﴿فَلَقَى﴾ [البقرة: ٣٧] لقتله الأسف.

يا من جرى عليه ما جرى على أبيه، اسلك طريقه من التوبة.

اكتب قصة الندم بمداد الدموع، وابعثها مع ريح الزفرات، لعل
الجواب يصلُ برفع الألم.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

كيف لا أبكي على عيش مضى بعث عمري بحقير الثمن
انتبه لنفسك يا من كلما تحرك تعرقل، فيك جوهرية السباق ولكن
تحتاج إلى راض، قلبك محبوس في سجن طبعك، مقيد بقيود جهلك، فإذا
ترنم حادٍ تنفسٍ مشتاقٍ إلى الوطن، فالبس لأمة عزمك، وسرِّ بجند
جِدك، لعلك تُخلصُ هذا المسلم من أيدي الفراعنة.

لك الحديث يا مُعرض، أنت المراد يا غافل، يا مُستلذًا برد العيش
تذكر حرقة الفرقة، يا من يُسلمه موكلان إلى موكلين، ما لانبساطك وجه،
إنما تُملي عليها رسالة إلى ربك، وما أراك تملُّ قُبْح ما تُملي.

كانوا يتراسلون بالمواعظ لتقع المساعدة على اليقظة، كصياح الحارس
بالحارس: يا نيامُ السَّحور.

يا نسيم الصبا ترنم على الدوح بصوت يشجي وإن طار لبِّي
من معيد أيامنا بلوى الجزع وهيهات أين منِّي صحبي

أين اللاهون بالمزاح زاحوا؟ أين شاربوا الراح راحوا؟ وبك يا صاح
صاحوا، لقد ندبوا في قبورهم على الوئى^(١) وناحوا.
يا أيها الواقف بالقبور بين أناس غيب حضور

(١) الوئى: التكاسل والتباطؤ.



المذهشات

قد سكنوا في حديث معمور بين الثرى وجندل الصخور
يتظرون صيحة النشور فلا تكُ عن حظك في غرور

أين أرباب المناصب؟ أبادهم الموت المناصب، أين المتجبر
الغاصب؟ أذله عذابٌ واصب^(١)، لُفَّت والله الأكفانُ كالعصائب على
تلك العصائب^(٢)، وحلَّت بهم آفات المصائب إذ حلَّ بلبَّاتهم^(٣) سهم
صائب، فيا من يأمن هذه النوائب، أحاضرُ أنت أم غائب؟!!

كم عاصٍ بات في ذنوبه، يتقلبُ على فراش عيوبه، بين مزمار ومزهرٍ،
ومسكر ومنكر، فجاءه الموت فجاءةً فأنساه ولده ونساءه، وجلب من
مساوئه ما ساءه، فنقل إلى اللحد ذميماً، ولقي من غبِّ المعاصي أمراً
عظيماً.

كم سالم صبَّحَهُ موْتُهُ وقائلٍ عهدي به البارحة
أمسى وأمست عنده قينُهُ فأصبحت تندبُهُ نائحة
من كانت الدنيا له بَرَّةً فإنها يوماً له ذابحة

واعجباً لمن رأى هلاك جنسه، ولم يتأهب لنفسه.

قال البازيُّ للديك: ليس على الأرض أقل وفاءً منك، أخذك أهلك

(١) الواصب: المتتابع المستمر.

(٢) العصائب الأولى: جمع عصابة وهي العمامة، والثانية هي الجماعة من الناس.

(٣) لبَّاتهم: جمع لُبَّة وهي موضع النحر من الصدر.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

بيضةً فحضنون وربوك، حتى إذا كبرت صرت لا يدنو منك أحد إلا طرت وصحت! وأنا أخذت وحشياً من الجبال فعلموني ثم أرسلوني فجئت بصيدي.

فقال له الديك: إنك لم تر بازيًا مشويًا في سفود، وكم رأيت في سفود من ديك؟

إخواني! الزهد في الدنيا زُبْدُ مَحْضِ مَحْضِ الفكر، حظ الحريص على الدنيا في الحضيض، والقنوع في أعلى الذرى.

يا موغلًا في طلب الدنيا! الحسابُ حبسٌ، فإن صحَّ لك الجوابُ تعوّقت بمقدار التصحيح، وإن لم يصحَّ فمطمورة^(١) جهنم.

ويحك! طالع دستور عملك ترَ كُلَّ فعلك عليك، من وقف على صراط التقوى وبيده ميزان المحاسبة، ومحكُّ الورع، يستعرض أعمال النفس، ويردُّ البهْرَجَ^(٢) إلى كير التوبة، سلم من رد المناقد يوم التقبيل.

ويحك! سلطان الشباب قد تولى، وأمير الضعف قد تولى، ومِعْوَلُ الكِبَرِ يعرقل حيطان دار الأجل، وحسبك داءً أن تصحَّ وتسقما.

كان ثابت البُناني يستوحشُ لفقد التعبد بعد موته، فيقول: «يارب إن كنت أذنت لأحدٍ أن يصلي في قبره فأذن لي».

(١) المطمورة: حفرة يطمر ويلقى فيها الطعام وغيره.

(٢) البهْرَج: المزيف المغشوش.



المُدْهَشَاتُ

وكان يزيد الرَّقَاشِي يقول في بكائه: يا يزيدُ من يبكي بعدك عنك؟ من
يترضى ربك لك؟

لما علم المحبون أن الموت يقطع التَّعبُّدات كرهوه لتدوم العبادة.
كانوا يحبون أماكن الذكر ومواطن الخلوة، والمؤمن أَلْوَفُّ للمعاهد.

العُزلة حميةُ البدن، والمناجاة قوت القلب، ومن أنس بمولاه
استوحش من سواه.

يا منتهى عبادتي وأنسي كُن لي إن لم أكن لنفسي
أَطْمَعَنِي في غِدِّ نجاتي حلمك عن سيئات أمسي
خُلق القلب طاهراً في الأصل، فلما خالطته شهوات الحس تكدر،
وفي العزلة يرسب الكدر.

الحيوان المميِّز على ثلاثة أقسام:

فالملائكة خلقت من صفاء لا كَدَر فيه.

والشياطين من كدر لا صفار فيه.

والبشريُّ مركَّبٌ من الضدِّين.

فالعجب أن تقوى عند التقوى.

تقدِّس الملائكة يدور على السنة لا تشتاق بالطبع إلى الفضول، سُبْحُ



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

تسيحهم عقود ما نظمها كلف التكليف، ثمراتُ زروعهم نشأت لا عن تعب، سقاها سيحُ العصمة، فكثرت في زكوات تعبدهم قدر الواجب ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥] كانت أقدامُ تعبدهم سليمة، فاستبطؤوا سيرَ زمني^(١) الهوى، فقيل: إذا رأيتم أهل البلاء، فسلوا الله العافية.

واعجباً! من منحدرٍ في سفنِ التعبِ يستبطئ مصاعداً في الجبال. إن للحرب رجالاً خلقوا.

ألهم أنين المذنبين، أو خلوف الصائمين، أو حُرقة المحبين!؟

لما عَبَّ^(٢) بحر الأمانة يوم ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ﴾ [الأحزاب: ٧٢] توقفت الملائكة على الساحل، ونهضت عزيمة الآدمي لسلوك الخطر، بل لأقدام المحب إقدام.

يغلبني شوقي فأطوي السرى ولم يزل ذو الشوق مغلوباً
لا نحتاج أن نناظر الملائكة بالأنبياء^(٣) بل نقول: هاتوا لنا مثل عمر،

(١) زمني: جمع زَمن، وهو المشلول المقعد.

(٢) عَبَّ البحر: ارتفع وجهه.

(٣) مسألة التفضيل بين الملائكة والبشر هي من مَلح العلم لا من متينه، وقد اختلف فيها أهل العلم ولهم فيها تفصيلات وتفريعات، فللملائكة سابقة العلم والعبادة، وللشيطان، وقد كُفينا البحث في ذلك، والأولى الاشتغال بما يعنيننا.



المُدْهَشَاتُ

كُلُّ الصَّحَابَةِ هَاجَرُوا سِرًّا، وَعَمْرٌ هَاجَرَ جَهَارًا، وَقَالَ لِلْمَشْرِكِينَ قَبْلَ خُرُوجِهِ: هَا أَنَا ذَا، عَلَى عِزْمِ الْهَجْرَةِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْقَانِي فَلْيَلْقِنِي فِي بَطْنِ هَذَا الْوَادِي، فَلَيْتَ رَجَالًا فِيكَ قَدْ نَذَرُوا دَمِي.

مُدُّ عِزْمِ عَمْرٍ عَلَى طَلَاقِ الْهَوَى، أَحَدًا أَهْلَهُ عَنِ زِينَةِ الدُّنْيَا.

وَعَزْمَةٌ بَعَثَتْهَا هَمَّةٌ زُحَلٌ مِنْ تَحْتِهَا بِمَكَانِ التَّرَابِ مَنْ زَحَلُ

لَمَّا وَلِيَ عَمْرٌ بِنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ خَيْرَ النِّسَاءِ، فَقَالَ: مَنْ شَاءَتْ فَلْتَقِمِ، وَمَنْ شَاءَتْ فَلْتَذْهَبِ، فَإِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرٌ شَغَلَنِي عَنْكُمْ.

لِلْعِزَائِمِ رِجَالٌ لَيْسُوا فِي ثِيَابِنَا، وَطَنُوا عَلَى الْمَوْتِ، فَحَصَلَتِ الْحَيَاةُ.

إِذَا مَا جَرَرْتُ الرَّمْحَ لَمْ يَثْنِي أَبٌ مُلْحٌ وَلَا أُمَّ تَصِيحُ وَرَائِي
وَشِيْعَنِي قَلْبٌ إِذَا مَا أَمْرُتُهُ أَطَاعَ بَعِزْمٍ لَا يَرُوعُ وَرَائِي

يَا خِزَانَةَ الْوَدَائِعِ! يَا وَعَاءَ الْبِدَائِعِ! يَا مَنْ غُذِيَ بِلَبَانِ الْبَرِّ، وَقُلَّبَ بِأَيْدِي الْأَيَادِي^(١)، يَا زَرْعًا تَهْمِي عَلَيْهِ سُحْبُ الْأَلْطَافِ، كُلُّ الْأَشْيَاءِ شَجَرَةٌ وَأَنْتِ الثَّمَرَةُ، وَصُورٌ وَأَنْتِ الْمَعْنَى، وَصَدْفٌ وَأَنْتِ الدُّرُّ.

وَيَحْكَ! لَوْ عَرَفْتَ قَدْرَ نَفْسِكَ مَا أَهْنَتْهَا بِالْمَعَاصِي، أَبْعَدَ اللَّهُ إِبْلِيسَ

لَأَنَّهُ لَمْ يَسْجُدْ لَكَ، فَالْعَجَبُ كَيْفَ صَالِحَتُهُ وَابْتَعَدَتْ عَنِ اللَّهِ!؟

يَا جَوْهَرَةً بِمُضِيْعَةٍ، يَا لُقْطَةً تُدَاسُ، كَمْ فِي السَّمَاوَاتِ مِنْ مَلِكٍ يَسْبَحُ

(١) الأيادي: النعم.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ما لهم مرتبة ﴿ نَتَجَافَى ﴾ [السجدة: ١٦] لا يعرفون طَعْمَ طعام، وما لهم مقام «ولخلوف»^(١) أنين المذنبين أوفى من تسييحهم، سبحان من اختارك، على الكُلِّ، وجادل عنك الملائكة قبل وجودك ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ ﴾ [البقرة: ٣٠] خلق سبعة أبحر واستقرض منك دمعة، له ملك السماوات والأرض واستقرض منك حبة.

لو كان في قلبك محبة، لبان أثرها في جسدك، «عجب ربُّنا من رجل ثار على وطائه ولحافه إلى صلاته»^(٢)، تلمح معنى (ثار)، ولم يقل (قام)، لأن القيام قد يقع بفتور، فأما الثوران فلا يكون إلا بالإسراع حذرًا من فائت.

إذا هزنا الشوق اضطربنا لهزه على شُعَبِ الرَّحْلِ اضطراب الأرقام
فمن صَبَوَاتٍ تستقيم بمائلٍ ومن أرمحياتٍ تهبُّ بنائمٍ
إخواني! من نافرته المحبة، نافرته النوم.

قال سفيان الثوري: بتُّ عند الحجاج بن الفرافصة إحدى عشرة ليلة، فما أكل وما شرب ولا نام.

يا طويل الأمل في قصير الأجل، يا كثير الزلل في قليل العمل، خلا

(١) من حديث الصيام: «ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك» متفق عليه.

(٢) رواه أحمد.



المذهشات

لك الزمان وما سددت الخلل، أفما عندك وجلٌ من هجوم الأجل؟!
 تجهز إلى الأحداث ويحك والرّمس جهازاً من التقوى لأطول من حبس
 فإنك ما تدري إذا كنت مصيباً بأحسن ما ترجو لعلك لا تُمسي
 يا معاشر الأصحاء! اغتنموا نعمتي السلامة والإمهال، واحذروا
 خديعتي المنى والآمال، قد جرّبتكم النفس وتبذيرها في بضاعة العمر،
 فانتبهوا لانتهاج الباقي ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ﴾ [النساء: ٥].
 الدنيا حلم، والموت يقظة، والحساب تفسير الأضغاث.

يا شاربين من منهل الهوى شرب الهيم^(١)، يا جاعلين نهار الهدى
 كالليل البهيم، يا مقيمين على الدّنس وليس فيهم مقيم، أتعمرون ربوع
 النّعم برُتوع النّعم؟ وتستبدلون بالقرآن محرّمات النّعم، وقد توطّنتم
 ناسين تُروح^(٢) النزوح، فلم تذكروا الممات حتى تروح الروح، تالله
 ليعودن المستوطنن في أهله غريباً، والمغتبط بفرحه مغيضاً كثيراً ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ
 بَعِيداً﴾ ٦ ﴿وَنَرْنَهُ قَرِيباً﴾ [المعارج: ٦، ٧].

يا ثقيل النوم، يا بطيء اليقظة، أما ينبّهك الأذان؟
 وإذا تكامل للفتى من عمره خمسون وهو إلى التقى لا يجنح

(١) الهيم: الإبل المهيومة التي تصاب بداء العطش فلا تروى مهما شربت.

(٢) تروح: جمع ترح وهو الألم.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

عكفت عليه المخزيات فماله متأخر عنها ولا متزحزح
 وإذا رأى الشيطان غرّة وجهه حيّ وقال: فديت من لا يفلح

إخواني! فتشوا أحمال الأعمال قبل الرحيل ﴿وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ
 لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨] يا مطلقى النواظر في محرم المنظور ﴿لَتَرَوُنَّ
 الْجَحِيمَ﴾ [التكاثر: ٦] لا يغرنكم إمهال العصاة ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية:
 ٢٥] يا من عاهد ربّه من يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] لا تحلن عقد
 العهد بأنامل الزلل، فما يليق بشرف قدرك خيانة.

ألا حبذا نجد وطيبُ ترابه وأرواحه إن كان نجدً على العهد
 ألا ليت شعري عن عوِرضتي قبا بطول الليالي هل تغيرتا بعدي
 وعن علويّات الرياح إذا جرت بريح الخزامى هل تهبُّ على نجد

المعرفة غرس في القلب، والتذكار ماء، ومتى جفّت المياه عن
 الغروس جفّت، شجراتٌ ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعراف: ١٧٢] تُسقى من مياه «هل
 من سائل»^(١).

العقل ما ينسى إنما الحس مغفل، سبب النسيان أمراض من التخليط.

(١) من حديث النزول الإلهي، رواه أحمد ومسلم.



المُدْهَشَاتُ

أيها القائم على سُوقِ الشَّهواتِ في سُوقِ الشُّبُهاتِ (١) ناسياً سَوَاقَ
المُلَمَّاتِ إلى ساقِي المِماءِ، إلى كَمِ من الخَطَأِ بالخطواتِ إلى الخَطِيئَاتِ، كَمِ
عَايِنَتِ حَيًّا فَارِقَ حَيًّا، وَكَفًّا كُفَّتَ بِالْكَفَاتِ (٢).

ما أَقْلَ عابِئارِنا بِالزَّمانِ وَأَشَدَّ اغْتِرارِنا بِالأمانِ
وَقَفاتٌ عَلى غَرورِ وَأَقْدامٍ عَلى مَزَلقِ مِنَ الحِداثِ
وَكَفاناً مُذَكِّراً بِالْمَنايا عِلْمُنا أَننا مِنَ الحِوانِ

لا يَغْرُنُّكَ صَفو العِيشِ فالرِسوبِ في أَسفلِ الكَأَسِ، مَن لَم يَسمعِ
كلامِ الصامِتِ، وَلَم يَسمعِ عِبارَةَ الجامِدِ (٣) فليسِ بَظَنِّ.

قالَ أَحْمَدُ بنُ أَبِي الحِوارِيِّ: رَأيتُ شابًّا قَدِ انْحَدَرَ عَنِ مَقبَرَةٍ، فَقلْتُ:
مَن أَيْنَ؟ فَقالَ: مَن هَذِهِ القافِلَةُ النازِلَةُ. قلْتُ: وَإِلَى أَيْنَ؟ قالَ: أَتَزوِّدُ
لأَحقِّها. قلْتُ: فَأَيُّ شَيْءٍ قَلتَ وَقالوا؟ قالَ: قَلتُ: متى تَرحلونَ؟ فَقالوا:
حَتى تَقْدُمونَ.

وَكمِ مَن عِبرَةٍ أَصَبَحَتِ فِيها يَلينُ لَها الحَديدُ وَأنتِ قاسِ
إِلَى كَمِ وَالْمَعادُ إِلى قَريبِ تُذَكِّرُ بِالْمَعادِ وَأنتِ ناسِ

- (١) سَوقِ الأوَلَى: جَمعِ ساقِ، والثانِيَةِ: مَكانِ البِيعِ والشِراءِ.
(٢) كَفَّتْ: وَقَعَتِ، الكِفَاتِ: المَوضِعُ الَّذِي يُكفَّتُ فِيهِ، أَي يَضَمُّ، وَهُوَ إِشارةٌ إِلى القَبْرِ.
(٣) الصامِتِ: الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، الجامِدِ: الحَدِ الفاصِلِ بَينِ الأَرْضِينِ أو الدَّارينِ، إِشارةٌ
إِلَى القَبْرِ وَعالمِ البَرزَخِ لِأنَّهُ الحَدِ الفاصِلِ بَينِ الدُّنيا والآخِرَةِ.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا صبيان التوبة! قد عرفتم شرور أعطان الهوى، فرحلتم طالبين
ريف التقى، فحشوا مطايا الجد ﴿وَلَا يَلْنَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَآمَضُوا حَيْثُ
تُؤْمَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٥] كلما شرف المطلوب طالت طريقه.

إنها خلقت الداران لأجلك، أما الدنيا فلتتزود، وأما الأخرى
فالتتوطن، أفتراك تعرف مكانة ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] أو قيمة ﴿يُحِبُّهُمْ﴾
[المائدة: ٥٤]، يا هذا! ينبغي أن تكون همتك على قدرك، ولك قدر عظيم لو
عرفته.

إذا صعدت الملائكة عن مجلس الذكر، قال الحق: «أين كنتم،
فيقولون: عند عبادك يسبحونك ويمجدونك، فيقول: ما الذي طلبوا
ومما استعاذوا...»^(١).

يا من كان في رفقة ﴿تُتَجَافَى﴾ [السجدة: ١٦] فصار اليوم في حزب
أهل النوم.

يا هذا! لا تجزع من ذنب جرى، فربَّ زلّةٍ أورثت تقويماً، «لو لم
تذنبوا...»^(٢).

من لم يذق مرارة الفراق لم يدر ما حلاوة التلاقي

(١) متفق على أصله.

(٢) رواه أحمد.



المذهشات

ما لم يقع سهم في مقتل فالعلاج سهل، انحناء القوس ركوع لا اعوجاج، كانت محبة آدم للحبيب أصلية، وتعبد إبليس تكلفاً، والعرق نزاع ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ [الكهف: ٥٠] وإنما يُعالج الرَّمْدُ لا الأكمة^(١).

تأملوا خسة همّة إبليس إذ رضي بعد القرب من السدة بالتقاط السمع ﴿إِلَّا مَنْ أَسْرَقَ السَّمْعَ﴾ [الحجر: ١٨] إنه ليهجم على ساحة الصدر فيأخذ في حديث الوسوسة فيصيح به حُرَّاس الإيمان من شرفات قصر الذكر فيرجع بقلب الخناس.

فضائل بني آدم خفيت على الملائكة ﴿أُنْبِئْتَهُمْ﴾ [البقرة: ٣٣] فكيف يعرفها إبليس؟!

صعد منا إلى السماء إدريس وعيسى، وجال في مجاهم محمد ﷺ، ونزل منهم هاروت وماروت، وتدبر عندنا إبليس، لو علم المتديراً ما قد خبيء له من البلايا ما سأل الإنظار؟

كُلَّمَا غَلَبَ صَاحِبَ مَعْصِيَةٍ، وَجَلَسَ يَنْقُضُ فِي تَقْوَاهُ، صَدَرَتْ عَنِ التَّائِبِ نُشَابَةٌ نَدَمَ، فَوَقَعَتْ فِي صَدْرِ إِبْلِيسِ.

أعظم ما على إبليس مجالس الذكر، ما يُعقد مجلس إلا ويقلق لما يرى

(١) الأكمة: من وُلد أعمى.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

من النفع.

ما علم أن الجنة إقطاعنا، وإنما أخرجنا عنها مسافرين، كُتِبُ ديارنا
تصل إلينا، ورسائلنا تصل إليهم، ويا قرب اللقاء إن رحمتنا الله.
كان فتحُ بن شخرف يقول: قد طال شوقي إليك، فعجل قدمي
عليك.

تُمدُّ بالآذان والمناخِرِ حاجر أنى لها بحاجر (١)
أرضُ بها السائغ من ربيعها وشوقها المكنون في الضمائر
سارت يمينًا والغرامُ شامةً يا سرِّها يا ابن الحُدادةِ يَاسِرُ بها

فخذ للسيد أهبتَهُ وبادر وجود جمع رحلك للذهاب
فقد جد الرحيل وأنت ممَّن يسيرُ على مقدّمة الركاب
يا مغمورًا بالنعمة معدوم الشكر، كلما لطف الله بك قابلته بالمخالفة!
إنه لا عجب، من ترك الشكر إنفاقُ النعمة في مخالفة المنعم، هو العجب!
أيها الضالُّ في بادية الهوى، احذر من بئرِ بوار، وليس في كل وقت،
تتفقُ سيارة.

آن الرحيل وما في مزادتك قطرة ماء، ولا في مزود عملك قبضة زاد،

(١) حاجر: ما يمسك الماء من شفة الوادي، وهو منزل من منازل الحاج في البادية.



المذهشات

وقد أحلت ناقتك على ما تلقى من العشب، والجدبُ عامٌ في العام،
ويحك! عش ولا تغتر، ليت شعري إلى ماذا يؤول الأمر؟

أه من تأوّه حينئذٍ لا ينفع، ومن عيون صارت كالعيون مما تدمع.

نُقِلَتْ إلى غير مسكن، وسفر من غير تزوّد، وقدمٌ إلى بلدٍ ربح بلا
بضاعة.

يا لساعة الموتِ ما أشدها، تتمنى أن لو لم تكن عندها، وأعظم المحن
ما يكون بعدها.

ولم أنس موقفنا للوداع	وقد حان مما أحبّ الرحيلُ
ولم تبق لي دمة في الشؤون ^(١)	إلا غدت فوق خدي تسيلُ
فقال نصيحٌ من القوم لي	وقد كاد يأتي عليّ الغليلُ
تأنّ بدمعك لا تُفنيه	فبين يديك بكاء طويلُ

تقسّم الصالحون عند الموت، فمنهم من صابر هجير الخوف، حتى
قضى نحبّه كعمر، كان يقول عند الرحيل: الويل لعمر إن لم يُغفر له.

ومنهم من أقلقه عطش الحذر فيرده بقاء الرجاء كبلال، كانت زوجته
تقول: واحرباه، وهويتهف: واطرباه، غداً نلقى الأحبة محمداً وحزبه. علم
بلالٌ أن الإمام لا ينسى المؤذن، فمزج كرب الموت براحة الرجاء في
اللقاء.

(١) الشؤون: جمع شأن وهو مجرى الدمع في العين.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

بَشَّرَهَا دَلِيلَهَا وَقَالَ: غَدًا تَرِينَ الطَّلْحَ وَالْجِبَالَ
 قَالَ سَلِيمَانَ التِّيمِيَّ لِابْنِهِ عِنْدَ الْمَوْتِ: اقْرَأْ عَلَيَّ أَحَادِيثَ الرَّحْصِ،
 لِأَلْقَى اللَّهَ وَأَنَا حَسَنُ الظَّنِّ بِهِ.

إلى متى تُتعب الرواحل؟ لا بد من مناخ.

رَفَقًا بِهَا يَا أَيُّهَا الزَّاجِرُ قَدْ لَاحَ سَلْعٌ وَدَنَا جَاجِرُ
 فَخَلَّهَا تَخْلَعُ أَرْسَانَهَا عَلَى الرَّبِيِّ لَا رَاعَهَا ذَاعِرُ
 وَاذْكُرْ أَحَادِيثَ لِيَالِي مَنْى لَا عُدِمَ الْمَذْكُورَ وَالذَّاكِرُ

يا من أيام عمره في الحياة معدودة، وجسمه بعد مماته مع دودة!

رَأَيْتَكَ فِي النِّقْصَانِ مُذْأَنْتَ فِي الْمَهْدِ تُقَرِّبُكَ السَّاعَاتُ مِنْ سَاعَةِ اللَّحْدِ
 سَتَضْحَكُ سِنَّ بَعْدَ عَيْنٍ تَعَصَّرَتْ عَلَيْكَ، وَإِنْ قَالَتْ: بَكَيْتُ مِنَ الْوَجْدِ
 أَتَطْمَحُ أَنْ يَشْجَى لِفَقْدِكَ فَاقْدُ لَعَلَّ سُرُورَ الْفَاقِدِينَ مَعَ الْفَقْدِ

مركب الحياة تجري في بحر البدن برُخاء الأنفاس، ولا بد من عاصف
 قاصف تفككه وتغرق الركب.

حَكْمُ الْمَنِيَةِ فِي الْبَرِيَةِ جَارٌ مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بَدَارٌ قَرَارٌ
 جُبِلَتْ عَلَى كَدْرٍ وَأَنْتَ تَرِيدُهَا صَفْوًا مِنَ الْأَقْدَاءِ وَالْأَكْدَارِ
 فَاقْضُوا مَا رَبَّكُمْ عَجَالًا إِنَّمَا أَعْمَارُكُمْ سَفَرٌ مِنَ الْأَسْفَارِ



المذهشات

أعجبُ خلائق الخلائق؛ محسنٌ في ليل شبابه، فلما لاح الفجر فَجَرَ.

بادر بالتوبة من هفواتك قبل فواتك، فالمنايا بالنفوس فواتك.

يا هذا! عقلك يحثك على التوبة وهواك يمنع، والحرب بينهما، فلو

جهزت جيش العزم فرّ العدو، تنوي قيام الليل فتنام، تسمع الموعدة فلا

تبكي، ثم تقول: ما السبب؟ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]

عصيت النهار فنمت بالليل، أكلت الحرام فأظلم القلب، فلما فُتِحَ بابُ
الوصول للمقبولين طُردت.

ويحك! فكّر القلب في المباحات يحدث له ظلمة، فكيف في تدبير

الحرام؟

كان مسروق يصلي حتى تتورم قدماه، فتقعد امرأته تبكي مما تراه

يصنعُ بنفسه.

يا هذا! أول الطريق سهل، ثم يأتي الحزن^(١).

في البداءة إنفاقُ البدن، وفي التوسط إنفاقُ النفس، فإذا نزل ضيف

المحبة تناول القلب فأملق المنفق.

(١) الحزن: ما غلظ من الأرض.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

إخواني قد كَفَتِ الكِفَاتُ^(١) في العبر، وَوَعَظَ من عَبَرَ من عَبَرَ^(٢)،
وقد فهم الفَطِنُ الأمر وَخَبَرَ، وما عند الغافل من هذا خبر.

يا أيها الناس أين أولكم أما أتاكم للذاهبين خبر
اعتبروا فالْمَقْدُمُونَ خلوا وكلهم للمؤخرين عبر
كادت شخوصٌ في الأرض باليةً تنطق حقًا إذا المقال غدر
بالأمس كنا من الأنام فأما اليوم في تربنا فنحن مدر

ابك على نفسك قبل أن يُبكي عليك، وتفكر في سهم قد صوب
إليك، وإذا رأيت جنازة فاحسبها أنت، وإذا عاينت قبرًا فتوهمه قبرك،
وعُدَّ باقي الحياة ربحًا.

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذرافِ الدموع السوافك
فقال: أتبكي كل قبر رأيتُهُ لقبرِ ثوى بين اللوى والدكادك
فقلت له: إن الشجا يبعثُ الشَّجا فدعني فهذا كله قبر مالك

وقوع الذنب على القلب كوقوع الدهن على الثوب، إن لم تُعَجَّل
غسله وإلا انبسط ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَيُبَطِّئَنَّ﴾ [النساء: ٧٢].

اليوم عهدكم فأين الموعد هيهات ليس ليوم عهدكم غد

(١) الكفات: الموضع الذي يُضم فيه الشيء ويقبض، ومنه قولهم للمنازل: كفات
الأحياء، وللقبور: كفات الأموات.

(٢) عَبَرَ: مرَّ، عَبَرَ: بقي.



المذهشات

ما دامت نفسك عند التوبيخ تنكسر، وعينك وقت العتاب تدمع،
ففي قلبك بعد حياة.

أيها التائبون بألستهم، ولا يدرون ما تحت نطقهم، لا يحكم بإقراركم
﴿حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [النساء: ٤٣].

التوبة الصادقة تقلع آثار الذنوب، ما ضرب بسيف العزيمة قط إلا
قطاً (١).

يا معاشر التائبين من أقامكم وأقعدنا، من قربكم وأبعدنا؟ ﴿إِنْ نَحْنُ
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [إبراهيم: ١١].

يا من زمانه الذي يمضي عليه: عليه، يا طويل الأمل وهو يرى الموتى
بعينه، يا من ذنبه أوجب أن لا يلتفت إليه، قد مزجت لك كأس كربة،
ولا بُدَّ والله من تلك الشربة، يا منقولاً بعد الأنس إلى دار غربة، يا طين
تربة وهو يطلب في الدنيا رتبة، أما يستدل على نار العقاب بدخانه؟

كان الحسن شديد الحزن، طويل البكاء، سُئل عن حاله فقال: أخاف
أن يطرحني في النار ولا يبالي.

يا من سيّب قلبه في مراعي الهوى، وألقى حبله على الغارب، ستعلم

(١) قط الأولى: ظرف لما مضى من الزمان، الثانية: انقطع.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

من يطول نشدانه للضلال.

أكثر فساد القلب من تخليط العين، ما دام باب العين موثقاً بالغض
فالقلب سليم من آفة، فإذا فُتح الباب طار طائره وربما لم يعد.

رأى بارقاً من نحو نجد فراعته فبات يسيحُ الدمع وجداً على نجد
هل الأعصرُ اللاتي مضيّن يُعدن لي كما كُنَّ لي، أم لا سبيل إلى الردِّ

يا متصرفين في إطلاق الأبصار، جاء توقيع العزل ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ
يَغْضُوا مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] إطلاق البصر ينقش في القلب صورة
المنظور، والقلب كعبة، وما يرضى المعبود بمزاحمة الأصنام.

إذا لاحت للتائب نظرةٌ لا تحلّ، فامتدت عينُ الهوى، فزلزلت أرض
التقى، ونهض معمارُ الإيمان ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾
[النحل: ١٥].

إخواني! تفكروا في الذين رحلوا، أين نزلوا؟ وتذكروا أن القوم
نُوقِشوا وسُئِلوا، واعلموا أنكم كما تُعذّلون عُذّلوا، ولقد ردّوا بعد الفوات
لو قبّلوا.

سألت الدار تُخبرني عن الأحاب ما فعلوا
فقال لي: أناخ القوم أياماً وقد رحلوا



المُدْهَشَاتُ

فقلت: فأين أطلبهم؟ وأي منازل نزلوا؟
فقلت: بالقبور وقد لقوا والله ما عملوا؟
أناسٌ غرهم أملٌ فبادرهم به الأجلُ
وأُثِّبَتْ في صحائفهم قبيح الفعل والزللُ
فلا يستعتبون ولا لهم ملجأ ولا حيلُ
ندامى في قبورهم وما يُغني وقد حَصَلوا

ذهبت أعماركم في طلاب الشهوة، والموت قد دنا، فما هذه السهوة،
والقلوب غافلة، فالام القسوة؟

يا من يروح ويغدو في طلب الأرباح، ويحك اربح نفسك.

من رأى بعين فكره معاوَلَ النقض في هدم المنزل ناح على السكان؟

الفرص تمر من السحاب، والتواني من أخلاق الخوالم.

من استوطأ مركب العجز عثر به.

تزوّج التواني البطالة فولد بينهما الخسران.

كان عمر وعائشة يسردان الصوم، وختم أبو بكر بن عياش في زاوية
بيته ثمانية عشر ألف ختمة، وكان عمير بن هانئ يسبح كل يوم مئة ألف
تسيحة، وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يحضر ويصفر، وكان ابن
أدهم كأنه سفود من العبادة، وكانت رابعة كأنها شنبال، ومات
حسان بن أبي سنان فكان على المغسل كالحيط، وكان محمد بن النضر لو



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

كُشِطَ جميع لحمه لم يبلغ رطلاً.

جزى الله المسير إليك خيراً وإن ترك المطايا كالمزاد

يا من أيامه تَعِظُهُ حِينَ تَبْنِيهِ وتَنْقِضُهُ، يا من صحته تُرَضُّه، وسلامته تُحْرِضُهُ (١)، يقرض عمره فيفنيه ومن يقرضه.

الدهر خطيبٌ كافٍ، والفكر طيبٌ شافٍ.

كم قُطِعَ زرعٌ قبل التمام، فما ظنُّ المُسْتَحْصَدِ (٢)؟

يا مقدمين على الحرام! أنتم بعين من حرم.

ينبغي لمن ألبس ثوب العافية أن لا يُدنسه بوسخ الزلل.

كُلُّ صافٍ من الدنيا مقرون بكدر، حتى أنه في الغيث عيث (٣)، أتريد

أن لا ينعكس لك غرض؟ فما هذا موضعه، الهباتُ ذاهبات، والليل مناهبات، الدنيا قنطرة، واستيطان القناطر بَلَّةٌ.

هل نَجِدُ إلا منزلَ مفارقٍ ووطنٌ في غيره يُقضى الوطرُ

الهمُّ فيها أكثر من الفرح، والسرور أقل من الحزن ﴿وَإِنَّ أَلَدَارَ

(١) تحرضه: تهلكه.

(٢) المُسْتَحْصَدُ: الذي حان وقت حصاده.

(٣) عيث: فساد.



المُدْهَشَاتُ

الْآخِرَةَ لِهِيَ الْحَيَوَانُ ﴿ [العنكبوت: ٦٤].

ويحك! إن الإنسان يشدُّ في إصبعه خيطاً يتذكر به حاجته، وهل في جسدك عِرْقٌ أو شعرة إلا وهي تذكر بالخالق؟ فما وجه هذا النسيان البارد؟!

لا بد في سلوك الطريق من مصابرة رفيق، البلاء له خُلُقٌ صعب، فاصبر على مداراته، البلياء ضيوف فأحسن قِراها، لترحل عنك إلى بلد الجزاء مادحة لا قادحة، من حَكَّ بأظفار شكواه جلدَ عيشه أدمى دينه، البلاء ظلمة غبش، ويا سرعة طلوع الفجر.

يا من غلبته نفسه، وبطش بعقله حسه، استدرك صُبابَةَ اليقظة، وصح في سمع قلبك بموعظة:

واعصي الهوى فالهوى ما زال فتانا	يا نفس توبي فإن الموت قد حانا
قسراً وتُلْحِقُ أحرانا بأولانا	أما ترين المنايا كيف تلقطنا
نرى بمصرعه آثار موتانا	في كل يوم لنا ميّتٌ نشيعه
خلفي وأخرج من دنياي عُريانا	يا نفس مالي وللأموال أتركها
ننسى بغفلتنا من ليس ينسانا	ما بالناس نتعامى عن مصائنا
كأن زاجرنا بالحرص أغرانا	نزداد حرصاً وهذا الدهر يزجرنا
ورافلاً في ثياب الغي نشوانا	يا راكضاً في ميادين الهوى مرحاً



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

مضى الزمان وولّى العمرُ في لعبٍ يكفيك ما قد مضى قد كان ما كانا
يا هذا! ووجه ناقتك إلى بادية الزيارة، فإن لها بنسيم نجدٍ معرفة، قفها
على الجادة، وقد هب لها نسيم الشيخ من الحجاز، إن أعوزك في الطريق
ماءً فتمّم مزادتك بالبكاء.

سهر العيون لغير وجهك ضائعٌ وبكاؤهنّ لغيرك ربي باطلٌ
إذا خلا الفكر باليقين ثارت عجاجة الدمع.

يا هذا! عاتب نفسك على تفريطها، ثم حاسبها على تخليطها، حدّثها
بما بين يديها وأخبرها، أشر عليها بمصلحتها ودبرها.

استعدّي للموت يا نفسُ واسعي لنجاةٍ فالحازمُ المستعدُّ
يا هذا! أخلُ بنفسك في بيت الفكر، واعد لها في الهوى، فإن لم تلنْ
فاخرج بها إلى عسكر المقابر، فإن لم ترعو فاضربها بسوط الجوع.

يا هذا! العزلةُ تجمعُ الهمَّ، والمخالطةُ نهابة، الهوى مرضعٌ كثير
التخليط، فهذا قلبك الطفلُ كثير المرض، عجل بقطامه وقد صحّ.

العزلة والقناعة والصبر والعفة والتواضع عقاير النجاة، يبلغن
بمستعملهنّ مرتبة الغنى، والحرص والشره والغضب والعجب والكبر
كلُّهم مجانين في مارستان العقل، وهو القيمُّ عليهم، فلتحذر الغفلة عنهم،



المُدْهَشَاتُ

فإنه إن أفلت مجنون حلّ الباقين.

يا هذا! حِصْنُ السلامة العزلة، أقلّ ما في الخروج منه من الأذى
مصادمةُ الهواءِ المختلِفِ المهابِّ في بادية الشهوات، وقد أعقبتهُ جُنُوبُ
المجانبةِ للصوابِ فصار وباءً، وإياك أن تتعرض للهواءِ الوبيءِ مغترّاً
بصحة مزاجك، فإنك إن سلمت من فضول الفتن لم تأمن من زُكْمَةٍ،
ومتى تمكّنت زُكْمَةُ الهمة لم تشمّ الفضائل.

لما انقشع غيمُ الغفلة عن عيون أهل اليقين، لاح لهم هلالُ الهدى في
صحراء اليقظة، فبيّتوا نية الصوم عن الهوى.

دخل محمد بن كعب القرظي على عمر بن عبد العزيز وقد غيّرهُ
الزهدُ فأنكره، فقال: يا ابن كعب! فكيف لو رأيتني بعد ثلاثة أيام في
قبري!؟

تكاد تنكرهم عين الخبير بهم لولا تردّد أنفاسٍ وأرواح
إخواني! من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.

وكم ناحلٍ بين تلك الخيام تحسبه بعض أطناها
قيل لأبي بكر النهشلي وهو في الموت - وكان صائماً -: اشرب قليلاً من
الماء، فقال: حتى تغرب الشمس.

واشوقاه إلى تلك الأشباح، سلام الله على تلك الأرواح.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا هذا! إن أردت لحاق السادة فخلّ مُحَالَّةً الوسادة، واجعل جلدتك
بُردتك، أكحل عينيك بالسهر والدمع، وضع على قروح الجوع مرهم
الصبر، وسُح في بوادي التقي، فإن وصلت إلى دوائك تناولته من يدِ
﴿مُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]، وإن مُتَّ بدائك فمقابر الشهداء ﴿فِي مَقْعَدِ
صَدِّقٍ﴾ [القمر: ٥٥].

يا مشغولاً بتلفيق ماله عن تحقيق أعماله، من خَطَرَ ذِكْرُ الرحيل بباله،
قنع بالبلغ ولم يباله.
لا بد والله من العبور إلى منزل القبور، تسفي عليك الصِّبَا والدُّبُور.
ويحك! إن الدنيا تغرّ، ولا بد لك منها، فخذ قدر الحاجة على حذر،
أما ترى الطائر كيف يختلس قوته؟
أما عرفت أدب الشرع في تناول المطعم، ثلث طعاماً، وثلث شراباً،
وثلث نفساً.

طريق المتقين تفتقر إلى رواحل، وإبل عزائمكم كُلُّها كَال، إنها يصلح
للملك قلبٌ فارغٌ من سواه.
وقلبك خانٌ كلَّ يومٍ وليلةٍ يفارقه ركبٌ وينزله ركبٌ
في كل يوم ترهن قلبك على ثمن شهوة، فيستعمله المرتهن، فقد



المذهشات

أَخْلَقَ (١). أنت توقد نار التوبة في مجلس الموعظة في الحلفاء (٢) فإذا أردت منها قبسًا بعد خروجك لم تَجِدْ، تبكي ساعة الحضور على الخيانة والمسروق في جيبيك.

يا مظهرًا من الخير ما ليس فيه! لا تبع ما ليس عندك، كم هناك عن نظرة وتعلم أنه بالحضرة، أفلا تُراقب الناظر برد الناظر؟ وكأنك لا تعرف أن الحاضر حاضر.

واعجبًا لك! تُعَدُّ التسييح بمسبحة، فهلاً جعلت لعدّ المعاصي أخرى؟ يا من يختار الظلام على الضوء! الذباب أعلى همّة منك، متى أظلم البيت خرج الذباب إلى الضوء، أما ترى الطفل في القمّاط (٣) يُناغي المصباح؟

يا هذا! إن كنت محبًا، فحبيبيك معك في كل حال، حتى عند الموت، وفي بطن اللحد.

اللهم أجزِ القلوب من جور النفوس، يا سلطان القلب، نشكو إليك
النازلة.

(١) أخلق: بلي.

(٢) نبات في الماء.

(٣) لفافة الطفل الرضيع، المهاد.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

إخواني! احذروا الدنيا، فإنها أسحر من هاروت وماروت، ذانك يفرقان بين المرء وزوجه، وهذه تفرق بين العبد وربّه، وكيف لا؟ وهي التي سحرت سَحْرَةَ بَابِلَ، إن أقبلت شغلت، وأن أدبرت قتلت.

نظرت فأقصدت الفؤاد بسهمها ثم انثت عنه فكاد يهيمُ
ويلاه إن نظرت وإن هي أعرضت وَقَعُ السهام ونزعُهن أليمُ
إنها إن صفت حلالاً كدّرت الدين، فكيف إذا أخذت من حرام؟ إنَّ
لحم الذبيحة ثقيلٌ على المعاء، فكيف إذا كانت ميتة؟!

الظُّلْمَةُ فِي الظُّلْمَةِ يمشون في جمع الحطام، يصبحون ويمسون على
فراش الآثام ﴿فَمَا رِيحَتْ بِمِحْرَتِهِمْ﴾ [البقرة: ١٦].

من نبت جسمه على الحرام، فمكاسبه كبريتٌ به يوقد، أتراهم نسوا
طيّ الليالي سالف الجبارين، وما بلغوا معشار ما آتيناهم؟ فما هذا الاغترار
﴿وَقَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمُثَلَّتُ﴾ [الرعد: ٦]؟ فهم ينتظرون من لهم إذا
طلبوا العود ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤] كم بكت في تَنَعُّمِ
الظالم عينُ أرملة، واحترقت كبد يتيم ﴿وَلَتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [ص: ٨٨].

ما ابيض لون الرغيف حتى اسود وجه الضعيف، ما عبَل (١) جسم
الظالم حتى ذوت دوابُّ ذات قوّة.

(١) عبَل: امتلأ.



المذهشات

لا تحتقر دعاء مظلوم، فشرُّ قلبه محمولٌ بعجيج صوته إلى سقف بيتك، نبأله مصيبٌ، ونبأه غريب، ومرماه هدف «لأنصرنك»^(١). وقد رأيتُ وفي الأيام تجريب.

كم من دارٍ دارت بنعم النعم، دارت عليها دوائر النقم ﴿فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤].

كان عمر يخاف مع العدل، يا من يأمن مع العدول.
أحسن شعائر الشرائع العدل، الظلم ظلمةٌ في نهار الولاية، وجدبٌ يرمى لحوم الرعيّة، والعدل صوتٌ في صور الحياة، يُبعث به موتى الجور.
أيها الظالم! تذكر عند جورك عدل الحاكم، تفكر حين تصرفك في سرفك.

عجباً لك! تدعي الظرف^(٢) وتأخذ المظروف والظرف، كلا، ستعلم أيها الغريم قدر غرمك إذا التقى كلُّ ذي دينٍ وماطله.
يا أرباب الدول! لا تعربدوا في سُكر القدرة، فصاحب الشرطة بالمرصاد.

وأنت أيها المظلوم! تذكر من أين أتيت؟ فإنك لا تلقى كدرًا إلا من

(١) من حديث «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام، يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين» رواه أحمد والترمذي.

(٢) الظرف: الكياسة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

طريق جناية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

كان لبَّان^(١) يخلط اللبن بالماء، فجاء سيل فذهب بالغنم، فجعل يبكي ويقول: اجتمعت تلك القطرات فصارت سيلاً، ولسانُ الجزاء يناديه «يداك أوكتا وفوك نفخ»^(٢).

اذكر غفلتك عن الأمر والأمر وقت الكسب، ولا تنسَ أطراح التقوى عند معاملة الخلق، فإذا انقضَّ غاصبٌ فلا تستطرف ذلك، فأنت الجاني أولاً والبادي أظلم.

يا من عمره يذوب ولا يتوب، إذا خرقت ثوب دينك بالزلل فارقه بالاستغفار، فإن رفاء^(٣) الندم صناع^(٤) في جمع المتمزق.

يا هذا! إنما يضلُّ المسافرُ في سفره يوماً أو يومين، ثم يقعُ على الجادة، واعجباً من تيه خمسين سنة!

لو صَفَتْ لك فكرةٌ، كان لك في كل شيء عبرة، كل المخلوقات بين مخوفٍ ومشوقٍ، حر الصيف يذكر حرَّ جهنم، وبردُ الشتاء محذّر من

(١) لبَّان: صاحب اللبن.

(٢) مثل يضرب لمن يجني على نفسه بالهلاك.

(٣) رفاء: خياط.

(٤) صناع: ماهر.



المذهشات

زمهريرها، والخريف ينبّه على جني ثمار الأعمار، والربيع يحثّ على طلب العيش الصافي.

إذا استحرّ الحرّ نَقَحَمَ القمْلُ، فطلّق القطرُ الأرض، فلبست سربال الجذب، وَأَحَدَتْ في حِفْشٍ^(١) الذل، فلما طالت أيام الأئمة أوماً إلى المراجعة الرجوع، فبكت قطراته لطول الهجر، فضحك لكثرة بكائه روض الأرض، فبنى البناء ربيع^(٢) الربيع، فنهضت ماشطة القدرة، لإخراج بنات النبات من مخدر الثرى، ففرشت الحُلل بمصبّغات الحُلل، فسمع الورد هتاف العنديل، وحين الدواليب، ففتح فاه مشتاقاً إلى مشروب، فإذا الطلُّ صَبُوح^(٣) فقال: ألا منادم؟ فأبت الأزهار مشاركة من لا يقيم، فأجابه بعد اليأس الياسمين، فقال: أنا نظيرك في قصر العمر، والمؤانسة في المجانسة، فأشر أنت إلى المذنب باحمرار الخجل، حتى أشير أنا إلى الخائف باصفرار الوجَل.

فرأى البلبُل طيب الاجتماع فغنى، فرنّت ديار اللهو، فدخل الناطور^(٤) والصيد، فاقتطف الناطور رأس الورد، واختطف الصيد البلبَل الوغد^(٥)، فدبّح في الحال العصفور، وحبس الورد في قوارير

(١) الحفش: البيت الحقير القريب السقف بالأرض.

(٢) الربيع: النماء والزيادة.

(٣) الصبوح: ما شرب غدوة، والغبوق: ما شرب مساءً.

(٤) الناطور: حارس البستان.

(٥) الوغد: ضعيف الجسم.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

الزور^(١)، وقيل للياسمين. لم اغتررت بالزور؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون: ١١٥] فلما بكى الورد بكاء نادم على الاغترار، صلح للمتطيين، فأين المذنبين أحب من زجل المسبحين.
فانتبه يا مخدوع، فالعمرُ الوردُ، والزجاجةُ القبرُ، والنفسُ البلبُلُ، والقفصُ اللحدُ.

* * * *

سقط ريبُ البين بين الفريقين
وكلُّ يُقْضَى ساعة بعد ساعة
وما العيش إلا يومٌ موتٍ له غدٌ
وما الحشر إلا كالصباح إذا انجلى
أيا عجبًا مني ومن طول غفلتي
لكل اجتماعٍ فرقةٌ من يد البين
تُحَاتله عن نفسه ساعة الحين
وما الموت إلا رقدةٌ بين يومين
يقوم له اليقظان من رقدة العين
أؤمِّل أن أبقى وأنى ومن أين؟
إخواني! المستقرّ يزول، والمقيمُ منقول، والأحوال تحوّل، والعتابُ
على الفاني يطول.

الطريق الهادية واسعة الفجاج، والدليل ظاهر لا يحتاج إلى احتجاج،
وأما بحر الهوى فما يفارقه ارتجاج، ما فيه ماءٌ للشرب بل كُلهُ أجاج.
إخواني! قد بشر الرّشاش فاثبتوا، وقد سال الوادي.

(١) الزور: مجلس اللهو والغناء.



المُدْهَشَاتُ

زَمْنَا كَانَ وَكُنَّا جِيرَةً يَا أَعَادَ اللَّهِ ذَاكَ الزَّمْنَا
إِذَا خَرَجْتَ الْقُلُوبَ بِالتَّوْبَةِ مِنْ حَبْسِ الْهَوَى إِلَى بِيْدَاءِ الْإِنَابَةِ، جَرَتْ
خِيُولُ الدَّمْعِ فِي حَلْبَاتِ الْوَجْدِ كَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا.

إِذَا اسْتَقَامَ زَرْعُ الْفِكْرِ، قَامَتِ الْعِبْرَاتُ تَسْقِي، وَنَهَضَتِ الزَّفْرَاتُ
تَحْصُدُ، وَدَارَتِ رِحَا النِّشِيحِ تَطْحَنُ، وَاضْطَرَمَتِ نَارُ الْقَلْقُ تُنْضِجُ،
فَحَصَلَتِ لِلْقَلْبِ بُلَّةٌ يَتَّقَوْنَ بِهَا فِي سَفَرِ الْحُبِّ.

يَا مَنْ لَمْ يَصْبِرْ عَنِ الْهَوَى صَبْرَ يُوسُفَ، تَعَيَّنَ عَلَيْكَ حَزْنُ يَعْقُوبَ، فَإِنْ
لَمْ تُطَقْ، فَذِلَّةُ إِخْوَتِهِ يَوْمَ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٨٨].

خَوْفُ السَّابِقَةِ وَحَذْرُ الْخَاتِمَةِ قَلَقَ قُلُوبَ الْعَارِفِينَ، وَزَادَهُمْ إِزْعَاجًا
﴿يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] كَلَّمَا دَخَلُوا سِكَّةً مِنْ سِكَكَ
السُّكُونِ شَرَعَ بِهِمُ الْجَزَعُ فِي شَارِعٍ مِنْ شَوَارِعِ الْقَلْقِ.

فِي كُلِّ اللَّيْلِ تَهَبُّ الرِّيَاحُ، وَلَكِنْ لِنَسِيمِ السَّحْرِ خَاصِيَّةً، مَا أَظْنَهُ تَعَطَّرَ
إِلَّا بِأَنْفَاسِ الْمُسْتَغْفِرِينَ، لِنَفْسِ الْمَحَبِّ عَطْرِيَّةً تَنْمُّ عَلَى قَدْرِ طَيْبِهِ.

وَإِنِّي لِأَغْرَى بِالنَّسِيمِ إِذَا سَرَى وَتُعْجِبْنِي بِالْأَبْرَقِينَ رُبُوعُ
وَيَحْنِي عَلَى الشُّوقِ نَجْدِي مُزْنَهُ وَبَرْقُ بِأَطْرَافِ الْحِجَازِ لَمُوعُ
وَلَا أَعْرِفُ الْأَشْجَانَ حَتَّى تَشُوقَنِي حَمَائِمُ وَرَقٍ فِي الدِّيَارِ سُجُوعُ

الْمَحْبَبُونَ عَلَى شَوَاطِئِ أَنْهَارِ الدَّمْعِ نُزُولَ، فَلَوْ سَرَّتْ عَنْ هَوَاكَ



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

خطوات لاحت لك الخيام.

وصلوا إلى مولاهم وبقينا وتنعموا برضائه وشقينا
ذهبت شيبتنا وضاع زماننا ودنت منيتنا فممن ينجيننا؟
فتجمعوا أهل القطيعة والجفا نبكي شهوراً قد مضت وسنيناً

كان بعض السلف يقول: اللهم إن منعتني ثواب الصالحين، فلا
تحرمني أجر المصاب على مصيئته.

وكان آخر يقول: إن لم ترض عني فاعف عني.

كان القومُ زينة الدنيا، فمذُ سُلِبوا تسَلَّبت (١) خلت والله الديار وباد
القوم، وارتحل أربابُ السهر وبقي أهلُ النوم، واستُبدل آكلي الشهوات
بأهل الصوم.

أشدُّ الناس حُبًّا لحديث الحجاز من سافر.

فكانت بالفرات لنا ليالٍ سرقناهنَّ من بعض الزمانِ
يا هذا! كنت تستطيب رياح الأسحار، وما تغير المهبِّ، ولكن دخل
فصلُ برد الفتور ولم تحترز، فأصابك زكام الكسل.

كنت في الرعيل الأول، فما الذي ردَّك إلى السَّاقة (٢)؟

(١) تسلبت: لبست السلاب، وهو ثوب الحداد، لأن المرأة تمتنع فيه عن لبس أثواب
الزينة، أما تخصيصه بالأسود فلا أصل له في الشريعة.

(٢) الساقة: المؤخرة.



المذَهِّشَاتُ

قِفْ الْآنَ عَلَى جَادَةِ التَّأْسِفِ، وَالزَّمِ الْبِكَاءَ عَلَى التَّخَلْفِ، فَأَحَقُّ
النَّاسِ بِالْأَسَى مِنْ خُصَّصَ بِالتَّعْوِيقِ دُونَ الرُّفْقَاءِ.

يا صاحبيّ أطيلاً في مؤانستي وعلّاني بخلاّني وأشواقي
وحدثاني حديث الخيف إن له روحاً لقلبي وتسهيلاً لأخلاقي
واضيعة العمر لا الماضي انتفعت به ولا حصلت على علم من الباقي
بلى علمت وقد أيقنت يا أسفاً أنّي لكلّ الذي قدّمته لاقٍ

إخواني! من عامل الدنيا خسر، ومن حمل في صفّ طلبها كُسر، ألا
وإن خلاص مُحبّها منها عسر، وكل عاشقها قد قُبر وأسر ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى
نَجْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وكيف أُشيدُ في يومي بناءً وأعلمُ أن في غدٍ عنه ارتحالي
فلا تنصّبْ خيامك في محلّ فإن القاطنين على احتمال^(١)

يا معاشر العلماء! أتقنعون من الصفات بالأسماء؟ أتؤثرون الأرض
على السماء؟ أفي السكر أنتم أم في الإغماء؟ أترضون بالثريا الثرى؟
أتغمضون العيون من غير كرى؟ أتنامون فمن يحمّد السرى؟ أتحلّون
عقد ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى﴾ [التوبة: ١١١] إنكم لأحقّ بالحزن فيما أرى.

(١) احتمال: رحيل.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا قومنا هذي الفوائد جمّةٌ فتخيروا قبل الندامة وانتقوا
 إن مسّكم ظمأ يقول نذيركم لا ذنب لي قد قلت للقوم استقوا
 يا معاشر العلماء! قد كتبتهم ودرستم، ثم إن طلبكم العلم فلستم في
 بيت العمل، ثم لو ناقشكم الإخلاص لأفستم.

شجرة الإخلاص أصلها ثابتٌ، لا يضرّها زعزع (١) ﴿أَيْنَ
 شُرَكَاءِكَ﴾ [النحل: ٢٧] وأما شجرة الرياء فاجتثت عند نسمة
 ﴿وَقَفُوهُمْ﴾ [الصفات: ٢٤].

كم متشبه بالمخلصين في تخشّعه ولباسه، وأفواه القلوب تنفر من
 طعم مذاقه، وأسفى ما أكثر الزور! أما الخيام فإنها كخيامهم، ليس كل
 مستدير يكون هلالاً، لا لا، وما كل من أومى إلى العزّ ناله، ودون العلى
 ضرب يدمي النواصيا.

فما كل دار أقفرت دائرة الحمى ولا كل بيضاء الترائب زينب
 ريح المخلصين عطرية القبول، والمرائي سموميّ النسيم، نفاق
 المنافقين صيرّ المسجد ﴿لَا نَقُرُّ فِيهِ أَبَدًا﴾ [التوبة: ١٠٨] وإخلاص
 المخلصين رفع قدر «رب أشعث أغبر» (٢).

(١) زعزع: الريح الشديدة.

(٢) رواه مسلم.



المذهشات

أيها المرائي قلب من ترائيه بيد من تعصيه، المرائي على باب السلطان يدعي أنه خاصٌ وهو غريب، ذهب أهل التحقيق وبقيت بُنيّات الطريق، خلت البقاع من الأحباب، وتبدّلت العمارةُ بالخراب، يا ديار الأحباب عندك خبرٌ! المخلص يبهرجُ على الخلق بستر الحال، وببهرجته يصحُّ النقد.

كان في ثوب أيوب السختياني بعض الطول لستر الحال، وكان إذا وعظ فرَّق، فرَّق قلبه من الرياء فيمسحُ وجهه ويقول: ما أشد الزكام.
أحبس دمعي فيندُّ شاردًا كأنني أحبسُ عبدًا آبقًا
ومن محاشاة الرقيب خلّتني يوم الرحيل في الهوى منافقًا
كان أيوبٌ يحبي الليل كله، فإذا كان عند الصباح رفع صوته كأنه قام تلك الساعة.

وكان إبراهيم النخعي إذا قرأ في المصحف فدخل داخل غطّاه.
وكان ابن أبي ليلى إذا دخل داخل وهو يصلي اضطجع على فراشه.
أفدي ظباء فلاةٍ ما عرفن بها مضغ الكلام ولا صبغ الحواجبِ
مرض إبراهيم بن أدهم فجعل عند رأسه ما يأكله الأصحاء، لئلا يتشبه بالشاكين، هذه والله بهرجة أصحُّ من نقدك.

اشتهر ابن أدهم ببلد فقيل: هو في البستان الفلاني، فدخل الناس يطوفون ويقولون: أين إبراهيم بن أدهم؟ فجعل يطوف معهم ويقول:



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

أين إبراهيم بن أدهم.

قُرئ على أحمد بن حنبل في مرضه أن طاووسًا كان يكره الأنين، فما
أنَّ حتى مات.

تفيض نفوسٌ بأوصابها وتكتمُ عوَادَها ما بها
وما أنصفتُ مهجةً تشتكي هواها إلى غير أحبائها
رحل والله أولئك السادة، وبقي قرناء الرياء والوسادة، أسمعُ
أصواتًا بلا أنيس، وأرى خشوعًا أصله من إبليس.
ذمَّ المنازل بعد منزلة اللوى والعيش بعد أولئك الأقسام

يا من قد أرخى له في الطَّوَل (١) وأمهله له بمدَّ الأجل، اخل بنفسك
وعاتبها، وخذ على يدها وحاسبها، لعلها تأخذُ عدتها قبل أن تستوفي
مدتها.

وجدتُ أيامي بي رواحلاً متى ينحط عنها الراحلُ
وكل شيء زاجرٌ محدثٌ يفهم ما قال الحصيف العاقل
إخواني بادروا قبل العوائق، واستدركوا، فما كل طالبٍ لاحق،
واشكروا نعمة من ستركم مع الذنوب، واعرفوا فضله فقد أعطاكم كل

(١) الطَّوَل: الحبل يُرخی للذابة لترعى، وهنا كناية عن فسحة الأجل.



المذهشات

مطلوب، ما أعمَّ جوده لجميع خلقه! وما أكثر تقصيرهم في حقه، عمَّ إحسانه الآدميُّ والبهائم، والمستيقظ والنائم، والجاهل والعالم، والمتقي والظالم.

من تأمل حسن لطفه لخليقته حيّره الدهش، خلق الجنين في بطن الأم فجعل وجهه إلى ظهرها لئلا يجري الطعام عليه، وسيق قوته في مِصران الشَّرَّة، وليس العجب تغذيه لأنه متصل بحيي، إنما العجب خلق الفرخ في البيضة المنفصلة، فقد هياً له زاد الطريق قبل سير الإيجاد.

كلما طالت ساق الحيوان طال عنقه، ليتمكن تناول طعمه من الأرض. هذا طائر الماء لا يقف إلا في ضحضاح، فيتأمل ما يدبُّ في الماء، فإذا رأى ما يريد خطأ خطوات على مهل فيتناول، ولو كان قصير القوائم، كان حين يخطو يضرب الماء ببطنه فيهرب الصيد.

خلق الطير ذا جؤجؤ^(١) مخدد، لتجري سفينة طيرانه في بحر الهواء، وجعل في جناحه وذنبه ريشاتٍ طوالياً لينهض للطيران، ولما كان يختلس قوته خوفاً من اصطياده، جعل منقاره صلباً لئلا ينسحج^(٢) ولم يُخلق له أسنان لأن زمان الانتهاب لا يحتمل المضغ، وجعلت له حوصلة كالمخلاة، فينقل إليها ما يسلب، ثم ينقله إلى القانصة في زمان الأمن، فإن

(١) الجؤجؤ: الصدر.

(٢) ينسحج: يتقشر.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

كانت له فراخ أسهمهم قبل النقل.

هذه العنكبوت تبني بيتها بصناعة يعجز عنها المهندس، إنها تطلب زاوية فتجعل فيها خيطاً، وتصلُ بين طرفيها بخيط آخر، وتُلقي اللعاب على الجانبين، فإذا أحكمت المعاهد وربّت السُدى أخذت في اللُحمة^(١) فيظن الظان أنها نسجت عبثاً، كلا، إنها تصنع شبكة صيد قوتها، فإذا أتمت النسيج انزوت إلى زاوية ترصدُ رُصدَ الصائد، فإذا وقع صيد قامت تجني ثمار كسبها فتغتذي به، فإذا أعجزها الصيدُ طلبت زاوية ووصلت بين طرفيها بخيط، ثم علّقت نفسها بخيط آخر، وتنكست في الهواء تنتظر ذبابة تمر بها، فإذا دنت منها دبّت إليها واستعانت على قتلها بلف الخيط على رجلها، أفترهاها علّمت هذه الصنعة بنفسها؟ أو قرأتها على بعض جنسها؟ أفلا يُنظر إلى حكمة من علّمها وتثقيف من ألهمها؟

فإن لم يكن لك نظرٌ يعجبك منها فتعجب من عدم تعجبك، فإن

أعجب القدر ﴿وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجنّة: ٢٣].

القلب جوهر في معدن البدن، فاكشف عنه بمعول المجاهدة، ولا تطينهُ بتراب الغفلة، رميت صخرة الهوى على ينبوع الفطنة فاحتبس الماء، انقب تحتها إن لم تُطق رفعها لعل الجُرْف ينهار.

إلهي! ما أكثر المعرضين عنك والمعرضين عليك! وما أقلّ

(١) السُدى: ما يمدّ طولاً في النسيج، واللُحمة: ما يُنسج عرضاً.



المذهشات

المتعرضين إليك.

يا روح القلوب! أين طُلابُك؟ يا نور السماوات! أين أحبابُك؟ يا رب الأرباب! أين عبَّادُك؟ يا مسبب الأسباب! أين قُصَّادُك؟ من الذي عامَلَك بلبه فلم يربح؟ من الذي جاء بكربه فلم يفرح؟ أيُّ صدرٍ صَدَرَ عن بابك ولم يُشرح؟ من ذا الذي لاذ بجناحك فاشتهدى أن يبرح؟ يا مُعرضاً عنه إلى من أعرضت؟ يا مشغولاً بغيره بمن تعوَّضت؟
مُتٌ على من غبتَ عنه أسفاً لست عنه بمصيب خَلَفاً

بعث قيام الليل بفضل لقمة! شربت كأس النعاس ففاتتك الرفقة،
ضُرب على أذنك لا في مرافقة أهل الكهف، تناولت خمر الرُقَّاد فجُعل
حَدُّك الحبس عن لحاق المتجهدين.

والله لو بعث لحظةً من خلوةٍ بالله بعمر نوح في ملك قارون لغُبت،
لا بل بما في الجنان كلها ما ربحت، ومن ذاق عَرَف.

إخواني! اسمعوا بخرمة الوفاء، فما كُلُّ وقت يطلع سُهَيْل^(١) فإذا
خرجتم من الموعدة، فاقصدوا المكان الخالي، وَضَعُوا وجوهكم على
التراب، وابعثوا أنفاس الأسف، وكفى بها شفيعاً في الزلل، فإذا وجدتم
قلوبكم قد حضرت فاذكروني معكم.

(١) سهيل: نجم بياني. قيل: عند طلوعه تنضج الفواكه وينقضي القيظ.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

وقولوا لجيرانٍ على الخيف من منى تراكم من استبدلتُم بجواريا
ومن ورد الماء الذي كنتُ وارداً به ورعى الروض الذي كنتُ راعيا
فوالهفتي! كم لي على الخيف شهقةً تذوب عليها قطعة من فؤاديا

* * * *

يا تائهاً في بوادي الهوى! انزل ساعة في بوادي الفكر، يُجبرك بأن اللذة
قصيرة والعقاب طويل، واعجباً لمن يشتري لذة ساعة بغمم الأبد، كانت
المعصية ساعةً، لا كانت، فكم ذلت بعدها النفس، وكم تصاعد لأجلها
النفس، وكم جرى لتذكارها دمعٌ.

يا عاذل المشتاق دعه فإنه يطوي على الزفرات غير حشاك
لو كان قلبك قلبه ما لمته حشاك مما عنده حشاك

ما انتفع آدم في بليّة ﴿وَعَصَى﴾ [طه: ١٢١] بكمال ﴿وَعَلَّمَ﴾ [البقرة: ٣١]
ولا ردّ عنه عز ﴿أَسْجُدُوا﴾ [البقرة: ٣٤] وإنما خلّصه ذل ﴿ظَلَمْنَا﴾ [الأعراف:
٢٣].

لو أشرفت على وادي الدُّجى، لرأيت خيم القوم على شواطئ أنهار
الدموع، خلوا - والله - بالحبيب، وطال الحديث، عين تبكي من المحبوب،
وأخرى تبكي عليه، ريٌّ تامٌ بمحبته، وعطشٌ مُحرقٌ إلى رؤيته.

* * * *



المذهشات

إخواني! ما قُتِلَ أحدٌ بأحدٍ من سيفِ سوف، ومواهب الأعمار
مسترجعة بالأنفاس حتى تُستوفى - أَلستِ نقضت عهد ﴿أَلستُ﴾
[الأعراف: ١٧٤] بعد عقدِ عُقدِه؟! فكيف حَلَّ لك الحَلُّ؟!

ومن البلية عذل من لا يرعوي عن غيِّهِ وخطاب من لا يفهم
إخواني! مصيبتنا في التفریط واحدة، وأهل الأحران أهل.

إننا ليجمعنا البكاء وكلُّنا نبكي على شَجَنٍ من الأشجانِ

سل الليل عن الأحباب فعنده الخبرُ، خلا الفكر بالقلب في بيت
التلاوة، فجرت أوصاف الحبيب، فنهض قلقُ الشوق يضرب بطون
الرواحل، لينهر السهر، فلا وجه لنوم القوم.

يا عيوننا بالغضا راقدةً حرَّم الله عليكنَّ الكرى
حبذا فيك حديثٌ باطنٌ فطنَ الدمعُ به فانتشرا

من لم يكن له مثل تقواهم، لم يعلم ما الذي أبكاهم؟

من لم يشاهد جمال يوسف، لم يعلم ما الذي ألم قلب يعقوب؟

من لم يبيتْ والحُبُّ حشوُّ فؤاده لم يدْرِ كيف تفتَّتْ الأكبادِ

لو دمت على سلوك البادية، طابت لك ريح الشَّيح.

تقرُّ لعيني أن أرى رملة الحمى إذا ما بدت يوماً لعيني قلاها
ولست وإن أحييتُ من يسكن الغضا بأول راج حاجة لا ينالها



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا من كانت له مع الله معاملة، وطالت بينه وبينه المواصله، ثم اختار
الهجر والمفاصله، إن لم يكن جميلٌ، فلتكن مجاملة، تفكّر! تعرّف قدر ما
فاتك، وابك لذنب حرّمك القرب وأفاتك.

ويا صاحبي أين وجد الصباح؟ وأين غدٌ؟ صف لعيني غدا
وخلف الضلوع زفير أبى وقد برّد الليل أن يبرّدا
اللهم نورّ دنيانا بنور من توفيقك، واقطع أيامنا في الاتصال
بمناجاتك، وانظم شتاتنا في سلك طاعتك، فأنت أعلم بتلفيق المقترف.

أعدّ الليالي ليلةً بعد ليلةٍ وقد عشت دهرًا لا أعدّ الليالي
وأخرج من بين البيوت لعنّي أحدث عنك النفس بالليل خاليا
إذا سرت أرضًا بالفضاء رأيتني أصانع رُحلي أن يميل حياليا
خليليّ ما أرجو من العيش بعدما أرى حاجتي تُشرى ولا تُشترى ليا
وقد يجمع الله الشتيتين بعدما يظنّان كل الظنّ أن لا تلاقيا

واشوقاه إلى أرباب الإخلاص! واتوقاه إلى رؤية تلك الأشخاص!
إني لأحضر ذكركم فأغيب، وإن وقتي بتذكركم ليطيب.
إذا هزّنا الشوق اضطربنا لهزّه على شَعَب الرَّحْلِ اضطراب الأرقام^(١)

(١) الأرقام: جمع أرقم: حيةٌ فيها سواد وبياض.



المذهشات

الإخلاص مسكٌ مصونٌ في مسكِ القلب^(١)، تُنبه ريحُه على حامله.
 العمل صورة والإخلاص روح، المخلصُ يَعُدُّ طاعته لاحتقاره لها
 عَرَضًا، وقلمُ القبول قد أثبتها في الجوهر خالصًا، الإخلاص اليسير كثير،
 ووجود عمل الرياء عدم، خليجٌ صافٍ أنفع من بحر كدر، إذا لم تخلص
 فلا تتعب، أتحدو ومالكٌ بعير؟ أتمدُّ القوس وما لها وتر؟ أتتجشأ من غير
 شبع؟ واعجبًا من وَحْمِي^(٢) بلا حَبَل! كم يُذللُّ نفسه مرءٍ لتمدحه الخلق،
 فذهبت والمدح، ولو بذلها للحق لبقيت والذكر، عملُ المرئي بصلته كلها
 قشور، المرئي يحشو جراب العمل رملاً فيثقله ولا ينفعه، ريح الرياء
 جيفةٌ، تتحاماها مسامُ القلوب، وما يخفى المرئي على مسانح^(٣) الفطن.
 لما أخذت دودة القز تنسج، أقبلت العنكبوت تتشبه، وقالت: لك
 نسجٌ ولي نسج، فقالت دودة القز: ولكن نسجي أردية الملوك، ونسجك
 شبكة للذباب، وعند مس النسيجين يبين الفرق.

إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكا
 شجرة الصنوبر تثمر في ثلاثين سنة، وشجرة الدباء تصعدُ في
 أسبوعين، فتقول لشجرة الصنوبر: إن الطريق التي قطعتهما في ثلاثين

(١) مسك الأولى: الطيب، مسك الثانية: الجلد.

(٢) وحمي: من الوحم ضيق في النفس وتغير للمرأة في أول حملها، وقد يستمر حتى
 الوضع.

(٣) مسانح: خواطر، من سنح: عرض وخطر.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

سنة، قد قطعها في أسبوعين، فيقال لي: شجرة، ولك: شجرة، فتجيبها: مهلاً إلى أن تهبَّ ريح الخريف.

كان الأشياخ في قديم الزمان أصحاب قَدَم^(١) والطلابُ أرباب ألم، فذهبَ القدمُ والألم.

كان الطالب يسأل عن عُصَّةٍ، والشيخ يعرف القِصَّة، فاليوم لا عُصَّةٌ ولا قِصَّةٌ، كان الزهد في بواطن القلوب، فصار في ظواهر الثياب، ويحك! أصلح نيتك لا مُرَقَّعَتَكَ، غيرَ زَيْكٍ أيها المرائي فهو يصيحُ: خذوني، واعبأ ما للدواعي إلى الدعاوى الباطن ينطق. لما علم الصالحون خطر البيات، أدلجوا بأجمل الأعمال في ليل الكَتْم!

كان البكاء إذا غلب أيوب قال: ما أشد الزكام!

صام داود بن أبي هند أربعين سنة لم يعلم به أحد، كان يأخذ غداءه ويخرج إلى الدكان، فيتصدَّق به في الطريق، فيظنُّ أهل السوق أنه قد أكل في البيت، ويظنُّ أهله أنه قد أكل في السوق.

كان ابن سيرين يتحدث بالنهار ويضحك، فإذا جاء الليل أخذ في البكاء.

نهارى نهارُ الناس حتى إذا بدا لي الليلُ هزَّتني إليك المضاجعُ
أقضي نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعني والهَمُّ بالليل جامعُ

(١) القدم: السابقة في الخير.



المُدْهَشَاتُ

كان خوفهم من الرياء يوجب مدافعة النهار، فإذا خلوا بالحبيب لم
يصبر المشوق، ولو قدروا على استدامة الكتمان ما أذاعوا.

إذا جنَّ الليلُ وظلامه، ثارَ شَجْنُ المحبِّ وسَقَامُهُ، ورمى الحبُّ
فأصابت سهامُهُ، واستطلقَ مزاؤُ العينِ فانهلَّ سِجَامُهُ، وطال بالحزين
قعودُه وقيامه.

لو أبصرت طلائع الصديقين في أوائل القوم، أو شاهدت ساقه
المستغفرين في أواخر الركب، أو سمعت استغاثة المحييين في وسط الليل.
من رأى البرق بنجدٍ إذ تراءى سلبَ النوم وأهدى البرحاء

إخواني! سار المتقون ورجعنا، وواصلوا وانقطعنا، وأجابوا الداعي
وامتنعنا، ونجوا من الأشرار ووقعنا، تعالوا ننظر في آثارهم، وندرس
دروس أخبارهم، ونبكي من التفريط ما نابنا.

يا نسيم الريح بلِّغْ إليهم أنَّ عَقْدِي معهم لا يُجِلُّ
لي من الريح الشمال انتهالٌ فإذا هبَّتْ سُحِيرًا فعَلُّ (١)

سافر القوم على رواحل الصدق، فقطعوا أرض الصبر حتى وقعوا
برياض الأنس.

(١) فعَلُّ: من العَلِّ، وهي الشَّرْبَةُ الثانية، عللاً بعد تهل.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

فإن كلانا هذه عشر أبطن وأنت بريء من قبائلها العشر
أعندك من حديثهم خبر؟ ألك في طريقهم قدم؟ فيا خيبة النائمين!
لما تمكّنت المعرفة من قلوبهم أثمرت شدة الخوف، فتنمو العدم.
رأى الصديق طائرًا فقال لك طوبى لك يا طائر! تقع على الشجر،
وتأكل من الثمر، ولا حساب عليك، ليتني كنت مثلك.
وقال عمر: ليتني كنت تبنّة، وليت أُمي لم تلدني.
وقال عمران بن حصين: ليتني كنت رمادًا.
وقال أبو الدرداء: ليتني كنت شجرة تعضد.
وقالت عائشة: ليتني كنت نسيًا منسيًا.
سمعوا وعيد الله، فباتوا على حرق، وأكلوا على تنغيص، فنومهم نوم
الغرقى، وأكلهم أكل المرضى، عجزت أبدانهم عما حملت قلوبهم ﴿فَمِنْهُمْ
مَنْ قَضَىٰ مَحَبَّةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ﴾ [الأحزاب: ٢٣].
قال أبو طارق: شهدت ثلاثين رجلًا دخلوا مجالس الذكر يمشون
بأرجلهم صحاحًا إلى المجالس، وأجوافهم والله قرحة، فلما سمعوا
الذكر، انصدعت قلوبهم.
وقال عبد الواحد بن زيد: لو رأيت الحسن لقلت: قد بُثَّ عليه حزن
الخلائق، ولو رأيت يزيد الرقاشي لقلت مُثْكَلٌ.



المُدْهَشَاتُ

المحبّ إن تذكّر الربع حنّ، وإن تفكر في البعد أنّ، وإن جنّ عليه
الليل أظهر ما أجنّ.

إخواني! الخلوة مهْرُ بكر الفكر، وسُلّم معراج الهمة، حريمُ العزلة
مصونٌ من عيب العبث، إذا خلت دار الخلوة عن الصّور، تفرّغ القلب
لملاحظة المعاني.

يا هذا! إذا رُزقت يقظةً فصنّها في بيت عزلة، فإن أيدي المعاشرة
نهّابة، احذر معاشرة الجهال، فإن الطبع لصّ، لا تُصادقن فاسقًا، فإن من
خان أول منعم عليه لا يفني لك.

يا أفراخ التوبة! لازموا أوكار الخلوة، فإن هِرَّ الهوى صيود، إياك
والتقرب من طرف الوكر، والخروج من بيت العزلة، حتى يتكامل نبات
الخوافي^(١) وإلا كنت رزق الصائد.

الأنس بالإنس كالغراء، المخالطة توجب التخليط، وأيسر تأثيرها
تشتيت الهمّ.

أقلُّ ما في سقوط الذئب في غنمٍ إن لم يصب بعضها أن تنفر الغنمُ

قطع العلائق أصل الأصول لطيب الوصول.

(١) الخوافي: جمع خافيه وهي ما دون الريشات العشر من مقدّم الجناح في الطائر،
والريشات الطوال تسمّى: القوادم.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

كان أويسُ يهرب من الناس فيقولون: مجنون، وَصَفَ الرسول ﷺ لأصحابه صفته، فقوي تَوْقُ عمر، وكان في كل عام يسألُ عنه أهل اليمن^(١).

ألا أيها الركب اليمانون عرّجوا علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نَعْمَانُ بعدنا وَحَبَّ إلينا بطنُ نَعْمَانِ واديا
لما كانت آخر حجة حجها عمر، قام على أبي قيس فنادى: أفيكم أويس؟

وإني للشوق من بعدهم أراعي الجنوب مراحًا وَمَغْدَى
وأفرح من نحو أوطانهم بغيث يجلجل برقًا ورعدا
إذا طلع الركب يَمَمْتُهُمْ أحيي الوجوه كهولًا ومُردا
أسائلهم عن عقيق الحمى وعن أرض نجدٍ ومن حلّ نجدا
نشدتكم الله فليخبرنَّ من كان أقرب بالرمل عهدا
هل الدار بالجزع مأهولةٌ أثار الريعُ عليها وأسدَى

كان أويس يأتي المزابل إذا جاع، فأتاها يومًا فنبح عليه كلبٌ، فقال: يا كلب! لا تؤذ من لا يؤذيك، كل مما يليك، واكل مما يليني، فإن دخلتُ الجنة فأنا خير منك، وإن دخلتُ النار فأنت خير مني.

ذُلُّ الفتى في الحب مكرمةٌ وخصوعه لحبيبه شرفٌ

(١) وبعض أخبار أويس في ثبوتها كلام.



المُدْهَشَاتُ

صاحبُ أهل الدين وصافِهم، واستفد من أخلاقهم وأوصافهم،
واسكن معهم بالتأدب في دارهم، وإن عاتبوك فاصبر ودارهم، إن لم يكن
لك مَكْنَةُ البذر ولم تُطق مراعاة الزرع، فَقَفْ في رفقة ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ
أُولُو الْقُرْبَىٰ﴾ [النساء: ٨] أنت في وقت الغنائم نائم، وقلبك في شهوات
البهائم هائم.

وإن صدقت في طلبهم فانهض وبادر، ولا تستصعب طريقهم
فالمعين قادر. تعرّض لمن أعطاهم وسلّم فمولاك مولاهم، رُبَّ كنز وقع
به فقير، ورُبَّ فضل فاز به صغير، عَلِمَ الخضرُ ما خفي على موسى،
وكُشف لسليمان ما غُطي عن داود.

يا هذا! لا تحتقر نفسك فالتائب حبيب الله، والمنكسر مستقيم،
إقرارُك بالإفلاس غِنَى، اعترافُك بالخطأ إصابة، تنكيس رأسك بالندم
رفعة، عُرِضت سلعة العبودية في سوق البيع فبذلت الملائكة نقد ﴿وَنَحْنُ
نُسَبِّحُ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال آدم: ما عندي إلا فلوس إفلاسٍ نقشها ﴿رَبَّنَا
ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣] فقيل: هذا الذي ينفق على خزانة الخاص، أنين
المذنبين أحبُّ إلينا من زجل المسيحين.

واستعذبوا ماء الجفون فعذبوا الأسرار حتى درّت الآماقُ
يا معاشر المذنبين! إن كان يأجوج الطبع، وماجوج الهوى، قد عاثوا
في أرض قلوبكم ﴿فَاعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] اجمعوا



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

عزائم قوية تشابه زُبَرَ الحديد، وتفكروا في خطاياكم، لتثور صُعداءُ
الأسف، شيدوا بُنيان العزائم بهجر المألوف ليستحجر البناء، هكذا بناء
الأولياء قبلكم، فجاء الأعداء ﴿فَمَا اسْطَعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ﴾ [الكهف: ٩٧].

ليس عزمًا ما مَرَضَ المرءُ فيه ليس همًّا ما عاق عنه الظلام
الجدَّ الجدَّ، فما تحتل الطريقُ الفتور، ضاقت أيام الموسم، فجعجعوا
بالإبل^(١).

كان أَسِيدُ الضَّبِّيِّ إذا عوتب في كثرة بكائه يقول: كيف لا أبكي وأنا
أموت غدًا؟

وكانت عابدةٌ لا تنام من الليل إلا يسيرًا، فعوتبت في ذلك فقالت:
كفى بطول الرقدة في القبور رقادًا.

هذه طريقهم فأين السالك؟ هذه صفاتهم فأين الطالب؟

أيها المُقَصِّرُ عن طلب المزايا! كيف تدرك المعالي بغير اجتهاد؟ أين
أهل السهر من أهل الرِّقاد؟ أين الراغبون في الهوى من الزهاد؟ رَحَلَ
المتيقظون مستظهرين بكثرة الزاد، كلُّ جوادٍ لهم يعرف الجواد^(٢) فساروا
فزاروا والكسلان عاد.

(١) جعجع بالإبل: حرَّكها للنهوض.

(٢) الجواد: جمع جادة وهي الطريق.



المذهشات

يا قلبُ ما أنت من نجدٍ وساكنه
أهفو إلى الركب تعلو لي ركائبهم
يا راكبانِ قفالي فاقضيا وطري
فلم يزالا إلى أن نمَّ بي نفسي
خلّفت نجدًا وراء المدلج الساري
من الحمى في أسحاق^(١) وأطمار
وحدّثاني عن نجدٍ بأخبار
وحدّث الركب عني مدمعي الجاري
لما صفت خلوات الدجى، نوذي آذن الوصول: أقم فلانًا وأنم فلانًا.

خرجت بالأسماء الجرائد، وفاز الأحباب بالفوائد.

تقولين ما في الناس مثلك وامق^(٢)
ذريني أنل ما لا يُنال من العلى
تريدين لقيان المعالي رخيصةً
ولا بد دون الشهد من إبر النحل
جدي مثل من أحببته تجدي مثلي
فصعبُ العلى في الصّعب، والسهل في السهل

ستر القوم قيامهم بالليل، فستر جزاءهم أن يطّلع عليه الغير ﴿فَلَا

تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أَخْفَى لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

اشتهر بقيام الليل كله، وصلاة الفجر بوضوء العشاء، سعيد بن
المسيب، وصفوان بن سليمان، ومحمد بن المنكدر، وفضيل ووهب
وطاووس والربيع بن خثيم وأبو سليمان الداراني وسليمان التميمي^(٣)
ومالك بن دينار ويزيد الرقاشي وحييب العجمي ويحيى البكاء وكهمس

(١) أسحاق: مصغر إسحاق، وهي الثياب البالية.

(٢) وامق: محب.

(٣) كذا ولعل الصواب: التيمي.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ورابعة.

قالت أم عمرو بن المنكدر: يا بُني أشتهي أراك نائماً. فقال: يا أمّاه إن الليل ليردُّ علي فيهلوني، فينقضي عني وما قضيت منه مآربي.

وصحب رجلٌ رجلاً شهريّن فما رآه نائماً^(١) فقال له: مالك لا تنام؟ فقال: إن عجائب القرآن أطرن نومي، ما أخرج من أعجوبة إلا وقعتُ في أخرى.

يا طويل النوم! فاتتك مِدْحَةٌ ﴿نُتَجَّافِي﴾ [السجدة: ١٦] وحُرمت منحة ﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٧].

ثَوَّرْتُ في الليل الحُدَاةُ، ورُبِطت أحمالُ الأعمال، وسارت رفقةُ المتهجدين، وترنّم كلُّ ذي صوت بشجْوٍ، وأنت في الرقدة الأولى بعدُ.

يا هذا! كيف تُطيقُ السهر مع الشبع؟ كيف تزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل؟

أتبكي على ليلي وأنت تركتها فقد ذهبت ليلي فما أنت صانعُ

إذا هبَّت رياح المواعظ أثارت من قلوب المتيقظين غيم الغمّ على ما سلف، وساقته إلى بدل الطبع المنحرف برعد الوعيد وبرق الخشية،

(١) أي في الليل.



المُدْهَشَاتُ

فتترقى دموع الأحزان من قعر بحر القلب إلى أوج الرأس، فتسيل
ميازيب الشؤون على سطوح الوجنات، فإذا أعشب الصدر اهتز فرحاً
بالإنابة.

محت بعدكم تلك العيونُ دموعَها	فهل من عيون بعدها نستعيرُها
رحلنا وفي سر الفؤاد ضمائُرُ	إذا هبَّ نجدي الصَّبا يستثيرُها
أتنسى رياض الغورِ بعد فراقها	وقد أخذ الميثاق منك غدِيرُها
يُجَعِّدُهُ مَرُّ الشَّمالِ وتارة	يغازله كَرُّ الصَّبا ومروُرُها
ألا أيها الركب العراقيُّ بلَّغوا	رسالة محزونٍ حواه سطورُها
إذا كتبت أنفاسه بعض وجدها	على صفحة الذكرى محاه زفيرُها
ترَفَّقْ رفيقي هل بدت نار أرضهم	أم الوجدُ يُذكي نارهُ ويثيرُها
أعدْ ذكرهم فهو الشفاء وربما	شفى النفس أمرُّ ثم عاد يضيرُها
سقى الله أياماً مضت ولياليًا	تضوَعَ رِيَّاهَا وفاح عبيرُها

كان في حدِّ عمر بن الخطاب خطان أسودان من البكاء، وكان في
وجه ابن عباس كالشراكين الباليين من الدمع.

وكان الحسن يبكي حتى يُرحم، وكان الفضيل بن عياض يبكي في
النوم حتى ينبه أهل الدار ببكائه.

ألا من لعينٍ من بُكاها على الحمى	تجفُّ ضروعُ المزن وهي حَلُوبُ
بكت وغديرُ الحيِّ طامٍ وأصبحت	عليه العطاشُ الحائثاتُ تلوُبُ



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

وما كنت أدري أن عيناً ركيّةٌ ولا أن ماء المأقيين شروِبٌ

قال عليه الصلاة والسلام: «عينان لا تمسهما النار، عينٌ بكت من

خشية الله، وعينٌ باتت تحرس في سبيل الله»^(١).

قيل لثابت البناني: عالج عينيك ولا تبك، فقال: أي خير في عينٍ لا

تبكي.

إخواني! حرُّ الخوف صيفُ الذوبان، وبرودة الرجاء شتاء، سبحان

من رُوح أرواح الخائفين بريح الرجاء الضعيف، إذا لم يُتلاف تَلَفٌ، لا بد

للمكروب من نسيم بارد.

وقف عتبة الغلام ليلة على ساحل البحر إلى الصباح يقول: إن

تعذّبتني فإني لك محبّب، وإن ترحمّني فإني لك محبّب.

يا قومنا! المحب مع بذل روحه يرتاح إلى المنى والتعليل، لأنه لا يرى

ما بذل يصلحُ ثمناً لما طلب.

دخلوا على رابعة فقالت: لقد طالت علي الأيام بالشوق إلى لقاء الله

تعالى.

ودخلوا عليها مرة أخرى فقالوا: أتشتاقين إليه؟ فقالت: هو حاضر

معي^(٢).

(١) رواه الترمذي وحسنه.

(٢) أي بعلمه وإحاطته وألطافه والأنس به واستشعار قربته ومناجاته.



المُدْهَشَاتُ

قالوا: هذا ضدّ الأول. فأجابت بلسان الحال: هكذا تحيّر المحبّ.

ومن عجب أني أحنّ إليهمُ وأسألُ شوقاً عنهمُ وهمُ معي
وتطلبهم عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

المحبّ يتعلق بكل شيء، ويهيم في كل واد، على القلق يمشي، وعلى
الحرق يُمسي.

كان رسول الله ﷺ يخرج إلى حراء، ويبدو إلى التلاع^(١). مقاساة
الخلق ظلمة، والحبيب لا يتجلّى إلا في خلوة^(٢).

وأخرج من بين البيوت لعلني أحدث عنك النفس في الليل خافيا^(٣)

(١) التلاع: ما ارتفع من الأرض وما انهبط، وهو من الأضداد، والمراد الارتفاع. وعند
أبي داود بسند حسن من حديث عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «كان يبدو إلى التلاع» ولمسلم
عنها «فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه» وبنحوه في البخاري.

(٢) أي بالأنس به واستشعار قربه كأنه يراه.

(٣) وكان شيخ الإسلام ربما برز إلى البرية وذكر الله وتمثل بهذا البيت، فهو قد أخذ
المعنى الكلي من هذا البيت وليس التفصيلي، وفي هذا سعة لمن ضبط نفسه دون من
انفلت قيادها فوقع في سوء الأدب مع الله تعالى، ناهيك عنم ولج باب الضلالتين
الاتحاد والحلول، وهذا مسلك لا يحسنه إلا القليل، ومن لم يكن عنده علم وبصيرة
فليقف حيث وقف القوم وفي القرآن والسنة كفاية وغنية لمن أحسن الله إليه وهداه
الصراط المستقيم.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

المحب مقتولٌ بلا سيف، مُلقَى في مِنَى المني لا عند الخيف^(١) إذا
سمع صوت منشِدٍ قد غرَّد، خلع لجام الصبر وتشرَّد.

ولما غرَّد الحادي وسار القوم في الوادي
وراح القلب يتبعهم بلا مـاء ولا زاد
رأيت قتيلاً بينهم^(٢) صريعاً ماله فاد^(٣)

كانت أضلاع عمر بن عبد العزيز تُعدُّ، وكان جسد سريِّ كالشَّن^(٤).
وقف أبو يزيد في المحراب فكبر فتقععت عظامه.

وإني لتعروني لذكراك لوعة لها بين جلدي والعظام ديبُ
فما هو إلا أن أراها فجأة فأهتُ حتى لا أكاد أُجيبُ
إذا رأيت محباً ولم تدر لمن؟ فضع يدك على نبضه، وسَمِّ كلَّ من تظنُّه
المحبيب، فإن النبض لا ينزعج إلا عند ذكره ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا
ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ [الأنفال: ٢].

وهل الحبُّ إلا زفرةٌ بعد زفرةٍ وحرٌّ على الأحشاء ليس له برْدُ
وفيضُ دموع تستهلُّ إذا بدا لنا علمٌ من أرضكم لم يكن يبدو

(١) المقصود مشعر منى.

(٢) البين: البعد والفراق.

(٣) الفادي: أي من يفتديه.

(٤) الشَّن: القرية الخليفة.



المُدْهَشَاتُ

المحب في قلقٍ لا سكون له، والعجب أنه يتكلف الثبات، ويبالغ في
كتمان وجدده، غير أن الدمع نمامٌ.

كان أكثر القوم إذا جاءه البكاء دافعه اتقاء الناظر، فيغلبه ولا حيلة.

أشدّ على المحب من مقاساة الحب سماعُ اللوم، واعجباً من خليّ
يعذل ذا شجىً.

ويحك! خلّ شأنه وشانه.

فيا حبّهم زدني جوى كل ليلة ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ
لما أسلم سعد بن أبي وقاص قالت له أمه: والله لا آكل ولا أشربُ
ولا يظلني سقف بيت حتى تكفر بمحمد، ويحها! ما خبِرتُ خبر المحبة!
متى وقع السُّلُوُّ في حبٍّ صادق؟!

عذل العواذل حول قلبي التائه وهوى الأحبة منه في سودائه
القلب أعلم يا عدول بدائه وأحق منك بجفنه وببائه
أأحبُّه وأحبُّ فيه ملامةً إن الملامة فيه من أعدائه
لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى تكون حشاك في أحشائه

واعجباً لعاذلٍ في حبٍّ ما ذاقه، وأميرٍ بهجر حبيبٍ ما شاقه.

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لي متأخرٌ عنه ولا متقدمُ
أجد الملامة في هواك لذيدةً حبًّا لذكرك فليلمني اللومُ



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

لو رأيت المحبَّ يهرب من العدلِ إلى فَلَواتِ الخلواتِ، فإذا ناوله
الوجدُ كأسَ الدموعِ اقترح عليه غناءَ الحمائمِ.

يا هذا! قد سمعت أخبار المتقين فسِر في سرِّهم، وقد عرفت جدَّهُم
فتناول من سرِّهم، ثم سأل من أعانهم يُعِنكَ فيما كان بهم.

لا يُوَيِّسُنكَ من مجدِّ تباعُدُهُ فالمجد يدرك تدريجًا وترتيبًا
إن القناة التي شاهدت رفعتها تَنمى وتُنبتُ أنبؤًا فأنبؤًا

استغنى القوم بطيبهم عن مدح خطيبهم، فاسلك طريقهم تكن
رفيقهم.

وسائلٌ عنهم ماذا يقدّمهم فقلت فضلٌ به عن غيرهم بأنوا
صانُوا النفوس عن الفحشاء وابتدلوا منهنَّ في سبيل العلياء ما صانُوا
المنعمون وما منوا على أحدٍ يومًا بنعمى ولو منوا لما مانوا (١)
قوم يعزُّون إن كانت مغالبةً حتى إذا قدرت أيديهم هانوا

أطار خوفُ النار نومهم، وأطال ذكرُ العطش الأكبر صومهم،
يحسبهم الناظر مرضى الأبدان، وإنما بهم سقائم الأحران.

قال صالح المري: كان عطاء السلمي قد اجتهد حتى انقطع،

(١) مان: احتمل مؤنثه وقام به.



المُدْهِشَاتُ

فصنعتُ له شربة سويق فلم يشرب فلمته، فقال: إني والله كلما هممتُ بشربها ذكرت قول الله تعالى: ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ [المزمل: ١٣] فلم أقدر، فقلت: أنا في وادٍ وأنت في وادٍ.

قلْبُ المحب تحت فحمة الليل جمرة، كلما هب النسيم التهبت.

تمر الصِّبَا صَفْحًا بساكن ذي الغضا ويصدعُ قلبي أن يهَبَّ هُبُوبُهَا
قريبة عهد بالحبيب وإنما هوى كلِّ نفس حيث حلَّ حبيبُهَا
سهر القوم يقع ضرورةً لأن القلق مانع من النوم، وليس لهم في تلك
الشدائد راحة سوى جريان الدموع.

من صلَّى بالليل حَسُنَ وجهه بالنهار، شيمة المحب لا تخفى،
وصحائف الوجوه يقرؤها من لم يكتب.

قطعت نياقُ جدِّهم بادية الليل، ولم تجد مس التعب، الطريق إلى
المحجوب لا تطول.

يا مقيمًا في دائرة الغَيْرِ! كم حضرت فيها محتضر، كم عَايَنْتُ عينك
قبرًا يُحْتَفَرُ، عجبًا!

ويحك تَعَاهَدُ قلبك، فإذا رأيتَه قد مال إلى الهوى، فاجعل في الجانب
الآخر ذكر العقاب ليستقيم، فإن غلبك الهوى فاستغث بصاحب القلب،
وإن تأخرت الإجابة فابعث رائد الانكسار خلفها تجد الفرج.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا هذا! أما علمت أن اللطف مع الضعيف أكثر؟
إلهي! أدلنا^(١) من نفوسنا التي هي أقرب أعدائنا منا، وأعظمهم
نكاية فينا.

إلهي! تلاعبت خوادع آمالنا ببضائع أعمالنا فصرنا مفاليس، أغارت
علينا خيول الهوى فاستأسرتنا.

فيا مالك الملك أنقذ حبيسنا، وخلص أسيرنا، وسيّر أوبتنا من بلاد
غربتنا، كم عدنا مريضًا وما عدنا! كم رأينا الأحاد تبني وما بُنا! كم
أبصرنا وما أقصرنا! وانتهينا وما انتهينا! كم بادرنا إلى ما يضرنا وانتهينا
وما هبنا!

يا ملاذ العارفين^(٢)! يا معاذ الخائفين! خذ بيد من قد زلت قدم فطنته
في مزلق فتنته، أقم من قعد به سوء عمله.

أصلح السحرة فجعلهم بررة، واعجبًا لعزمِ صلبٍ ما هاله الصلب،
والاحتراق على قدر الاشتياق.

لما علم المحبون أن الصبر محبوب محبوب شمرّوا لحمل البلاء، ثم
حلّى لهم فعدّوه نعمة.

(١) أدلنا: انصرنا.

(٢) العارف: العالم بالله، أي عظيم الإيمان شديد التعلق بربه وإن لم يكن ذا باع في علوم
الشريعة، ولهذا المصطلح شواهد من صحيح السنة.



المُدْهَشَاتُ

إخواني لسنا من رجال البلاء فسلوا الله العافية.

يا من أنفاسه عليه معدودة، وأبواب التقى في وجهه مسدودة،
وأعماله بالنفاق والرياء مردودة، غير أن محبة التفريط معه مولودة.

حياتك أنفاس تُعَدُّ فكلَّما مضى نفس منها انتقصت به جزءا
فتصبح في نقص وتمسي بمثله أمالك معقول مُحْسُّ به رُزءاً^(١)
يُميتك ما يُحييك في كل ساعة ويحدوك حادٍ ما يُريد بك الهُزءا

يا هذا! أكبر الإنعام عليك كفّ فضول الدنيا عنك.

إذا رأيت سربال^(٢) الدنيا قد تقلّص، فاعلم أنه قد لُطِفَ بك، لأن
المنعم لم يقلّصه عليك بخلاً أن يتمزق، ولكن رفقا بالماشي أن يتعثر،
أحرم عن الحرام بنزع مخيط الهوى لعل جذب القدر يقارن ضعف كسبك.
إن المقادير إذا ساعدت^(٣) ألحقت العاجز بالحازم

ويحك! تركب بحار الغفلات في طلب الدنيا، فإذا أمرت بخير قلت:

إن وفقني.

أصمّ الله سمع الهوى فلا يسمع إلا ما يريد، ما أحسن قولك! وما

(١) الرزء: المصيبة.

(٢) سربال: كل ما يُلبس.

(٣) بأمر الله تعالى.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

أقبح فعلك!

ويحك! بادر دُرَّ الأرباح ما دام يُشر، فسينادي عن قليل ﴿وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي﴾، أتحسب تحصيل المعالي سهلاً؟ نيلٌ سهيلٍ أسهل، من أدلج في ليل الصبر فات المكَّاس^(١) يا من يتعب في التعب ولا يجد له لذة، أنت بعدُ في سواد^(٢) البلد، أخرج إلى البادية تجد نسيم نجد.

الاعتبار بالأعمال القلبية.

غلبت حرارات الخوف قلبَ داود عليه السلام فصار كفه كبيراً ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سبأ: ١٠]، وقويت روحانية محمد ﷺ فنبع الماء من بين أصابعه.

أيها المصلي! طهّر سرّك قبل الطهور، وفتش عن قلبك الضائع قبل الشروع، حضور القلب أول منزل، فإذا نزلته انتقلت إلى بادية المعنى، فإذا انتقلت عنها أنخت بباب المُنَاجَى، وأول قِرَى الضيف اليقظ كشف الحجاب لعين القلب، وكيف يطمع في دخول مكة منقطع قبل الكوفة.

هُمُّكَ في الصلاة متشبَّث^(٣) وقلبك بمساكنة الهوى متلبث، أحضر قلبك لفهم ما تتلو، ففي خلوات التلاوة تُزَفُّ أبكار المعاني، إذا كانت

(١) المكَّاس: جامع الضرائب.

(٢) سواد البلد: قراها وبساتينها.

(٣) متعلق.



المُدْهَشَاتُ

مشاهدة مخلوق يوم ﴿أَخْرُجْ عَلَيْنَ﴾ [يوسف: ٣١] استغرقت إحساس
الناظرات ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١] فكيف بالباب عَلِقَتْ فَعُقِلَتْ عَلَى
الباب؟

لها بوجهك نورٌ تستضيء به ومن نوالك في أعقابها حادٍ
لها أحاديث من ذكراك تشغلها عن الشراب وتلهيها عن الزاد

لو أحببت المخدم حقاً لحضر قلبك في الخدمة^(١).

قيل لعامر بن عبد قيس: أما تسهو في صلاتك؟

فقال: أو حديثٌ أحبُّ إليَّ من القرآن حتى أشتغل به؟!!

هيئات! مناجاة الحبيب تستغرق الإحساس.

كان مسلم بن يسار لا يلتفت في صلاته، ولقد انهدمت ناحية من
المسجد فزع لها أهل السوق فما التفت، وكان إذا دخل منزله سكت أهل
بيته، فإذا قام يصلي تكلموا وضحكوا علماً منهم أن قلبه مشغول.

إذا اشتغل اللاهون عنك بشغلهم جعلت اشتغالي فيك يا متهى شغلي

(١) لو أبدل عبارة الخدمة بالعبادة لكان أولى، والأظهر أنها عبارة دخيلة ومنتحلة من
أهل الكتاب، فقد ذُكرت في العهد الجديد للنصارى ولا أعلم أنها قد أثرت عن
السلف، والمسألة لا تعدو كونها من باب الأولى وقد استخدمها الشيخان ابن تيمية
وابن القيم، وبلا شك فالمحافظة على سمت السلف حتى في عباراتهم
ومصطلحاتهم أولى ثم أولى.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

فمن لي بأن ألقاك في ساعة الرضا ومن لي بأن ألقاك والكلُّ لي مَنْ لي؟
كان الفضيل يقول: أفرح بالليل لمناجاة ربي، وأكره النهار للقاء
الخلق.

يا واقفًا في صلاته بجسده والقلب غائب، ما يصلح ما بذلته من
التعبد مهراً للجنة، فكيف يصلح ثمنًا للمحبة؟
رأت فأرةً جملاً فأعجبها، فجرّت خطامه فتبعها، فلما وصل إلى باب
بيتها وقف ونادى بلسان الحال: إما أن تتخذي دارًا يليق بمحبوك، أو
محبوبًا يليق بدارك.

خذ من هذه إشارة إما أن تصلي صلاة تليق بمعبودك^(١)، أو تتخذ
معبودًا يليق بصلاتك.

عجبًا لمن رأى فعل الموت بصحبه ثم ينسى قرب نجه، واستبداله
ضيق المكان بعد رحبه، من لم ينتبه بوكزه فسيتنبه بسحبه.
أين الأقران؟ وأين سلكوا؟ تالله لقد فنوا وهلكوا، اجتمع الأضداد
في الأحقاد واشتركوا، وخانهم حبل الأمل بعدما امتسكوا، ونوقشوا على
ما خلفوا وتركوا، وصار غاية الأمانى أن لو تُركوا^(٢).

(١) قدر الطاقة وإلا فالكمال محال.

(٢) إلا من رحم الله وغفر لهم.



المُدْهَشَاتُ

تالله لقد سَعِدَ من تدبّر، وسَلِمَ من الأذى من تصبّر، وهلك مؤثّر
الهوى وأدبر، فكأنكم بالفراق يا ركب المعبر.

يا نائمًا في لهوه وما نام الحافظ، لاحظ نور الهدى فلاحظ إلا لملاحظ،
ولا تغترّ ببرد العيش فزمان الحساب قاطن، يا مُدبّرًا أمر دنياه ينسى أخراه
فخفّ النداء اللافظ^(١) وعجائب الدنيا تغني عن وعظ كل واعظ.

يا من قد رأينا يد التفريط قد ولعت به، فأتينا للومه ولعبته، أما مصيرُ
السلف نذير الخلف، أما مهدُّ الطفل عنوان اللحد، يا من لمع له سراب
الأمل فبدّد ماء الاحتياط، أتراك ما علمت أن الأماني قمار، الورع عن
الذنوب يوجب قوّة قلبية.

قال بعض السلف: ارتكبتُ صغيرة، فغضب علي قلبي، فلم يرجع
إلي إلا بعد سنة.

إخواني! إطلاق البصر سيفٌ يقع في الضارب.

يا للرجال لنظرة سفكت دمًا ولحادثٍ لم ألفه مستسلمًا
وأرى السهام تؤمُّ^(٢) من يرمي بها فعلام سهم اللحظ يُصمي^(٣) من رمى
المحرّمات حرم، ونظر المملوك إلى حرم المالك من أقبح الخيانة.

(١) النداء اللافظ: صيحة الصور التي يُلفظ بها الأموات من قبورهم.

(٢) تؤم: تقصد.

(٣) يصمي: أصمى الرمية: أنفذ فيها السهم.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا بني آدم! تلمّحوا تأثير ﴿وَعَصَى﴾ [طه: ١٢١] لقمة أثّرت، عَرِي بها
المكتسي، ونزل العالي، وبكى الضاحك، وقام المترفُّه يخدم نفسه، فاشتد
بكاؤه، فنزل جبريل يسّليه، فزاد برؤيته وجدّه.

رأى على العَوْرِ وميضًا فاشتاق ما أجلب البرق لماء الآماق
كان آدم كلّما عاين الملائكة تصعد إلى السماء وجناحه قد قصّ زاد
قلقه.

وأصبحت كالبازيِّ المنتفّ ريشه يرى حسرات كلما طار طائر
يرى خارقات الجو يخرقن في الهوى فيذكر ريشًا من جناحيه وافر
وقد كان دهرًا في الرياض منعّمًا على كل من يهوى من الصيد قادر
إلى أن أصابته من الدهر نكبة فأصبح مقصوص الجناحين حاسر
أعظم البلايا تردُّدُ الركب إلى بلد الحبيب يودّعون عند فراقهم
الزَّمنَ (١).

ولم يبق عندي للهوي غير أنني إذا الركب مرُّوا بي على الدار أشهق
يا ناقضي العهود! دوموا على البكاء، فمن أشبه أباه فما ظلم.
كانت عابدةً من أحسن الناس عينًا، فأخذت في البكاء، فقيل: تذهب
عيناك!

(١) الزمن: المقعد.



المُدْهَشَاتُ

فقالت: إن يكن لي عند الله خيرٌ فسيُبدلني خيراً منهما، وإن تكن الأخرى فوالله لا أحزن عليهما.

قد علّمَ البينُ منا البينَ أجفانا تدمى وألفَ في ذا القلبِ أحزانا
قد كنتَ أُشْفِقُ من دمعي على بصري فاليوم كلُّ عزيز بعدكم هانا
يُهدي البوارقُ أخلاف المياهِ لكم وللمحبِّ من التذكار نيرانا

من سعى إلى جناب العزِّ بأقدام المسكنة، ووقف باب الكرم على أخص المسألة، ووصف ندمه على الذنب بعبارة الذل، لم يعد بالخيبة.

يا معاشر التائبين! اسمعوا وصيتي، إذا قمتم من المجلس فادخلوا دار الخلوة، وشاوروا نصيح الفكر، وحاسبوا شريك الخيانة، وتلمّحوا تفريط التواني في بضاعة العمر، ويكفي ما قد مضى، فليحذر الأعورُ الحجَرَ.

إذا نُقي خاطرُ المُذكّر من دغل هوى، وُصِفِّي معين كلامه من كدر طمع، انكشف الغطاء عن عينيه، فرأى بالفطنة قُطنة العافية.

فأما مُجْتَلِب الدنيا بنطقه، فإنه كلما حَفَرَ قليب قلبه، فأمعن لاستنباط معنى طمّ الطمع.

إذا صدر العلمُ من عامل به كان كالعربية ينطق به البدوي، وأحلى أبيات الشَّعر ما خرج من أبيات الشَّعر.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

إخواني! أعجب العجائب أن النُّقاد^(١) يخافون دخول البهْرَجِ في أموالهم والمُبهرِجِ آمن.

هذا الصديق رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أورد في الموارد.

وهذا عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ يقول: يا حذيفة هل أنا منهم؟
والمخلط على بساط الأمن.

لله أقوام شغلهم حبُّ مولاهم عن لذات دنياهم، يا حُسَنَهُم في الدُّجى ونورُهُم قد أشرق، والحياء فائضُ والرأس قد أطرق، والأسير يتلظى ويترجى أن يُعتق.

إذا جنَّ الليل تغالبَ النومُ والسهرُ، والخوفُ والشوق في مقدّم
عسكر اليقظة، والكسل والتواني في كتيبة الغفلة، فإذا حمل^(٢) العزم حمل
على القيام، فانهزمت جنود الفتور، فما يطلعُ الفجر إلا وقد قُسمت
السُّهْمَانِ^(٣) سفرُ الليل لا يطيقه إلا مُضَمَّرُ المجاعة، النجائبُ في الأول،
وحاملات الزاد في الأخير.

(١) النقاد: من يبيع النقود، والبهرج: النقود المغشوشة.

(٢) حمل: أغار.

(٣) السُّهْمَانِ: الغنائم.



المُدْهَشَاتُ

إِنْ كَانَ رِضَاكُمْ فِي سَهْرِي فَسَلَامُ اللَّهِ عَلَيَّ وَسَنِي (١)
 قَالَ عَلِيُّ بْنُ بَكَارٍ: مِنْذُ أَرْبَعِينَ سَنَةً مَا أَحْزَنْنِي إِلَّا طُلُوعُ الْفَجْرِ.
 لَوْ قَمْتُ فِي السَّحْرِ لَرَأَيْتُ طَرِيقَ الْعِبَادِ قَدْ غَصَّ بِالزَّحَامِ، لَوْ وُورِدَتْ
 مَاءُ مَدِينٍ، وَوَجِدْتِ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ.
 يَا بَعِيدًا عَنْهُمْ! يَا مَنْ لَسْتُ مِنْهُمْ! أَلَيْكَ نِيَّةٌ فِي لِحَاقِهِمْ؟ أَسْرَجَ
 كُمَيْتَكَ (٢)، وَاجْرُرْ زِمَامَكَ، يَقِفُ بِكَ عَلَى الْمَرْعَى.
 يَا مَنْ يَسْتَهْوِلُ أَحْوَالَ الْقَوْمِ! تَنْقَلُ فِي الْمَرَاقِي تَعْلُ.
 قَالَ أَبُو يَزِيدٍ: مَا زِلْتُ أَسْوِقُ نَفْسِي إِلَى اللَّهِ وَهِيَ تَبْكِي، حَتَّى سُقْتَهَا
 وَهِيَ تَضْحَكُ.

مَا زِلْتُ أَضْحِكُ إِبْنِي كُلَّمَا نَظَرْتُ إِلَى مَنْ اخْتَضَبَتْ أَخْفَافُهَا بِدَمٍ
 مِنْ اقْتَضَى بِسُورَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سَوْأَلٍ عَنْ هَلٍ بِلَمْ
 قَالَ أَبُو يَزِيدٍ: كُنْتُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً حَدَّادُ نَفْسِي، وَخَمْسِينَ سَنَةً مِرْأَةً
 قَلْبِي، وَلَقَدْ أَحْبَبْتُ اللَّهَ حَتَّى أَبْغَضْتُ نَفْسِي.

ثَوْرَهَا نَاشِطَةً عَقَالَهَا قَدْ مَلَأَتْ مِنْ بَدْنِهَا جِلَالَهَا
 فَلَمْ تَزَلْ أَشْوَاقَهَا تَسْوِقَهَا حَتَّى رَمَتْ مِنَ الْوَجِي رِحَالَهَا

(١) الوسن: النوم.

(٢) الكُمَيْت: الحصان الأحمر.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ما إذا على الناقة من غرامه
أراد أن تشرب ماء حاجر
إن لها على القلوب ذمّة
كانت لها على الصبا تحية
وامتدت الفلاة دون خطوها
فعللوها بحديث حاجر
لو أنه أنصف أو رثى لها
أرئيتها تطلب أم كلاها
لأنها قد عرفت بلباها
أعجلها السائق أن تنالها
كأنها قد كرهت زوالها
ولتصنع الفلاة ما بدا لها

* * * *

إخواني! قد دنا رحيلكم، وقد بان سبيلكم، وسيهجركم خليلكم،
وقد نصحكم دليلكم.

يا مقيمون ارحلوا للذهاب
نعموا هذه الأوجه الحسان
والبسوا ناعم الثياب ففي
بشفير القبور حطّ الركاب
فما صتموها إلا لعفر التراب
الحفرة تعرون عن جميع الثياب

كم ظالم تعدّى وجار، فما رعى الأهل ولا الجار، حلّ به الموت فحلّ
الإززار، وأدبر عن الأوامر فأحاط به الإدبار، ودار عليه بالدوائر فأخرجه
من الدار، وخلا بعمله ﴿ثَانِي أَثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠] ولكن لا ﴿فِي
أَفْكَارٍ﴾ [التوبة: ٤٠] فانتبهوا فإنها هي جنة أو نار.

يا من يُحدّثه الأمل فيستمع، ويخوّفه الأجل فلا يرتدع، وَصَلَ
الصالحون إلى المنى يا منقطع، وجوزوا على صبرهم - إي والله - لم يَضَعُ،



المذهباتُ

تلمح العواقب فتلثمحها للعقل وُضع، كأنه ما جاع قَطُّ من شَبَع.

إذا تلاقحت غروس المجاهدة تلاحقت ثمار المدائح.

أشرف الأوصاف أوصافُ الأشراف، وسادات العادات عادات
السادات، أحرارُ الشيم شيم الأحرار، أقدموا على الفضائل وتأخرت،
وقدموا الأهمم وأخرت، الشجاعُ يلبسُ القلب على الدرع، والجبان يلبس
الدرع على القلب.

وتكادُ الظُّبَا^(١) لما عودوها تتضي نفسها إلى الأعناقِ
وإذا أشفق الفوارس من وقع القنا^(٢) أشفقوا من الإشفاق
ومعالٍ لو ادعاهن سواهم لزمتهُ جناية السُّرَّاقِ

لوح للقوم فأجابوا، وكرّر الصياح بك وما تلتفت، إذا سمعوا
موعظة غرست في قلوبهم نخيل العزائم وأنت لا نبت لك.

إن بينك وبين القوم كما بين اليقظة والنوم، أين مسك من حمأة؟^(٣)
وبخور من بخار؟ وصفوة من قذى؟

دخلوا على عابد، فقالوا: لو رفقت بنفسك. فقال: من الرفق أُتيت.

اسمع يا كسلان! كانوا في طلب العُلا يجتهدون، ولا يرضون

(١) الظُّبَا: جمع ظبّة: وهي حدّ السيف.

(٢) القنا: الرماح، مفردا قناة.

(٣) الحمأة: الطين الأسود المتتن.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

بالدون، على أنهم يُعانون فيما يُعانون، القوم مع الحق حاضرون، عن الخلق غائبون، فقولوا لعاذليهم: لمن تعذلون؟

كان بشرٌ لا ينام الليل، ويقول: أخاف أن يأتي أمرٌ وأنا نائم^(١).

أتجدون يا إخواني ما أجد من ريح النسيم؟ باح مجنون عامر بهواه.
وما بحثُ حتى استنطق الشوق أدمعي وأذكرني عهد الحمى المتقادم

يا من كل يوم يقدم إلى القبر فارط، لا تغتر بالسلامة فربما قبض الباسط.

أخلُ بنفسك في دار المعاتبة، وأحضرها دستور المحاسبة، وارفع عليها سوط المعاقبة، فإن لم تفعل خسرت في العاقبة.

لقد وعظك أمس واليوم، وأنت من سنة إلى نوم! أين العشائر؟ أين القوم؟

اشتراهم البلى بلا سوم، لا فطر عندهم ولا صوم، بلى بلابل العتاب واللوم، هذا رشاش الموج يُنذر بالقوم، ويُخبر بالحداثات إشمامها والرّوم^(٢).

(١) وفي الصحيح: «أفضل القيام قيام داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، ولا يفتر إذا لاقى» فلجسمك عليك حق، ولا بد أن يأخذ حظه من النوم ليلاً وإلا أثر عليه نهراً، وكل الخير بحذافيره في السنة.

(٢) الإشمام: تحريك الشفتين بلا صوت، إشارة إلى الضمة المحذوفة بعيد الوقف على =



المُدْهَشَاتُ

واعجباً! بحرُ الوجود قد جمع الفنون: العلماء جوهره، والعبادُ عنبره،
والتجارُ حيتانه، والأشرار تماسيحه، والجُهَّال على رأسه كالزَّبَدِ.

يا من يسأل عن مراتب الصالحين، ما لك ولها؟ تساوم في الراحلة وما
تملكُ ثمن نعلٍ، تطلب سهماً من الغنيمة وما رأيت عيناك حرباً.
البلايا تُظهر جواهر الرجال، وما أسرع ما يُفتضح المُدَّعي.

رأى فقير في طريق مكة امرأة فتبعها، فقالت: ما لك؟
قال: قد سلب حُبُّك قلبي.

قالت: فكيف لو رأيت أختي؟ فالتفت فلم ير أحداً.
فقالت: أيها الكاذب في دعواه، لو صدقت ما التفت.

يا مؤثراً ما يفنى على ما يبقى، هذا رأي طبعك، هلاً استشرت عقلك
لتسمع أصحَّ النصائح، من كان دليله اليوم كان مأواه الخراب.

ويحك! اعزم على مجنون هواك بعزيمة، فرب شيطان هاب الذكر،
تلمح غبَّ الخطايا لعلَّه يكفُّ الكفَّ، لا تحتقرن يسير الطاعات فالذود إلى
الذود إبل، وربما احتيج إلى عويد^(١) منبوذ، لا تحتقرن يسير الذنب فإن

= الكلمة، ولا يكون إلا على الضم.

الرُّوم: إسماعُ الحركة للقريب دون البعيد، ولا يكون إلا في الكسر أو الضمَّة.

(١) عويد: تصغير عود.



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

العشب الضعيف يُقتل منه الجبل القوي، فيختنق به الجمل المُعتلم (١)
أو ما نفذت في سدّ سبأ حيلةٌ جُرذ (٢) من عرف شرف الحياة اغتنمها، من
علم أرباح الطاعات لزمها، وكم غرقت في بحر سَوِّف سفينة نفس!
يا هذا! أنت أجير و عليك عمل، فإذا انقضى الشُّغل فالبس ثياب
الراحة.

قال رجل لعامر بن عبد قيس: كَلِّمْنِي، فقال: أمسك الشمس.

دخلوا على الجنيد عند الموت وهو يصلي، ف قيل له: في هذا الوقت؟
فقال: الآن تطوي صحيفتي.

رحل القوم يا متخلف، وسبقوك بالعزائم يا مسوِّف، قف على الآثار
وقوف متلهّف، وضح بالدمع: سر يا متوقّف.

إخواني! المفروح من الدنيا هو المحزون عليه، وبقدر الالتذاذ يكون
التأسف، ومن فعل ما شاء لقي ما ساء.
الدنيا فلاة فلا تأمن الفلا (٣) لا تسكن إليها وإن أظهرت لك الولا،
فلينظر الإنسان يمنا فهل يرى إلا محنة، ثم ليعطف يسرة فهل يرى إلا
حسرة؟

(١) المعتلم: الهائج بسبب شدة الشهوة.

(٢) الجرذ: ذكر الفأر.

(٣) الفلا: الانقطاع.



المذهشات

أما الربع العامر فقد دَرَسَ، وأما أسدُ الممات ففَرَسَ (١) وأما الراكب فكبت به الفرس، وأما الفصيح فاستبدل الخرس، وقفت سفينة نجاتهم لأن البحر ييس.

آه لِنَفْسٍ رَفَلَتْ مِنَ الْغَفْلَةِ فِي أَثْوَابِهَا، فَتَوَى بِهَا الْأَمْرَ إِلَى عَدَمِ ثَوَابِهَا، آه لِعَيُونِ أَغْشَاهَا الْأَمْلَ فَسَرَى بِهَا إِلَى سَرَابِهَا، آه لِقُلُوبِ قَلْبِهَا الْهُوَى عَنِ الْقُرْآنِ إِلَى رَبَابِهَا فَرَبَابِهَا (٢).

يا مغرورين بحبة الفخّ! ناسين خنق الشّرك، تذكروا فوات الملتقط مع حصول الذبح ﴿فَلَا تَعُرَّتْكُمْ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣].

الحذر الحذر من صياد يسبق الطير إلى مهابطه بفخاخ مختلفة الحيل، قدّروا أنكم لا ترون خيط فخّه، أما تشاهدون ذبائحه في خيطه ﴿كَمَا أَخْرَجَ آبَاؤُكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧]؟

يا قلبُ كيف علقْت في أشراكهم ولقد عهدتُك تُفْلِتُ الأَشْرَاكَ
لا تشكونَ إليَّ وجرّاً بعدها هذا الذي جرّت عليك يداكا
ألا يصبر طائر الهوى عن حبة مجهولة العاقبة! وإنما هي ساعة ويصلُ
إلى برج أمنه، وفيه حبات.

(١) فرس: افترس وصاد.

(٢) ربابها: الأولى: الرابطة نوع من المعازف، والثانية: من الزيادة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

فإن حننتَ للحمى وطيبه فبالغضا ماءً وروضات أخرُ

فيا حاملي كتب الأمانة! أكثرتم على غير الجادة.

قطاةٌ غرّها شركُ فباتت تجاذبه وقد علق الجناح

فلا في الليل نالت ما تمنّت ولا في الصبح كان لها براح

لو صابرتم مشقة الطريق لانتهى السفر، فتوطّتم مستريحين في جنّات

عدن.

يا مهملين النظر في العواقب! لا ترموا بأسهم العيون ففيكم تقع.

رُبَّ راعي مقليةٍ أهملها، فأغير على السرح، من رأى الحقائق رأى عين

غض طرفه.

يا هذا! اعرف قدر لطف الله بك^(١) وحفظه لك، وإنما نهاك عن

المعاصي صيانة لك، لا لحاجته إلى امتناعك، لما عرفته بالعقل حرّم الخمر

لأنها تستره، ومثل يوسف لا يُجَبُّ.

يا متناولاً للمسكر! لا تفعل، يكفيك سُكْرُ جهلك، فلا تجمع بين

خليطين، اجعل مراقبتك لمن لا تغيب عنه، وشكرك لمن لا تُغْبِك^(٢)

(١) في الأصل (اعرف قدر لطفنا بك) وهذا الأسلوب استخدمه المصنف كثيراً ولا

أرى له وجهاً مستساغاً، بل لا يخلو من سوء أدب مع الله تعالى، فمهما وصل الحال

بالكاتب فينبغي أن لا يتجاوز وإن كان قصده سليماً.

(٢) الغب: الانقطاع.



المُدْهَشَاتُ

نَعْمَه، وطاعتك لمن لا ترجو خيراً إلا منه، وبكاءك على قدر ما فاتك منه،
وارفع إليه يد الذُّلِّ في طلب حوائج القلب تأتي وما تشعر.

يا هذا! عندك بضائع نفيسة، دموع ودماء وأنفاس وحركات وكلمات
ونظرات، فلا تبذلها فيما لا قَدْرَ له، أَيْصْلِحْ أن تبكي لفقد ما لا يبقى؟ أو
تتنفس أسفاً على ما يفنى، أو تبذل مهجة لصورة عن قليل تُحسى، أو
تتكلم في حصول ما يشين ويتوى^(١)؟

يا هذا! إن لم تقدر على كثرة العمل فقف على باب الطلب، تعرّض
بجذبة من جذبات الحق، ففي لحظة أفلح السحرة.

طريق الوصول صعبة، وفي رجلك ضعف، ويحك! دم على السلوك
تصل، أوّل النخلة السَّحُوق^(٢) فسيلة، بداية الأدمي الشريف مضغّة، ثمن
المعالي جدُّ الطالب، والفتور مُزمن.

يا من يرحل في كل لحظة عن الدنيا مرحلة، وكتابه قد حوى حتى
قدر خردلة، كن كيف شئت، فبين يديك الحساب والزلزلة، واعجباً من
غفلة مؤمن بالجزاء والمسألة، أيقين بالنجاة أم غرورٌ وبَلَه؟

تبني وتجمع والآثار تندرُسُ وتأملُ اللبثُ والأرواح تُختلسُ

(١) يتوى: يهلك.

(٢) السحوق: الطويلة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

تالله لقد كَشَفْتَ الْغَيْرُ مَا انسدل، فلم يبق مرءً ولا جدل، يا من
عمره كزمان الورد، يا شمس العصر على القصر، قد بلغ مركبك ساحل
الوفاة، ووقف بَعِيرُكَ على ثنية الوداع، وبقي من ضوء الأجل شفق،
فاستدرك باقي الشعاع قبل غروب الشمس.

أَيُنْفَقُ الْعَمْرُ فِي الدُّنْيَا مَجَازِفَةً وَالْمَالُ يَنْفَقُ فِيهَا بِالْمَوَازِينِ
البدار البدار قبل الفوت، الحذار الحذار قبل الموت، ما في المقابر من
دفين إلا هو متألم من سوف.

يا هذا! متى تبت بلسانك، وما حللت عُقَدَ الإصرار من قلبك لم
تصحَّ التوبة، يا هذا! إذا لم يتحقق قصد القلب لم يؤثر النطق باللفظ، إن
المكره على اليمين لا تنعقد يمينه «إنما الأعمال بالنيات»^(١)، وقلبك كله مع
الهوى «إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد وإذا فسدت فسد
الجسد ألا وهي القلب»^(٢).

أكثر الأمراض أمراض الهوى، وأكثر القتلى بسيفه، أرباب الهوى
أطفال في جُحُور العادات وإن شابوا.

واعجبًا! الظاهر غير طاهر، والباطن باطل، منامُ المنى أضغاث
أحلام، رائد الآمال كذوب، العجز شريك الحرمان، التفريط مضارب

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.



المذهشات

الكسل.

ظلمتُ أكرُّ عليه الرُّقى وتأبى عريكته^(١) أن تلينا
يا هذا! المجاهدة حرب، لا يصلح لها إلا بطلٌ، كُن قَيِّماً على
جوارحك، وفِّها الحظوظ، واستوف منها الحقوق.

* * * *

إخواني! أيام العافية غنيمة باردة، وأوقات السلامة لا تُشبهها فائدة،
فتناول ما دامت لديك المائدة، فليست الساعات الذاهبات بعائدة.

مضى أمسك الماضي شهيداً وأتبعه يومٌ عليك شهيدٌ
مُعَدَّلاً^(٢) فبادر بإحسان وأنت حميد
فإن تك بالأمس اقترفت إساءةً لعل غداً يأتي وأنت فقيدٌ
ولا تُبق فعل الصالحات إلى غدٍ

كأنكم بالقيامة قد قامت، وبالنفس الأمارة بالسوء قد لامت،
وانفتحت عيون طالما نامت، تحيَّرت قلوب العصاة وهامت.

غداً تُوفِّي النفوس ما كسبت ويحصدُّ الزارعون ما زرعوا
إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإن أساءوا فبئس ما صنعوا

(١) عريكته: طبيعته.

(٢) شهيداً مُعدَّلاً: أي شاهداً عدلاً.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

يا هذا! إنك لم تنزل في حبسٍ، فأول الحبوس: صلب الأب، والثاني: بطن الأم، والثالث: القمّاط^(١)، والرابع: المكتب^(٢)، والخامس: الكدُّ على العيال، والسادس: الموت، والسابع: القبر، فإن وقعت في الثامن^(٣) نسيت مرارة كلِّ حبس.

يا هذا! ادخل حبس التقوى باختيارك أيامًا، ليحصل لك الإطلاق في الأغراض على الدوام، ولا تؤثرنَّ إطلاق نفسك فيما تحب، فإنه يورث حبس الأبد في النار.

قوي حَصْرُ الخوف عند المتقين فاشتد كربهم، فكَلِّمها هب نسيمٌ من الرجاء ولّوا وجوهم شطره.

يا طربًا لنفحة نجديةٍ أَعَدُّ حَرَّ القلب باستبرادها
وما الصِّبار يَحِي لولا أنها إذا جَرَّت مرّت على بلادها
عبارة النسيم لا يفهمها إلا الأحباب، وحديث البروق لا يروق إلا للمشتاق.

العاقل غائب عند ذكر الدنيا، وحاضر عند ذكر الأخرى، ومن سمع ذكر الحبيب ولم يثر قلبه عن مستقره فهو مدّع.

(١) القمّاط: ما يُشد به الصبي في المهده، وتسميه العامة «المهاد».

(٢) المكتب: الكتاتيب والمدارس.

(٣) لعله أراد موقف الحساب.



المُدْهَشَاتُ

آهٍ لِنَفْسٍ أَقْبَلْتَ عَلَى الْعَدُوِّ وَقَبَّلْتَ، وَبَادَرْتَ إِلَى مَا يُؤْذِيهَا مِنَ الْخَطَايَا
وَعَجَّلْتَ، مَنْ لَهَا إِذَا سَأَلْتَ عَنْ قَبِيحِهَا فَخَجَلْتَ؟ وَسَأَلَ عَلَيْهَا سَيْفُ
الْعِتَابِ فَتَقَلَّتْ؟

يَا مُتَعَبًا نَفْسَهُ بِالْحَرَصِ، وَالْقَدْرَ مَا يَتَغَيَّرُ، الرَّاضِيَ مُرْفَهً، كَمْ غَرَقَتْ
سَفِينَةً مُهْجَةً فِي جُحَّةِ الْحَرَصِ، الطَّمَعُ يَخْنُقُ الْعَصْفُورَ قَبْلَ الْفَخِّ، لَمَّا قَنَعَتْ
الْعَنْكَبُوتُ بِزَاوِيَةِ الْبَيْتِ سَيِّقَ لَهَا الْحَرِيصَ وَهُوَ الذَّبَابُ، فَصَارَ قَوْتًا لَهَا،
وَصَوَّتَ بِهِ لِسَانَ الْعِبْرَةِ: رَبِّ سَاعٍ لِقَاعِدِ.

تُرْسَلُ قَلْبِكَ مَعَ كُلِّ مَطْلُوبٍ مِنَ الْهُوَى، ثُمَّ تَبْعَثُ وَرَاءَهُ وَقْتَ
الصَّلَاةِ وَلَا يَلْقَاهُ الرَّسُولُ، فَتَصِلِي بِلَا قَلْبِ.
يَا مَنْ قَدْ فَدَقَ قَلْبَهُ لَا تَيَأَسْ مِنْ عَوْدِهِ.

وَقَدْ يَجْمَعُ اللَّهُ الشَّيْئَتَيْنِ بَعْدَمَا يَظَنَّانِ كُلَّ الظَّنِّ إِلَّا تَلَاقِيَا
الهُوَى قَاطِنٌ^(١) وَالصَّوَابُ خَاطِرٌ، وَقَلْعُ الْقَاطِنِ صَعْبٌ، وَإِمْسَاكُ
الْخَاطِرِ أَصْعَبُ، الْهُوَى مُتَدَيِّرٌ^(٢) وَالْمَوَاعِظُ نَزَالَةٌ^(٣) وَمَعَ مُدَارَةِ الْجَمَلِ
تَصِلُ.

لَمَّا تَزِينَتْ زَخَارِفَ الدُّنْيَا، تَوَاقَبَتْ جُهَالُ الطَّبَعِ لِاتِّبَاعِ الْهُوَى، فَبُعِثَتْ

(١) قاطن: مقيم، أما المسافر فهو الظَّاعِنُ.

(٢) متدبير: متخذ دارًا.

(٣) نزالة: النزيل: الضيف.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

العقل كأفاهم، فأقام عندهم موكلًا بهم، وكلّمًا زاد في قيودهم فكّوا
السلاسل، وكلّمًا تلا عليهم النصائح، أسمعوا القبائح.
واعجبًا للبقاع تبكي على أناس وتبكي من آخرين.
العبارات حظ النفوس، والإشارات قوت القلوب^(١).

إخواني! ألا ذو سمع وبصر، يعلم أن الأعمار فيها قصر، ألا مُتلمّحٌ ما
في الغير من العبر، ألا ذاكرٌ بيت التراب والمدر.

تنبّه فإن الدهر ذو فجعاتٍ	وشملٌ جميع صائرٍ لشتاتٍ
هل المرء في الدنيا الدنية ناظرٌ	سوى فقد حِبٌّ أو لقاءٍ مماتٍ
سيُسقى بنو الدنيا كؤوس حتوفهم	إلى أن يناموا لا منام سُباتٍ
وما فوجئت نفسٌ ببلوى وقد رأت	عظاتٍ من الأيام بعد عظاتٍ
إذا بغت أشياء قد كان مثلها	قديماً فلا تعتدّها بَغتاتٍ
وأعقب من النوم التنبّه راشدًا	فلا بد للنوام من يقظاتٍ

يا من يجول في المعاصي قلبه وهمّه! يا معتقدًا صحته فيما هو سقمه! يا
من كلما طال عمره زاد إثمّه! أين لذة الهوى؟ رحل المطعوم وطعمه، يا

(١) مبدأ الإشارات في المحبة سائغ ولكن منتهاها ممنوع لأنه مفضٍ إلى ما ينعتهونه
بالعشق الإلهي وهذا سوء أدب مع الله تعالى، بل قد تصل إلى اعتقاد وحدة الوجود
عند بعض المخدولين.



المذَهَبَاتُ

من سيجمعه اللحد عن قريب ويضمُّه، كيف يُوعظ من لا يعظه عقله ولا فهمه؟ كيف يُوقظ من قد نام قلبه لا عينه ولا جسمه؟

واعجباً لبهيم يتشبه بالناس، ولإنسان يتشبه بالبهيم، كل هذا سببه الهمة، لا يطمعن البطال في منازل الأبطال، إن لذة الراحة لا تُتناول بالراحة، من زرع حصد، ومن جدّ وجد.

وكيف يُنال المجدُّ والجسمُ وادعُ وكيف يُحازُ الحمدُ والوفرُ^(١) وافرُ
أَيُّ مطلوب نيل من غير مشقة؟ وأي مرغوب لم تبعد على مؤثره
الشُّقَّةُ؟ المال لا يحصل إلا بالتعب، والعلم لا يُدرك إلا بالنصب، واسم
الجواد لا يناله بخيل، ولقب الشجاع بعد تعب طويل.

لا يُدركُ المجدَّ إلا سيّدُ فطنٍ لما يشقُّ على السادات فعّالٌ
لولا المشقة ساد الناس كلُّهمُ الجود يفقر والإقدام قتالٌ
يا أعجمي الفهم! متى تفهم؟ يا فرحاً بلذة عقباها جهنم! ستدري
متى تبكي ومتى تندم؟ يا عاشق الدنيا كم مات مُتيم!

إخواني! اليوم رجاؤنا للرحمة قوي، فكيف نصنع غداً إن ضَعُفَ؟
يا صبا نجدِ وبانات الغضى ارفقابي في التشنّي والهبوب
يا ركب التوبة! إن تزودتم فالتقوى، واهّا لرسالة متلهّفٍ تحوي على

(١) الوفر: المال الكثير، وافر: مخزون.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

حسرة مُحْصِرٍ.

فعندي زفيرٌ ما ترقى إلى الحشى وعندي دموع ما بلغن المآقيا
سيدي إن لم أصلح للرضا فالعفو العفو.

* * * *

إخواني! أما يُنبهه على استعداد الزاد سلبُ الآباء وأخذ الأجداد؟ أما
يُحرك إلى التيقُّظِ ونفي الرقاد عكسُ المشتهى وردُّ المراد؟

لنا كل يوم دمة خلف ذاهب ومُسْتَهْلَكٌ بين النوى والنواب (١)
ونأمل من وعد المنى غير صادقٍ ونأمن من وعد الردى غير كاذب
نُراع إذا ما شيك أخصُّ بعضنا وأقدأنا ما بين شوك العقارب
نعم إنما الدنيا سهامٌ لطاعم وخوفٌ لمطلوبٍ وهمٌ لطالب
وإننا لنهواها مع الغدر والقلى (٢)

أئي مطمئن لم يُزعج؟ أي قاطن لم يُخرج؟ فرسُ الرحيل لنا مسرح.
شرطُ المقام الرحيلُ، وقد تقاضى بشرطه، أما لك عبرة في رفع الزمان
وحطه (٣) أما ترى رقوم المنايا مكتوبة بخطه، هلاً تصوّر العاصي ساعة
إنزاله إلى القبر وحطه.

(١) النوى: البعد، النواب: المصائب.

(٢) القلى: البغض.

(٣) بإذن الله تعالى، ونسبتها للزمان لأجل الظرفية الزمانية لا الفعلية.



المذهشات

هب البعث لم تأتأرُسُلُهُ وجامِحَةُ النار لم تُضرمِ
أليس من الواجب المستحقُّ حياءُ العباد من المنعم؟!

أقلُّ نعمه أن أوسع عَرَصَةَ^(١) الوجود، لئلا يضيق نَفْسُ النَّفْسِ
بالحُصْر، وأجرى بحر الهواء في جوف الفضاء يُقتسمُ بمكاييل الخياشيم،
فيصل بالعدل إلى ذوات الذوات، واعجباً للغافلين عن هذا المنعم!

بماذا اشتغلوا؟ أجهلاً بوجوده؟ فهو أوضح من ضحى، أم ميلاً إلى
الدنيا؟ فهي غادرة، إن سَلِمْتَ فنتت، وإن تلفت أهلكت!

وقع نملٌ على نيلوفر^(٢) منتشر الورق، فأحب ريحه فأقام، فلمَّا تقبَّض
الورقُ وغاص هلك العاشق.

إخواني! إياكم والذنوب، فإنها أذلت عزيز ﴿سَجْدُوا﴾ [البقرة: ٣٤]

وأخرجت مقطع ﴿أَسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥] ولولا لطف ﴿فَلَقَى﴾ [البقرة: ٣٧]
كان العجب، استراح آدم إلى بعض العناقيد، فإذا به في العنا^(٣) قيد.

شَمَّتَ به إبليس حين نزل، وما علم أن نزوله إلى دار التعبد صعود،
كنزول الغائص خلف الدر صعود، رأى في بدايته طيناً قد صلصل، وبذارٍ
قد عَفِنَ، ونسي أنه سَتَهَتَّرُ طاقاته في ربيع ﴿فَلَقَى﴾ [البقرة: ٣٧].

(١) عرصة: الفناء الواسع بين الدور جمعها عراص وعَرَصات.

(٢) نيلوفر: نبات ذكي الرائحة.

(٣) العنا: التعب والمشقة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

ويلك يا إبليس! ما جرى على آدم هو المراد من وجوده «لو لم تذبوا»^(١).

قدحٌ أريد كسره فسلم إلى مرتعش.

فلولا غليل الشوق أو لوعة الأسي لما خلقت لي أعينٌ وجفونٌ
إذا سمعت ﴿أَهْبِطُوا مِنْهَا﴾ [البقرة: ٣٨] فَلكَ خَلَقَهَا، إنما أُخْرِجَتَ إلى
مزرعة المجاهدة، فإذا حصدت فعد.

إن قيل لك مرة ﴿أَهْبِطُ﴾ [هود: ٤٨] ففي كل يوم تُنادى ألف ألف
مرة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] إن أبعدت عن الحضرة مرة،
فزيارة الحبيب ما تنقطع «هل من سائل»^(٢).

يا ابن آدم! قد ذقت حلاوة الذنب، وتطعمت مرارة الندم، فهل وفّت
هذه بتلك؟

أين لذاتك إذا نزل الموت؟ كيف حسراتك إذا وقع الفوت؟

يا صبيان التوبة! اشكروا من نجاكم بالإنابة ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ

(١) رواه أحمد ومسلم، ولفظه عنده «والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم وجاء
بقوم يذبون فيستغفرون الله فيغفر لهم».

(٢) رواه أحمد ومسلم ولفظه «إن الله يُمهّل حتى إذا ذهب ثلث الليل الأول نزل إلى
الساء الدنيا فيقول: هل من مستغفر؟ هل من تائب؟ هل من سائل؟ هل من داع؟
حتى ينفجر الفجر».



المذهشات

النَّارِ ﴿آل عمران: ١٠٣﴾ تذكروا عظمة من عاهدتم ﴿وَلَا نَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ [النمل: ٩١].

لا تزدروا أثواب الزهد فعليةا أنوار المهابة ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النمل: ٦] لا يصعبن على الخيل تضميرها، فستفرح به يوم السباق.

إذا قال رفقاًوك: امش معنا ساعة، فقل: أقعدني الخوف.

أيها التائب! قل لقلبك الراعي في رياض الهدي، احذر من لفتة إلى خضراء دمن الهوى^(١) فمرعاك أطيب، وشرابك أعذب، نسيم الريح يقوي الروح ما لم يختلط به بخار ردي، كذلك كلام المذكرين، إذا سلم من بدعة كان قوتاً للنفس، وإن مازجه هوى، هوى بصاحبه إلى العلل.

يا دار الأحباب أقوى^(٢) جديدها، أين أسودها؟ أم أين غيدها؟^(٣)
مرّت ظباء الهوى فمن يصيدها؟ تساوى في القبور مواليتها وعبيدها.
قف يا حبيبي بالرسوم، وانظر نسخ النسيم بالسّموم، وتبديل الأفراح بالغموم، هيئات إن الدنيا لا تدوم، إنها على قتلك تحوم.

(١) خضراء الدمن: ما ينبت على المزامل والروث من عشب.

(٢) أقوى: خلا.

(٣) غيدها: جمع غيداء وهي المرأة الناعمة.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

أيها الباكي على أقاربه الأموات، ابك على نفسك فالماضي قد فات،
وتأهب لنزول البلايا وحلول الآفات، وتذكر قول من إذا ذكرك قال:
مات. كأنك بما أتى الماضين قد أتاك، وقد صاح بك نذيرهم، أنت غداً
كذلك، إنما اليوم لهذا وغداً لذلك.

أنافي القبر وحييدٌ قد تبرأ الأهل مني
أسلموني بـذنوبي خبتُ إن لم تعف عني
آه للدنيا ملكت القلب حين ملكت، وأبقت الهمة ثم أبقت، لو تأملت
عيب الدنيا لهان طلاقها، كم تألفت بحلو مذاقها ثم أتلفت بمر فراقها.
إخواني! عيون يقينكم رَمدة، والفكر تبريد^(١)، من أيقن بالموت كيف
يفرح؟ من علم قرب الحساب كيف يلهو؟ من عرف تقليب القلوب
كيف يأمن؟

كان سفيان الثوري من شدة خوفه يبول الدم.
إن لم تكن مع القوم في السَّحر، تلمَّح آثار الحبيب عليهم وقت
الضحى، ترى في صحائف الوجوه سطور القبول بمداد الأنوار، وجوه
زهاها الحسن أن تترفعاً.

وما تلوم جسمي عن لقاءكم إلا وقلبي إليكم شيق عجل
وكيف يقعد مشتاق يحرکه إليكم الحافزان الشوق والأمل

(١) تبريد: من برد عينه بالبرود كحلها به تكحياً.



المُدْهَشَاتُ

سبحان من فاوت بين القلوب، فمنها ما لا يصلح إلا لخدمة الدنيا،
ومنها ما لا يصلح إلا للتعبد، ومنها روحاني مشغول بمحبة الخالق^(١).

أروح وقد ختمتُ على فؤادي بحبك أن يحل به سواكا
فلو أني استطعت غضضت طرفي فلم أبصر به حتى أراكا
أحبك لا ببعضي بل بكلي وإن لم يُيق حبك لي حراكا
ويقبحُ من سواك الفعل عندي فتفعله فيحسن منك ذاكا
وفي الأحباب مختصّ بوجد وآخر يدعي معه اشتراكا
إذا اشتبكت دموع في حدود تبين من بكى ممن تباكى
فأما من بكى فيذوب شوقاً وينطق بالهوى من قد تباكى

النهار يزيد في كُربِ المحب، والليل يروّحه السّحر، روضةً نجديةً
يجد فيها المحب ضالّةً وجدّه، شراب المناجاة يروي ظمأ المحبين.

يذكرني مرُّ النسيم عهدكم فأزداد شوقاً كلما هبت الريحُ

كلما قوي حامل المحبة، زيد في حمله «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم
الأمثل فالأمثل»^(٢).

فورانُ قدرِ القلب من قدرِ شدة الإيقاد.

(١) أي أن كل حياته لله وهذا محض الإيمان.

(٢) رواه أحمد والترمذي وقال: حسن صحيح.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

كان نبينا ﷺ يصليّ ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل من البكاء (١) كان
الوحي إذا نزل عليه وهو على ناقته أتر فيها، فربما وتدّت يديها في
الأرض، وربما بركت لثقل الوحي (٢).

إيه أحاديث نعمان وساكنه إن الحديث عن الأحباب أسماؤ
أفتش الريح عنكم كلما نفحت من نحو أرضكم نكبأء معطار

يا هذا! اشتغلت بفنون تعليك عن ذكر تحويلك، وستسلب من
أخيك وخيلك، وتُسأل عن تخييصك وتخيلك.

كأنك بالمضي إلى سبيك وقد جدّ المجهّز في رحيلك
وجيء بغاسل فاستعجلوه بقولهم له افرغ من غسيلك
ولم تحمل سوى كفن وقطن إليهم من كثيرك أو قليلك
وقد مدّ الرجال إليك نعشاً فأنت عليه ممدود بطولك
وصلوا ثم إنهم تداعوا لحملك في بكورك أو أصيلك
ولما أسلموك نزلت قبراً ومن لك بالسلامة في نزولك
أعانك يوم تدخله رحيمٌ رؤوف بالعباد على دخولك
فسوف تجاور الموتى طويلاً فدعني من قصيرك أو طويلك
أخي إني نصحتك فاستمع لي وبالله استعنت على قبُولك

(١) رواه أبو داود والنسائي وصححه النووي.

(٢) رواه أحمد والطبراني.



المذهشات

ألست ترى المنيا كل يوم تصيبك في أخيك وفي خليلك
يا هذا! لقد حَمَلت على نفسك ما يثقلها، فحسبك ما قد مضى،
أتقتلها؟ يا طول سفرَةِ الموتِ أوَّها.

العلم والعمل توأمان أمُّهُما علو الهمة.

أيها المعلم تأنّ على المبتدي ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١] فللعالم رسوخ
وللمتعلم قلُّ.

ويا أيها الطالب تواضع في الطلب، فإن التراب بيننا هو تحت الأخص
صار طهورًا للوجه، السهر مرقى إلى أطيّب مرقد.

الهونُ في ظلّ الهوينا كامنٌ وجمالة الأخطار في الأخطار^(١)
ليس من غاص في قرار البحر حتى وقع بالدرّ اليتيم كمن قعد على
الساحل بجمع الصّدَف.

كم تُنذر الدنيا ولا نسمع! وكم تُؤيسُ مُحبَّها من وصلها ويطمع!
فالعجب من فطنٍ غرّه سرابٌ بلقع. الدنيا دارٌ كَدَرٍ، بذلك جرى القدر،
فإن صفا عيشٌ لحظةً نَدَرَ، ثم عاد التخليط فيذرُ الورود فيها كالصّدَر^(٢)،
ودم قتيلاها هَدَر.

(١) الأخطار الأولى: الشرف والرفعة، الثانية: الإشراف على المهلاك.

(٢) الورود: المجيء للماء، الصّدَر: الرجوع عن الماء.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

المراء من دنياه في كَلْفٍ ومأله فيها إلى التَّكْفِ
ولكل شيء فائت خلفٌ وحياتنا فوتٌ بلا خَلْفِ

لله درُّ أقوام علموا قرب الرحيل، فهيئوا آلة السفر، وهونوا بالدنيا
فقنعوا منها بما حضر، واستوثقوا بقفل التقوى من أذى النطق والنظر،
مالك خبرٌ بما لهم ولا عندك منهم خبر، قاموا في الجِدِّ وقعدت، وسهروا
في الدجى وورقدت، هذا طريقهم فأين السالك؟ أترضى بالتأخر عنهم؟

وأثقلٌ محمولٌ على العين ماؤها إذا بان أحبابٌ وعزَّ إيابُ

نام العلاء بن زياد ليلة عن ورده فَجُذِبَ من نومه بناصيته وقيل له:

قم إلى صلاتك، فما زالت تلك الشعرات قائمةً باقي حياته ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا
تَذْكِرَةً﴾ [الواقعة: ٧٣].

تالله ما تُعشق الأماكن لذاتها، بل لسالف لذاتها، لك يا منازل في

القلوب منازل.

وما شَرَقِي بالماء إلا تذكراً لماءٍ به أهل الحبيب نزولُ

يا عجباً لك! تتسمى باسم تاجر، وتُخاصم على الدرهم وتُشاجر،
وتُصابر لربح القيراط الهواجر، وتغضبُ لأجل الحبة وتُهاجر، وترضى في
أفعالك باسم فاجر، أما لك من عقلك ناهٍ ولا زاجر؟ يا من نومه كثير



المُدْهَشَاتُ

وانتباهه نادر! إن دُعيتَ إلى التوبة سَوِّفْتَهَا، وإن قمتَ إلى الصلاة سَفَفْتَهَا^(١)، وإن لاح وجه الدنيا تَرَشَّفْتَهَا، تالله لو علمتَ جنايتها لعَفَفْتَهَا، أنسيتَ تلك الذنوب التي أسلفتها، أه لبضائعِ عُمَرِ بذرتَ فيها وأتلفتها، كم تَعُدُّ بالإنابة وكل الوعود أخلفتها.

ابكِ لما بكِ، واندب في شيبك على شبابك، وتأهب لسيف المنون فقد علق الشبا^(٢) بكِ.

قد كان عمرك ميلاً فأصبح الميل شبراً
وأصبح الشبر عُقْداً فأحفر لنفسك قبراً
يا محبوباً في سجن هَوَاهُ متى تتخلص؟ لو عرفت ألفتَ، لله أحبابٌ
لهم ألبابٌ هم اللُّباب^(٣) شغلهم على الدوام المحراب، حاضرون معكم
بالأبدان وبالقلوب غُيَّابٌ.

ما نال الصالحون ما نالوا إلا بترك ما نطلبه وما نالوا، كانت همهم في طلب الفضائل تغلي في القلوب غليان ما في القدور، تخايل القوم لذَّة الثواب فسُهلت عليهم مرارات الصبر، وتصوِّروا خلود الأبدان فهان عليهم بذل النفوس، جَدُّوا في الجدِّ فما سكنوا حتى سكنوا الجنة، فلو رأيتهم في الجنان يسرحون، منطلقين في أغراضهم يمرحون، لا يدرون بأي

(١) سَفَفْتَهَا: يقال: سَفَفَ العمل: لم يُحْكَمْهُ.

(٢) الشبا: جمع شباه وهي من كل شيءٍ حَدُّ طَرَفِهِ.

(٣) اللُّباب: الخالص من كل شيءٍ.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

مطلوب يفرحون، بالنجاة من النيران؟ أم بالخلود في الجنان؟ أم بالخيرات الحسان؟ أم برضى المليك الديان؟ لقد نالوا من المراد ما لم يكن في الحسبان، من تلمح جَوْلَانْ مُصَمَّرِ الصابرين رأى من قوة قرّة العين ما لا يدخل تحت حدّ قياس، وجملة المبذول من الثمن ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤].

من ركب الهوى هوى به، والنفس إذا استعملت التقوى تقوى به.

وكم ذنب أتيت على بصيرة وعينك بالذي تأتي قريرة
تُحاذر أن تراك هناك عينٌ وإنّ عليك للعين البصيرة
وكم من مدخلٍ لومتّ فيه لكنت به نكالا في العشيرة
وُقيت السوء والمكروه منه ورُحت بنعمة فيه ستيره

يا متردداً في التوبة! سارع ولا تقف، إلى متى أعمالك كلّها قباح؟ أين شارب الراح^(١) راح إلى القبر تسفي عليه الرياح، حلّ للبلبلى وللدود مباح، لهما اغتباقٌ به ثم اصطباح، عليه نطاق من التراب ووشاح. هذا حادي الرحيل قد استعجلك، فالبدار البدار، خلّ كسلك ودع التواني فالتواني قد قتلك.

يا معدوداً مع الشيب في الصبيان! يا واقفاً في الماء وهو ظمان! يا عارفاً بالطريق وهو حيران! أما وُعظت بأي القرآن؟ أما زجرت بنأي

(١) الراح: الخمر.



المُدْهَشَاتُ

الأقران؟ أما تعتبر بصروف الزمان؟ أتعمر المنزل وعلى الرحيل السكّان؟
أما يكفي وعظ ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢١] تسافر بيضائع الأمانة وما
تنزل إلا في خانٍ من خان^(١)، أفعالك كلها مكتوبة فيا ليت ما كان ما
كان^(٢)؟ ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَىءِ آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠].

نُرَاعُ إِذَا الْجَنَائِزُ قَابَلْتَنَا ونسكنُ حينَ تَخْفَى ذَاهِبَاتِ
كروعةٍ ثُلَّةٍ لظهورِ ذئبٍ فلما غاب عادت راتعاتِ
يا ابن آدم! أنت بين ذنب لا تدري أغفر؟ وحسنة لا تدري أقبلت؟
فأين الانزعاج؟ يا أطفال الهوى! أين أنتم والرجال؟

يا هذا! إذا هممت بخير فبادر لئلا تغلب، وإذا هممت بشرّ فسوف
هواك لعلك تغلب^(٣) ثقّف نفسك بالآداب قبل صحبة الملوك، فإن
سياسة الأخلاق مراقبي المعالي.

قال بُزْرَجُ جَهْمَر^(٤): أخذت من كل شيء أحسن ما فيه، حتى من
الكلب والهَرِّ والغراب.

(١) خان الأولى: النزول والفندق، والثانية: من الخيانة.

(٢) ما كان الأولى: الذي كان. والثانية: لم يكن.

(٣) كما قيل:

وَإِذَا تَشَاجَرَ فِي فِؤَادِكَ مَرَّةً أمران فاعمد للأعف الأجمَلِ
وَإِذَا هَمَمْتَ بِأَمْرٍ سَوْءٍ فَاتَّئِدْ وإذا هممت بأمر خيرٍ فاعجلِ

(٤) بزرجهمر: وزير كسرى أنوشروان، وكان حكيمًا.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

قيل: ما أخذت من الكلب؟

قال: ذبُّه عن حريمه، وإلفُه لأهله.

قيل: ما أخذت عن الهر؟

قال: رفقتها عند المسألة، ولينُ صياحها.

قيل: ومن الغراب؟

قال: شدة حذره.

إخواني! من عرف ما بين يديه لم يؤثر الهوى ولم يلتفت إليه.

كم فرح بشهر وإهلاله، مُتَهَلِّلٍ لرؤية هلاله، اختطفه الموت في خِلَالِهِ، كم مائلٍ إلى جمع ماله، تركه تركَةً ومرَّ بأثقاله، هل رحم الموت مريضاً لضعف أوصاله؟ هل ترك كاسباً لأجل أطفاله؟ وكم أَيْتَمَ طفلاً صغيراً ولم يُياله؟

أليس إلى الآجال هَيْوِي وخلفنا من الموت حادٍ لا يُغْبُ عَجُولٌ (١)
بينما محب الدنيا في اختيال ومرح، وكلما جاء باباً من أبوابها فُتِح، قدح
زناد العمر في حرّاق القِدَح.

بينما المرء غافلٌ إذ أتاه من يد الموت سالبٌ لا يُصدُّ

(١) لا يُغْبُ: لا ينقطع.



المُدْهَشَاتُ

إلى كم تعصي وتتمرد؟ وأقبح من قبيحك أنك تتعمد، تخلص من
أسر الهوى فإلى كم مقيد؟

يا ليت شعري ما ادخرت ليوم يؤسك وافتقارك
فلتزلن بمنزلٍ تحتاج فيه إلى ادخارك

قيل للحسن: ما بال المتهجدين بالليل من أحسن الناس وجوهاً؟

قال: لأنهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره.

رحم الله أعظمًا طالما نصبت وانتصبت، جُنَّ عليها الليل فلما تمكن
وثبت وثبت، إن ذكرت عدله رهبت وهربت، وإن تصوّرت فضله
فرحت وطربت، حسبك أن قومًا موتى تحيا بذكرهم النفوس، سلامُ الله
على تلك القبور، ورضوان الله حشو تلك اللحود.

أماكن تعبدهم باكية، ومواطن خلواتهم لفقدهم شاكية، زال التعب
وبقي الأجر، وذهب ليل النَّصَبِ وطلع الفجر.

يا هذا! هون بأمر الدنيا تهن، وقدّر أنها قطّ لم تكن، واحفظ دينك من
مكرها وذن، فمتى ووقت؟ ومتى لم تخن؟

لا تلق دهرك إلا غير مكترثٍ ما دام يصحبُ فيه روحك البدنُ
فما يدوم سرورٌ ما سررت به ولا يرُدُّ عليك الفأنت الحزنُ



متخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

إنما الدنيا حلم نائم، وقائلة راقد، ومعبر معتبر، وضحكة مستعبر^(١)، تالله ما أعجبَ بهاها من نظر في مآلها، ولا بنى قصورها من عرف غرورها.

أما سمعتم منادي ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْتَهُمُ﴾ [الكهف: ٥٩] أما ينذركم إعلام ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ﴾ [هود: ١٠٢]؟ أما يفصم عرى عزائمكم ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ﴾ [الأنبياء: ١١] أما يقصُر من قصوركُم ﴿وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥] أما سمعتم هاتف العبر ينادي ﴿فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ﴾ [العنكبوت: ٤٠]؟ إذا رأيتم المبارزين بالخطايا قد اتسع لهم مجال الإمهال فلا تستعجل لهم ﴿أَنَّمَا نُمِّلِي لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٨]، بينا القوم على غرور سرورهم ﴿أَخَذْنَاهُمْ بِغَتَّةٍ﴾ [الأنعام: ٤٤] يا سالكي سبيلهم انحرفوا عن هذه الجادة.

يا هذا! ظلمك لنفسك غاية في القبح، إلا أن ظلمك لغيرك أقبح. ويحك! إن لم تنفع أخاك فلا تؤذه، وإن لم تعطه فلا تأخذ منه، لا تشابهن الحية، فإنها تأتي إلى الحفر الذي قد حفره غيرها فتسكنه، ولا تتمثلن بالعقاب، فإنه يتكاسل عن طلب الرزق، ويصعد على مرقب عال، فأى طير صاد صيداً أتبعه، فلا تكون له همّة إلا إلقاء صيده والنجاة بنفسه.

(١) المستعبر: الباكي.



المذهشات

في الحيوانات أحياناً وأشرار كبنى آدم، فالتقط خير الحلال، وخلّ خسيسها، ولا تكن العصافير أحسن منك مروءة، إذا أوزي أحدها صاح فاجتمعن لنصرته، وإذا وقع فرخها طرن حوله يعلمنه الطيران.

يا هذا! تخلّق في إعانة الإخوان بخلق النملة، فإنها قد تجد جرادة لا تطيق حملها فتعود مستغيثة بأخواتها، فترى خلفها كالحيط الأسود قد جئن لإغاثتها.

هيهات إن الطبع الردي لا يليق به الخير، هذه الخنفساء إذا دُفنت في الورد لم تتحرك، فإذا أُعيدت إلى الروث رتعت، وما يكفي الحية أن تشرب اللبن حتى تمجّ سمّها فيه، وكلُّ إلى طبعه عائد، إلا أن الرياضة قد تزيل الشر جملة، وقد تخفف، إن دُمت على سلوك الجادة رجونا لك الوصول، وإن طال السرى.

يا هذا! إذا لم تطق منازلة الحرب فكن من حراس الخيم.

إذا رأيت الباب مسدوداً في وجهك، فارض بالوقوف خارج الدار مع السؤال.

إذا لم تُظفرك الحروب فسالم، أترى يصلح هذا القلب بعد الفساد؟ أترى يتبدل بالبياض هذا السواد؟ كم أقول: عسى أصلح ولعل؟ وكلما استوى قدمي زلّ، كم تتغير الأحوال وما أتغير! كم تتضح لي الطريق وأتحرّر!



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

لله أمرٌ من الأيام أطلبه هيهات أطلبُ شيئاً غير مطلوب

إلى كم تقول سأتوب؟ متى يجبل اللسان الكذوب؟

اجتمعت أحزان القوم على القلوب فأوقدت حولها نار الحذر، وكان
الدمع صاحب الخبر فتمّ.

سارت نجائب الأعمال إلى باب الجزاء فصيح بالدليل ﴿وَلَوْلَا أَنْ

ثَبَّنَّاكَ﴾ [الإسراء: ٧٤] فقال: «ما منكم من أحدٍ يُنَجِّيه عمله»^(١).

إن كنت تنوح يا حمام البان للبين فأين شاهد الأحزان

أجفانك للدموع أم أجفاني لا يُقبل مدّع بلا برهان

يا من أنفاسه محفوظة، وأعماله ملحوظة، أتنفق العمر النفيس في نيل

الهوى الخسيس؟

جدّ الزمان وأنت تلعبُ والعمرُ لا في شيء يذهبُ

كم كم تقول غداً أتوبُ غداً والموت أقربُ

كم من مستيقظ وقد فات الوقت، ينظر إلى نفسه بعين المقت،

ويصيح بنصيحه لقد صدقت، كم قدّم إلى القبور قادمٌ! كلهم على فراش

الندم نادم.

(١) متفق عليه.



المذهشات

يا عُبيدِ فِلسِه! يا عدو نفسه! ويحك! أتبحث عن حتفك بظُلفِك؟
وتجدع بسيفك مارن^(١) أنفك؟

ما أكرم نفسه قط من لم يُينها، فاحذرها فكلّ ما يجري عليك منها،
حاسبها قبل يوم الحساب وزِنها، وخَفْ شَيْنَ شَيْنِهَا إن شئت عَزَّهَا وزِنها،
من طلب المعالي سهر الليالي، لولا صبر المُصمِّرِ على قلة العلف ما قيل
سباق.

هَوْنٌ في الليل عليها الغررا^(٢) إن العلى مقيدات بالسرى
فركبت بسوقها رؤوسها حتى تخيلنا الحجول الغررا
علمها النوم على رباطها ذليلة أن تستطيب السهرا
قد تركت مطمعتها لشوقها تقول: كل الصيد في جوف الفرا^(٣)

سينقشع غيم التعب عن فجر الأجر، كم صبر بشر عن شهوة حلوة،
حتى سمع كلمة حلوة «كل يا من لم يأكل»^(٤).

ما مُدَّ سِجافُ^(٥) ﴿نَعَمَ الْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤] على قُبَّةِ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ﴾ [ص:

٤٣] حتى جُرَّبَ في أمانة ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا﴾ [ص: ٤٤].

(١) المارن: ما لان من الأنف.

(٢) الغرر: الخطر.

(٣) الفرا: حمار الوحش.

(٤) بناء على رؤيا منامية.

(٥) السجاف: الستر.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

من لم تبك الدنيا عليه لم تضحك الآخرة إليه.

نُعَدُّ المَشْرِفِيَّةَ والعِوَالِي وتقتُلنا المنون بلا قتالِ
ونرتبط السوابق مُقَرَّبَاتٍ وما ينجين من خَبَبِ الليالي
نصيبُك في حياتك من حبيب نصيبُك في منامك من خيال
يُدفن بعضنا بعضًا وتمشي أوأخرنا على هام الأوالي
وكم عينٍ مُقَبَّلَةَ النواحي كحيلٍ بالجنادل والرمال^(١)

لقد وعظ الزمان وما قصّر، وتكلّم الصامت وما أقصر، ولاح الهدى
وإنما الشأن فيمن أبصر، ونطقت المواعظ بزجرٍ لا يُحصر، هلكت ثمود
بصيحة وعادّ بريح صرصر، وكُسِرَ كسرى وقُصِرَ قيصر، تالله ما يبالي
ميزان الجزاء أربح أم أخسر.

أيها المتحرك في الدنيا! لا بد من سكون، لا يغرنك سهلها فبعد
السهل حُزون.

إنما الدنيا بلائٌ ليس للدنيا ثبوتٌ
إنما الدنيا كبيتٍ نسجته العنكبوت
إنما يكفيك منها أيها الراغب قوت
يا من عاهد على الطاعة في الإعلان والإسرار! كيف استحللت حلَّ

(١) الجنادل: الحجارة.



المذهشات

عَقَدِ التوبة، وعَقَدِ الإصرار؟ كم بينكم وبين المتقين الأبرار؟ ملكتكم الدنيا
وملكوها فالقوم أحرار، وأسفى! متى رحلوا؟ ليت شعري أين نزلوا؟
مالت بالقوم ريحُ السحر ميل الشجر بالأغصان، فهزَّ الخوف أفنان
القلوب، فاللسان يتضرع، والعين تدمع، والوقت بستان.

إخواني! أين الذين سَلَبُوا؟ سَلَبُوا! طال ما غَلَبُوا فَعَلَبُوا. عمّروا
ديارهم فلما تَمَّتْ خَرَّبُوا.

كُلُّ حَيٍّ فَقْصَارَاهُ الْأَجَلُ ليس للخلق بذا الموت قِبَلُ
جُزْ على القبور بقلب حاضر، وسَلَهَا ما فعل الوجه الناضر؟ ثم
خاصم نفسك على التواني وناظر.

كم صاح بك واعظ! وما تسمع، وكم حصّلت ما يكفي! ما تقنع،
لقد استقرضك مولاك مالك فما لك تجمع؟ وضمّن أن نبت الحبة سبعمائة
وما تزرع!

إخواني! غرقت السفينة ونحن نيام، أبوكم لم يُسامح في لقمته،
فالبدار يا عاص! منادي القبول على منازل الوصول يقول: ﴿وَسَارِعُوا﴾
[آل عمران: ١٣٣].

الغيم رطبٌ يُنادي يا غافلين الصُّبُوحُ
فقلّت أهلاً وسهلاً ما دام في الجسم روح



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

قد قيّد الطرد قدميك، وغلّ الإبعاد يديك، أفمالك عينٌ تبكي عليك؟
على نوحٍ نحتُ السفينة، وأن يصيح اركبوا، فما ذنبه أن تخلف فلان؟
إخواني! ما قعودكم وقد سار الركب؟ الحقوهم في المنزل، النجاء
النجاء من شرِّ الخِلاف^(١) الوَحَا الوحا^(٢) قبل لحاق الأسلاف، الحذر
الحذر من خطوات الخطايا، الهرب الهرب قبل بتّ الأمانى بالمنايا، قبل أن
تنزلوا الكِفَات^(٣) وتلحقوا الرفات.

عباد الله! إنما الأيام طُرُقُ الجَدِّ، والساعات ركائب المجد، وأيام
العافية أوقات تستدرك، وأحيانُ السلامة تنادي: من جدّ أدرك.

كم للمنية من ضروب	بين الحوادث والخطوب
تدع الحبيب بلا محبِّ	وكذا المحبُّ بلا حبيب
لا والذي هو قاذفٌ	بالحقّ علام الغيوب
وُبُحكمه يُملي لمن	يُملي القبيح على الرقيب
ما للنفوس مع المنيّة	في السلامة من نصيب
هيّهات أيّن يفوئها	لا بد من سهم مصيب

(١) الخِلاف: التخلف.

(٢) الوحا: السرعة.

(٣) الكفات: القبر، والرفات بقايا العظام.



المذهشات

إخواني! احذروا دنياكم فإنها خادعة، وانتظروا حُتوفها فهي لا ريب
واقعة.

أيها العبد! إلى متى تشتغل بها عن مولاك وهو غيور؟ أتظنُّ البقاء
وقلائدُ الفراق كالأطواق في النحور؟ أما تعتبرُ بأقران قُرنوا بأعمالهم في
القبور؟ أين هم الآن؟

يا قليل البضاعة! بل يا مفلس! ترجو النجاة بالمعاصي؟

كيف الرحيل بلا زاد إلى وطنٍ ما ينفع المرء فيه غير تقواه
من لم يكن زاده التقوى فليس له يوم القيامة عذرٌ عند مولاه

يارب! إليك مِنَّا نتظلم، أحوالنا تنطق عَنَّا وما نتكلم، وقلوبنا من
ذنوبنا تبكي وتتألم، وأنت العليم الذي لا يُعلم.

الموت في كلِّ حينٍ ينشر الكفنا ونحن في غفلةٍ عما يُراد بنا
كأنَّ ما قد رأينا في أحبتنا من الرحيل ونأي الدار ليس لنا

تنبهوا يا نيام! كم ضيَّعْتُم من عام! الدنيا كلها منام، وأحلى ما فيها
أحلام، علام قتل النفوس علام؟ هل هو إلا ثوب وطعام؟ ثم يتساوى
خزُّ وخام^(١)، ولذاتٌ طيباتٌ ووخام^(٢)، إنما يعرف الفُطاء لا الطَّغام، أهٍ
للغافل إلى كم يُلام؟ أما توقظك الليالي والأيام؟ أين سكان القصور

(١) الخز: القماش المنسوج، والخام: القماش قبل قصه من القصار.

(٢) الوخام: الطعام غير المستساغ.



متنخبات من المدهش للإمام ابن الجوزي

والخيام؟ دارت على الكل كأس الحِمام ﴿وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَلِ
وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧]

إلى متى مزاحمة الأنعام؟ ردوا هذه الأنفس بزمام، ازجروا هذه
القلوب عن الآثام، أقرؤوا صحائف العبر بألسنة الأفهام، يا من أجله
خلفه وأمله قدام، ربَّ يوم له مفتاح ما له ختام.

يا مقتحمًا على الحرام! ستعلم من يبكي في العُقْبَى عُقبى الإجمام، يا
من إن قعد فللدنيا وكذا إن قام! أول الدنيا همُّ وآخرها موت زؤام^(١)،
حلَّ لها الفراق وحُرِّم عليها الدوام، خَلَّها وأخرج عنها بسلام إلى دار
السلام، فالجنة رخيصة ثم ما تغلوا على مُستام.

خذها إليك نصيحة من طب^(٢) يداوي الأسقام، يضعُ الهناء موضع
النقب^(٣) ويعرف أصل الآلام، ويُركب المرهم عن حُبْر، ويدير كيف شاء
الكلام، ما بعدها نصيحة تكفي والسلام.

والحمد لله عدد أنفاس أهل الجنة، وصلواته على محمد وآله وسلم
وشرف وبارك وكرّم.



(١) الزؤام: العاجل السريع.

(٢) طب: طيب.

(٣) الهناء: القطران، النقب: الجرب.

